أ. د. مصطفى عبد الواحد


حرية الرأي في الإسلام

مفهومها وضوابطها ومجالاتها

في ضوء الكتاب والسنة



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

حرية الرأي في الإسلام

مفهومها وضوابطها ومجالاتها

في ضوء الكتاب والسنة

تأليف

د. مصطفى عبد الواحد

الأستاذ بجامعة أم القرى
ومدير مركز إحياء التراث الإسلامي سابقًا
وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

إبراهيم ، مصطفى عبد الواحد .
حرية الرأي في الإسلام : مفهومها وضوابطها ومجالاتها في ضوء الكتاب والسنة / تأليف مصطفى عبد الواحد إبراهيم . - ط١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛ ٢٠١٠ م .
٢٧٢ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٧ ٩١٥ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإسلام والحرية .
أ - العنوان .
٢١٤,٣٢٣٤٤

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لله الحمد في الآخرة والأولى، وصلاته وسلامه على نبيّه المجتبى. وبعد

فهذا بحثٌ عن حُرِّيَّة الرَّأي في الإسلام: حدودها وضوابطها ومجالاتها وآثارها وأدلتها من الكتاب والسُّنَّة مع المقارنة ببعض النظم الحديثة.

وقد حرصت على الرجوع إلى آيات الكتاب العزيز والأحاديث الصحيحة عن النَّبي ﷺ، وإلى أقوال علماء السَّلف وأعلام الهداية في الفكر الإسلاميِّ خلال العصور.

وقد اقتضى الأمر البدء بتحديد معاني كلمات الموضوع وهي:

الحرية - والرأي - والإسلام.

ثم تناولتُ المجالات المختلفة لحُرِّيَّة الرَّأي وأثبتُ أنَّ مجال العقيدة لا موضع للرَّأي فيه، فهو اتباعٌ وتصديق بما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وأن مجال التفسير أيضًا لا يتَّسع للرَّأي إلا بمقدار الاختيار والترجيح بين الأقوال المروية عن الصَّحابة والتابعين..

أما المجالات المفتوحة للرَّأي فهي:

١ - الاجتهاد الفقهيُّ.

٢ - في مجال الشُّورى.

٣ - في مجال البحث العلميِّ.

٤ - في مجال الدعوة والإصلاح.

٥ - المناقشة والجدل والحوار.

٦ - في مجال السياسة والحكم.

٧ - في مجال الصحافة.

٨ - في مجال الإبداع.

٩ - الرَّأي والاختلاف.

ثم كان لابدَّ من الحديث عن حُرِّيَّة الرَّأي في الغرب قديمًا وحديثًا؛ ليتضح مدى

صدق العالم الغربيّ في ادعائه أنه كهف الحُرِّيَّة وملاذها..، واقتضى ذلك النظر في تاريخ حُرِّيَّة الرَّأي في العصور الوسطى..، ثم في الواقع المعاصر، سواء في ذلك المجتمع الغربيّ الديمقراطيّ والشرقيّ الماركسيّ..

وقد رجعت في توضيح أبعاد هذه القضية إلى المراجع القديمة والحديثة، في الجوانب العلمية المختلفة مع المحافظة على أمانة النقل وحسن العرض والاستنتاج.

وأملي أن تكون هذه الصورة المتكاملة عن حُرِّيَّة الرَّأي في الإسلام وسيلةً لتوضيح حقائق الإسلام للأمة الإسلاميةِ في هذا العصر التي تملك ثروةً ضخمةً من المعارف والحقائق، ولكنها لا تنتفع بها ولا تعالج مشكلاتها في ضوئها..، ثم تستجدي من الغرب والشرق أشتاتًا متناثرةً متناقضةً لا يصلح بها دينٌ ولا دنيا..

ثم لنقدم للإنسانية الحائرةِ منهجًا إسلاميًّا صادقًا تستغني به عن الفلسفات والثقافات المادية المتضاربة التي ورثتها عن فلاسفة أوربا الذين ذهبوا في تصوراتهم بعيدًا عن فطرة الإنسان وحاجاته الحقيقية..

وقد أثبت المصادر والمراجع في كل نص أو قول؛ قيامًا بالأمانة ووفاء بحق العلم وبثًّا للثقة ونفيًا للشبهة والظنة.

واللّٰه أسأل أن ينفع المسلمين خاصة والإنسانيَّة عامَّة بهذا الجهد الذي لم أدخر فيه وسعًا ولم أبتغ نفعًا.. إلا رجاء الثواب من الملك العزيز الوهَّاب.

وصلى اللّٰه وسلم على نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

والحمد للّٰه رب العالمين

د. مصطفى عبد الواحد

* * *

الفَصْلُ الأوَّلُ

تعريفات وحقائق

- الحُرِّيَّة.
- الرَّأْي.
- الإسْلَام.

تحديد معاني الألفاظ

حُرِّيَّة الرَّأْي في الإسلام فيها كلماتٌ ثلاثٌ تحتاج إلى تعيين المراد بها: كلمة (الحُرِّيَّة) وكلمة (الرَّأْي) وكلمة (الإسلام).

أما لفظة الحُرِّيَّة فإنها لم ترد في القرآن الكريم، بل ورد فيه (التحرير) و (حر) و (محرر).

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء: ٩٣]، ويلاحظ أن الرقبة وصفت بالمؤمنة في ثلاث آيات منها التي ذكرناها والثانية قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء: ٩٢]، والثالثة قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء: ٩٢]. بينما جاءت الرقبة المحررة بغير تقييد في آيتين: أولاهما قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المجادلة: ٥]، ومعنى ذلك أن بعض الكفارات يستوجب « تحرير رقبة مؤمنة » وذلك في القتل الخطأ، أما كفارة اليمين فإنه يجزئ فيها تحرير أي رقبة صحيحة، سواء كانت رقبة مسلم أو كافر. وأصل التحرير كما قال الطبريُّ في تفسيره: الفك من الأسر، وإنما أضيف التحرير إلى الرقبة؛ لأن العرب كان من شأنها إذا أسرت أسيرًا أن تجمع يديه إلى عنقه بقيد، أو حبل أو غير ذلك، وإذا أطلقته من الأسر أطلقت يديه وحلتها مما كانتا به مشدودتين إلى الرقبة، فجرى الكلام عند إطلاقهم الأسير بالخبر عن فك يديه عن رقبته، وهم يريدون الخبر عن إطلاقه من أسره [1].

ثم قال الطبريُّ: « فإن قال قائل: أفكلُّ الرقاب معنيٌّ بذلك - أي: بالتحرير - أو بعضها؟ قيل: بل معنيٌّ بذلك كل رقبة كانت سليمة من الإقعاد والعمى والخرس وقطع اليدين أو شللهما والجنون المطبق ونظائر ذلك، فإن من كان به ذلك أو شيء منه من الرقاب فلا خلاف بين الجميع من الحجة: أنه لا يُجزئ في كفَّارة اليمين، فكان معلومًا بذلك أن اللّٰه لم يعنه بالتحرير في هذه الآية.

---

(١) تفسير الطبري (٧/٢٦، ٢٧) ط دار الفكر.

فأمَّا الصَّغير والكبير والمسلم والكافر فإنهم معنيُّون به » (١)، وبهذا يفتح الإسلام منافذ الحُرِّيَّة حتى للكفار؛ لأن الحُرِّيَّة مطلبٌ إنسانيٌّ عام، ولعلَّ هذا الكافر الذي يحرره مسلم أن يهتدي إلى الدِّين الحقِّ، ويتأمَّل مزايا الإسلام الجليلة.

أما كلمة حر، فقد جاءت في آيةٍ واحدةٍ هي قوله سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وفك الرقبة إعتاقها كما جاء في القاموس (٢).

وفي **أساس البلاغة للزمخشريِّ**: حَرَّ المملوك يحَرُّ – بفتح الحاء – وحرره مولاه وعليه تحرير رقبة (٣).

ومن هنا نفهم قول أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب لعمرو بن العاص في حادثة القبطيِّ الذي ضربه ابن عمرو: « متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتُهم أحرارًا » (٤).

فالحُرِّيَّة هي الأصل والعبودية عدوان على هذه الحُرِّيَّة.

والجدير بالنظر في إيراد الزمخشريِّ لمعنى كلمة « حر » أنه نقلها من الشخص إلى الكلام الذي ينطق به الإنسان فقال: « ووجهٌ حرٌّ وكلام حرٌّ ».

فالوجه الحر هو الذي يأنف من الذِّلة والصَّغار، والكلام الحر هو الذي يصدر من قلب قائله وعقله، دون رهبة ولا حذر.

وهذا يدل على إدراك العرب لحُرِّيَّة المنطق وطلاقة الرَّأْي.

وأما لفظة « المحرَّر » فقد جاءت في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران: ٣٥]، ومعنى المحرر الخالص للعبادة وخدمة المسجد. قال الطبريُّ: « معناه إني جعلت لك يارب نذرًا أن لك الذي في بطني محررًا لعبادتك، تعني بذلك: حبسته على خدمتك وخدمة قدسك في الكنيسة، عتيقة من خدمة كل شيء سواك مفرغة لك خاصة » (٥).

وهنا نرى الحُرِّيَّة بمعنًى آخر أوسع من فكِّ الرقبة وإعتاق العبد .. إنها التحرر من شواغل الدنيا والتَّفرغ لعبادة الحق سبحانه.

---

(١) المرجع السابق. (٢) القاموس المحيط مادة (فك).

(٣) أساس البلاغة مادة (حرر).

(٤) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزيِّ، ط دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م)، (ص ٨٦).

(٥) تفسير الطبريِّ (٣/٢٣٤) ط دار الفكر.

وقد أدرك الأدب الإسلاميُّ القديم هذا المعنى فقال القائل:

وَمِنَ الْبَلَاءِ وَلِلْبَلَاءِ عَلَامَةٌ ... أَلَّا يُرَى لَكَ عَنْ هَوَاكَ نُزُوعُ
الْعَبْدُ عَبْدُ النَّفْسِ فِي شَهَوَاتِهَا ... وَالحُرُّ يَشْبَعُ تَارَةً وَيَجُوعُ (١)

وقد أنشد عليُّ بن عبد العزيز بن حاجب النعمان:

رُبَّ مَسْتُورٍ عَرتْهُ شَهْوَةٌ ... فَتَعَرَّى سَتْرُهُ فَانْتُهِكَا
صَاحِبُ الشَّهْوَةِ عَبْدٌ فَإِذَا ... فَارَقَ الشَّهْوَةَ صَارَ المَلِكَا (٢)

وأنشد الحسن بن سليمان الأبلّي:

كَمْ أَسِيرٍ لِشَهْوَةٍ وَقَتِيلٍ ... أُفٍّ لِلْمُشْتَهِي خِلَافَ الجَمِيلِ
شَهَوَاتُ الْإِنْسَانِ تُورِثُهُ الذُّ ... لَّ وَتُلْقِيهِ فِي الْبَلَاءِ الطَّوِيلِ (٣)

ولهذا جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاريُّ في صحيحه قوله ﷺ: « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ.. » (٤).

وكان الأصل أن يقال: تعس من يحب المال، درهما أو دينارًا، ومن يحب الثياب الجميلة، لكن مغزى التعبير بالعبودية هنا تشبيه الرجل الذي يستذله الدينار والدرهم ويبالغ في الحرص عليه بالعبد بجامع الذل والاستكانة في كلٍّ.

وهذه الاستعارة ذات أثرٍ قوي في الإيحاء بالمعنى المراد وفي تعميق الفكرة المراد بيانها، إذ إن العبوديةَ توحي بمعاني الضعف والاستسلام والذل أكثر مما توحي به كلمة الحب الشديد أو الحرص. ومن كلام العرب: فلان عبد الطمع وخادم الأمل. إذا كان ذليلًا لمن وجه أمله إليه وضارعًا لمن علق طمعه به..

وهذه الحُرِّيَّة المعنوية والنفسية هي الحُرِّيَّة الحقيقية.. فهي تعني التَّحررَ من أسر الشَّهوات واستعباد المطامع.. وكم من رجال أحرار في الظاهر لا يملكون إراداتهم ولا يستطيعون مقاومة أهوائهم.

ومن هنا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ

(١) ذم الهوى لابن الجوزيِّ (ص ٣٤). (٢) المرجع السابق (ص ٣٣).
(٣) المرجع السابق.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد. والخميصة: الثوب الحسن.

الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي » [(١)].

فقوله: « دَانَ نَفْسَهُ » توضح لنا صورة مجسمة لامتلاك زمام الغرائز وقهرها وتوجيه قوى البدن إلى الطاعة والخضوع لله سبحانه، إلى جانب ما يدل عليه الفعل « دَانَ » من قهر العدو؛ لأن النفس أمارة بالسوء؛ ولأنها كما جاء عن بعض التابعين: أعدى أعداء الإنسان.

• الْحِفَاظُ عَلَى الْحُرِّيَّة:

ولا ينتهي حديث القرآن عن الحُرِّيَّة عند جانب الدعوة إلى عتق الرقاب وفك الأسرى، بل إنه يدعو إلى الحفاظ على الحُرِّيَّة إذا ما تعرض المؤمنون للاستضعاف وسلب الحُرِّيَّة بفعل القهر والتّسلط الذي يمارسه أعداء الإيمان.

فقد نعى القرآن الكريم على الذين رضوا بالاستضعاف والقهر والحرمان من الحقوق الدينية والإنسانية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩].

فالمسلم مطالَبٌ بالحفاظ على حريته وعدم الرِّضا بالذل والخنوع، وعدم التّنازل عن حقوق العقيدة وحقوق الكرامة والعزَّة، فإذا ضاقت عليه أرضٌ ابتغى ممارسةَ حريته في أرض أخرى يتوفر له فيها ذلك.

كما عرض القرآن قصةَ موسى وفرعون من جانب قضية حُرِّيَّة الاعتقاد وحُرِّيَّة الحياة، فقد كان فرعون ملكًا جبارًا لا يعترف بحق شعبه في الحُرِّيَّة والاختيار كما يدل على ذلك قول الحق ﷻ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٤ – ٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٤/٤). والترمذيُّ في سننه كتاب القيامة باب رقم (٢٥). وابن ماجه في سننه كتاب الزهد باب (٣١).

وستأتي مواقف من هذه القصة في ثنايا الحديث عن حُرِّيَّة العقيدة وحُرِّيَّة الفكر.

كما أنكر القرآن موقف « الأتباع » الذين يتنازلون عن عقولهم وتفكيرهم ويتبعون الأقوياء المستكبرين ..، فإذا كفر المتَّبعون كفر التابعون.

ويتحسر هؤلاء الأتباع على أنفسهم إذا رأوا العذاب الذي سيحيق بهم يوم القيامة بسبب ضلالهم وكفرهم .. فإذا الضعفاء والمستكبرون مستحقون للعذاب الأليم.

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

بل إن بعضهم يتبرأُ من بعضٍ كما يدل على ذلك قول الحق سبحانه: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

إن الإنسان مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده، ولا يجوز أن يبيع عقله لغيره؛ خوفًا أو طمعًا: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهكذا نرى معنى الحُرِّيَّة في القرآن: إنها حُرِّيَّة الذات، فلا عبودية ولا قَسْر، وحُرِّيَّة الضمير والعقل، فلا تقليد بغير دليل ولا مجاراة لاختيار أحد .. ولا خضوع للأهواء والشهوات والمطامع، وهي حق طبيعي للإنسان لا يجوز العدوان عليه ولا الجدال حوله.

* * *

الحُرِّيَّة في السُّنَّة

ولا يخرج معنى الحُرِّيَّة في السُّنَّة النَّبَوِيَّة عن معناها في القرآن الكريم، فتحرير الرقاب في الكفارات والتَّرغيب في العتق يرد في بعض الأحاديث كقوله ﷺ للرجل الذي جامع امرأته في نهار رمضان: « حَرِّرْ رَقَبَةً » [١].

أما الترغيب في العتق فهو يبلغ الغاية من الحث، إذ يربط بينه وبين دخول الجنة كقوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ: « مَنْ أَعْتَقَ امرأً مُسْلِمًا كَانَ فِكَاكَهُ مِنَ النَّارِ يُجْزِئُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّار » [٢]. ولا يقتصر الحث على العتق على الرجال، بل إن المرأة المسلمة مدعوة إليه أيضًا، فقد قال ﷺ: « وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِ مُحَرِّرِهَا مِنَ النَّارِ » [٣].

● وفي السُّنَّة تحذير من العدوان على الحُرِّيَّة باستعباد الأحرار فعن عبد اللّٰه بن عمرو ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « ثَلَاثَةٌ لَا تُقْبَلُ لَهُمْ صَلَاةٌ: الرَّجُلُ يَؤُمُّ الْقَوْمَ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، وَالرَّجُلُ لَا يَأْتِي الصَّلَاةَ إِلَّا دِبَارًا – يَعْنِي بَعْدَ مَا يَفُوتُهُ الْوَقْتُ – وَمَنْ اعْتَبَدَ مُحَرَّرًا » [٤]، وفي السُّنَّة أيضًا استعمال لفظ « المحرر » بمعنى العتق من النار، فقد ورد ذلك في قول أبي هريرة ﷺ: « وإن أرجع – أي من الغزو – فأنا أبو هريرة المحرر » [٥] وقد فسَّرها في الحديث بمعنى العتق من النار.

فكأن الحُرِّيَّة الحقة إنما تكون بألا يورد الإنسان نفسه موارد الهلاك..، وهل هناك أخزى للإنسان من استحقاق العذاب في جهنم؟! ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

● وإذا كان لفظ التحرير بصيغه المختلفة قد جاء قليلًا في السُّنَّة النَّبَوِيَّة فإن هناك لفظًا آخر يؤدي معناه قد جاء في أحاديث كثيرة، وهو لفظ العتق بصيغة الفعل الثلاثيِّ

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطلاق باب رقم (١٧)، وأحمد في مسنده (٤٣٦/٥).
(٢) سنن أبي داود كتاب العتاق باب رقم (١٤)، ومسند أحمد (٣٤٤/٤).
(٣) مسند أحمد (٣٨٤/٤).
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه حديث رقم (٩٧٠)، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة باب رقم (٦٢).
(٥) سنن النسائي كتاب الجهاد باب رقم (٤١)، ومسند أحمد (٣٦٩/٢).

والرباعيّ وصيغة المصدر.

والعتق كما في القاموس: الكرم والجمال والنجابة والشرف والحُرِّيَّة [(١)].

وقد جاءت مئات الأحاديث النَّبويَّة ترغب في العتق – وهو الحُرِّيَّة – وتبين ثوابه وأحكامه.

وقد بدأ الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب العتق في صحيحه بإيراد قول اللَّه تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١١ – ١٥].

وقد تضمن كتاب العتق في صحيح البخاري أن النَّبِي ﷺ لم يقتصر على العتق الواجب في الكفارات، بل كان يحثُّ أصحابه على العتق في مواقف الخوف ككسوف الشمس وخسوف القمر.. فعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: أمر النَّبِي ﷺ بالعتاقة – أي العتق – في كسوف الشمس [(٢)].

وعنها أيضًا قالت: « كُنَّا نُؤْمَرُ عِنْدَ الْخُسُوفِ بِالْعَتَاقَةِ » [(٣)]، وما ذاك إلا لأنَّ عتق الرقاب من أَجَلِّ الأعمال الصالحة التي فرضها الإسلام حينًا، ورغب فيها وحث عليها حينًا آخر.

كما فتح النَّبِيُّ ﷺ منفذًا آخر للعتق، وهو المكاتبة، ومعناها: أن يفتدي الرقيق نفسه بمال يدفعه إلى سيده. وأصل حكم المكاتبة في القرآن الكريم في قول الحق سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣].

والخير المشار إليه في الآية هو القدرة على الاحتراف والكسب. وقد اختلف أهل العلم في حكم المكاتبة هل هي واجبةٌ، أو هي جائزةٌ مأذون فيها.

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما ذلك أمرٌ أذن اللَّه فيه للناس وليس بواجب على الناس ولا يلزم أحدًا.

---

(١) القاموس المحيط مادة (عتق).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العتق باب رقم (٣) (٣٥٤/١) ط الخيرية.

(٣) المصدر السابق.

قال الطبريُّ في تفسيره: « وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: واجب على سيد العبد أن يكاتبه إذا علم فيه خيرًا وسأله العبد الكتابة، وذلك أن ظاهر قوله: « فكاتبوهم » ظاهر أمر، وأمرُ اللَّه فرضٌ الانتهاء إليه ما لم يكن دليل من كتاب أو سنة على أنه ندب. وأما الخير الذي أمر اللَّه تعالى ذكره عباده بكتابة عبيدهم إذا علموه فيهم، فهو القدرة على الاحتراف والكسب لأداء ما كوتبوا عليه » (١).

● وهكذا يفتح الإسلام منافذ الحُرِّيَّة بأساليب مختلفةٍ، فإما أن يتم العتق؛ احتسابًا وطلبًا للعتق من النار، وإما أن يصير بطريقه افتداء العبد نفسه بمال يؤديه لسيده على أقساط حتى إذا تم الأداء استرد الرقيق حريته.

وقد أمر اللَّه سبحانه بمعونة المكاتَب بالتخفيف عنه فيما اتفق عليه من المال، أو بإعطائه ما يعينه على أداء ما وجب عليه حتى ينال حريته (٢).

وفي باب الْعِتقِ من صحيح البخاريِّ أحاديث تدل على حسن معاملة العبد بما يرفع عنه الذل ويساويه في الحقوق مع غيره. ففي باب قول النَّبي ﷺ: « **الْعَبِيدُ إِخْوَانُكُمْ فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُون** » وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

يورد البخاريُّ عن أبي ذر ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: « **إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ** » (٣).

ومعنى كلمة « الخول » في الحديث: الأعوان المطيعون. وفي اللغة: خوَّله اللَّه مالًا.
قال أبو النجم:

*** وكوم الذرى مِنْ خول المخوَّل *** (٤)

وفي الحديث: « كان ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَة » (٥). فإذا ما أصبح الرقيق « أخًا »

---

(١) تفسير الطبري (١٢٨/١٨) ط دار الفكر. (٢) انظر تفسير الطبري (١٢٩/١٨، ١٣٠).
(٣) صحيح البخاري، كتاب العتق (٣٥٨/١) ط الأميرية.
(٤) أساس البلاغة للزمخشري مادة «خول» وكوم الذرى جمع كوماء، وهي الناقة العظيمة السنام.
(٥) صحيح البخاري كتاب العلم باب رقم (١١، ١٢) وصحيح مسلم كتاب المنافقين، حديث رقم (٨٢، ٨٣).

لسيده، وإذا كان مساويًا له في الطعام والملبس، وإذا كان على سيده ألا يكلفه من العمل ما يشق عليه وما يغلب طاقته، فإذا كلفه بشيء من ذلك أعانه عليه .. فماذا بقي من معنى العبودية والهوان الذي يبادر إلى الذهن كلما ذكر الرق؟!

إن الإسلام بعد فتح منافذ الحُرِّيَّة للرقيق يضمن لهم الكرامة والحُرِّيَّة والمساواة بمثل هذه التوجيهات في الكتاب والسُّنَّة .. ففي القرآن يأمر اللَّه بالإحسان إلى « ما ملكت أيمانكم » في سياق قوله سبحانه: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ [النساء: ٣٦].

وفي السُّنَّة الصحيحة ترغيب في العتق والمكاتبة وتوجيه النظر إلى أن الأرقاء « إخوانكم » وأنهم يقفون جهدهم على خدمتكم ورعايتكم « جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ »، فلا أقل من التراحم والكرامة والمواساة بعد المساواة!.

بل إن البخاريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ عقد بابًا في صحيحه تحت عنوان: (بَاب كَرَاهِيَةِ التَّطَاوُلِ عَلَى الرَّقِيقِ وَقَوْلِهِ: عَبْدِي أَوْ أَمَتِي).

وفيه يروي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبِي ﷺ قال: « **وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمتِي. وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي** » فالإسلام يكره الرق لفظًا ومعنًى ويتشوق إلى نشر ظلال الحُرِّيَّة في كل الآفاق.

بل إن الرسول ﷺ قد قرر منزلة كريمة للرقيق الصالح القائم بحق اللَّه وحق مواليه، في مثل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « **لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الصَّالِحِ أَجْرَانِ** » ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَجُّ وَبِرُّ أُمِّي لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ » (١).

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن النَّبِي ﷺ قال: « **إِذَا نَصَحَ الْعَبْدُ سَيِّدَهُ – أي أخلص له – وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ** » (٢).

وهكذا رفع الإسلام عن الأَرِقَّاء إصر العبودية ومهانة الرق، حيث جعل بعض الأحرار يتمنون أن لو كانوا أرقاء، لما يرون من ثواب الرقيق الصالح ومضاعفة أجره.

هذا بعد الحثِّ والترغيب في إعتاق الأرقاء.

* * *

---

(١) صحيح البخاري كتاب العتق (٣٥٨/١) ط الأميرية.

(٢) المرجع السابق.

مَعْنَى الحُرِّيَّة عِنْدَ الفَلَاسِفَةِ وَالغَرْبِيين

من العجيب أننا لا نجد نصًّا صريحًا على حق الحُرِّيَّة للإنسان في التُّراث الفلسفيِّ اليونانيِّ، الذي تَبَنَّاه الزفكر الغربيُّ فيما بعد، فهاهو كتاب الجمهورية للفيلسوف اليونانيِّ أفلاطون الذي عاش ما بين عامي (٤٢٨) إلى (٣٤٨) قبل الميلاد .. يقف موقفًا غريبًا من حُرِّيَّة الإنسان، بل من حقه في الحياة.

فقد دعا أفلاطون بصراحة إلى ترك الضُّعفاء والمرضى يموتون، بل إلى قتلهم إذا اقتضى الأمر فهو يقول: « إنَّ من الواجب أن يعنى الأطباء والقضاة بالمواطنين من ذوي الطبائع الجسمية أو النَّفسية السليمة، أما من عداهم فسندع منهم أولئك الذين اعتل جسمهم يموتون، وسيقضي المواطنون ذاتهم على أولئك الذين اعوجت نفوسهم وانحرفت طبائعهم » (١).

ويقول مترجم كتاب أفلاطون: ومعنى ذلك بعبارة أخرى: أن حق الحياة، وهو أول الحقوق وأبسطها، ليس حقًّا طبيعيًا للفرد - في نظر أفلاطون - وإنما يكون للفرد هنا الحق بقدر ما يكون سليمًا وصالحًا لخدمة المجتمع وأداء وظيفته فيه فحسب (٢).

• أما حُرِّيَّة الإنسان فإنَّ نقد أفلاطون للديمقراطية، وتحامله الشديد عليها يدل على نزوع قوي إلى ما يطلق عليه في المصطلح السياسيّ الحديث اسم « الفاشية » فالجماهير في رأيه في حاجةٍ دائمةٍ إلى من يوجِّهها ويرشدها، وهي قطيع لابد له من راع، وتفتقر دائمًا إلى الذَّكاء أو التجربة التي تتيح لها إدراك مصالحها الخاصة ذاتها. ويرى أفلاطون أن المساواة في الديمقراطية شر مؤكد، وكذلك الحال في الحُرِّيَّة التي تصل فيها إلى حد أن يتساوى العبيد بأسيادهم.. ويستنكر أفلاطون أن تكون الفنون حرةً في النِّظام الديمقراطيِّ وأن يكون للشعراء مطلق الحُرِّيَّة في أن يقولوا ما يشاءون بالأسلوب الذي يفضلون، وهي كلها في نظر أفلاطون مظاهر للجموح والفوضى ينبغي التخلص منها في المدينة المثلى (٣).

---

(١) جمهورية أفلاطون، دراسة وترجمة د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة (١٩٨٥م)، (ص ١١٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (ص ١١٥).

• إنَّ الواضح في آراء أفلاطون في « مدينته الفاضلة » أنه يفقد الثقةَ في الإنسان العادي، ويعتقد أن هذا الإنسان لو ترك وشأنه لضل الطريق، وأنه بحاجة دائمة إلى توجيه من حاكم مطلق أعقل منه وأحكم!

والعجيب أنَّ رأيَ أفلاطون هذا قد سرى إلى الفكر الأوربيِّ في مختلف العصور.. حتى العصر الحديث!

ففي القرن التاسع عشر الميلادي ظهر فلاسفة ومنظِّرون في أوربا يدعون إلى كبح الحُرِّيَّة ويضحون بالفرد في سبيل المحافظة على نظام المجتمع.

منهم الإنجليزي « أدموند بيرك » (Edmund Burke) الذي كان ينتمي إلى أرسطو وتوما الأكويني، وقد أزعجه التَّأثير الذي أحدثته الثورة الفرنسيَّة على الفكر الإنجليزيِّ وأضمر لها أشد العداء والكراهية.

ومن أقواله: الحكومةُ هي إبداع الحكمة الإنسانية لتوفير احتياجات البشر ..، ومن بين هذه الاحتياجات يجب أن تحسب الحاجة إلى فرض قيد كاف على عواطف البشر المشبوبة، وهي حاجة تنبع من مجتمع مدنيٍّ، ولا يستلزم المجتمع ضرورة إخضاع عواطف الأفراد المتأججة فحسب، بل ينبغي أيضًا أن تعطل في معظم الأحيان ميول البشر وتكبح إرادتهم وتقهر عواطفهم على مستوى الجمهور والجماعة وعلى مستوى الأفراد أيضًا، ولا يمكن أن يتم هذا إلا عن طريق قوة تنبع من خارج ذواتهم، وظيفتها أن تكبحها وتقمعها، وبهذا المعنى تعد قيود البشر حقًّا من حقوقهم مثل حرياتهم تمامًا! [١].

وإذا ما رجعنا إلى تذكُّر مواقف الأمم قبل ظهور الإسلام من قضيَّة الرق .. فالدِّيانة اليهودية تبيحه، بل تحث عليه كما جاء في الإصحاح العشرين من سفر التثنية أمرًا للمقاتل اليهودي: حين تقترب من مدينة؛ لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتَّسخير وتستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النِّساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربُّ إلهك. هكذا

(١) الثقافة والمجتمع (١٧٩٠ - ١٩٥٠م)، (ص ٢٣)، تأليف رايموند وليامز ترجمة وجيه سمعان، سلسلة الألف كتاب الثاني العدد الخامس. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (١٩٨٦م).

تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، أما مدن هؤلاء الشُّعوب التي يعطيك الربُّ إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما بل دمروها عن بكرة أبيها (١).

• إنها القسوة المفرطة من جانب هؤلاء المقاتلين اليهود يتلقَّونها من كتابهم الذي يقدسونه، فإمَّا الاسترقاق، وإمَّا القتل والإبادة؟! وما ذنب البهائم العجماء حتى يشملها الإحراق والإبادة. ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر التثنية نجد هذا الأمر « الإباديَّ » العجيب: « إن سمعتم عن إحدى مدنكم التي يهبها الرب إلهكم؛ لتسكنوا فيها أنَّ بعض الفاسقين قد خرجوا من بينكم وضللوا سكان مدينتهم .. فافحصوا الأمر أولًا وتحققوا فيه بدقة، فإن تبين لكم صدقه وثبت أن هذا الأمر الشَّنيع قد جرى فعلًا، فاقضوا قضاء على سكان تلك المدينة وعلى بهائمهم واقتلوهم بحد السيف واجمعوا كل أمتعتها كاملة انتقامًا للرب فتصبح تلًّا خرابًا إلى الأبد لا تبنى بعد » (٢).

إنه انتقامٌ شامل من الإنسان والحيوان والمكان، فلا يبقى للإنسان حياة ولا حُرِّيَّة!

• أما النَّصرانية فإنها جاءت والرق ينتشر في العالم « فلم تحرمه ولم تنظر إلى تحريمه في المستقبل » (٣).

وقد أمر « بولس » الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون المسيح، فقال في رسالته إلى أهل « أفسس »:

« أيُّها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ولا بخدمة العين كمن يُرضِي الناس، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة اللَّه من القلب خادمين بنية صالحة كما للربِّ ليس للناس، عالمين أنَّ مهما عمل كل واحد من الخير، فذلك يناله من الرب عبدًا كان أو حرًّا » (٤).

وفي رسالة بولس إلى مؤمني روما إصحاح رقم (١٣) يقول لهم: « على كلِّ نفسٍ أن تخضع للسلطات القائمة مرتبة من قبل اللَّه، حتى إن من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب

---

(١) العهد القديم (ص ٢٥٦)، طبعة سنة (١٩٩٤م) كتاب الحياة.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٤٨).

(٣) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد (ص ١٥٨)، ط نهضة مصر، القاهرة.

(٤) العهد الجديد أعمال الرسل الرسالة إلى مؤمني أفسس الإصحاح، رقم (٦)، (ص ٢٩٠).

اللّٰه، والمقاومون سيجلبون العقاب على أنفسهم ..؛ لأن السلطة لا تحمل السيف عبثًا، إذ إنها خادمة اللّٰه وهي التي تنتقم لغضبه ممن يفعل الشر؛ ولذلك فمن الضروريِّ أن تخضعوا، لا اتقاء للغضب فقط، بل مراعاةً للضُّمير أيضًا، فلهذا السبب تدفعون الضرائب أيضًا؛ لأنَّ رجال السلطة هم خدام اللّٰه يواظبون على هذا العمل بعينه » (١).

حقًّا إن طاعة أولى الأمر القائمين بالعدل واجبةٌ في الإسلام لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء: ٥٩].

لكنها مقيدةٌ بالطاعة في المعروف، وليس لها صلة بالحكم بالحق الإلهيِّ. أما وصية بولس هذه فإنها تعني أن الشعب كله عبد للسلطة الحاكمة أيًا كانت؛ لأنها مرتبة من اللّٰه سبحانه!

قال الأستاذ العقاد في كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه »:

« وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية - أي خضوع العبيد لسادتهم والتفاني في خدمتهم، وأوجبها آباء الكنيسة؛ لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم. وأضاف القديس الفيلسوف توما الأكويني رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرِّق، بل زكاه؛ لأنه على رأي أستاذه أرسطو حالة من الحالات التي خُلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيِّعية، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب » (٢).

ثم يقول: « ومذهب أرسطو في الرِّق أن فريقًا من الناس مخلوقون للعبودية؛ لأنهم يعملون عمل الآلات التي يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر.

فهم آلات حية تلحق في عملها بالآلات الجامدة، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز، فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرَّشيد. وأستاذ أرسطو - أفلاطون - يقضي في جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتصَّ منه كما يريد. وقد شرعت الحضارة

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٣٦).
(٢) حقائق الإسلام (ص ١٥٨).

اليونانيَّة نظام الرِّق الخاص، أو تسخير العبيد في خدمة البيوت والأفراد » (١).

● والحقُّ أن أوربا في العصور الوسطى كانت تخضع لحكم « البابا » ونفوذه الشامل الذي كان يفوق نفوذ الملوك والأمراء، وقد كتب حاكم من آل « هوهنشتاوفن » إلى أحد الأساقفة يقول: « بحسب العالم إله واحد وبابا واحد وإمبراطور واحد » (٢)، أما ادعاء البابا أن له الحق في السُّلطة الشاملة فأمر يقوم على مبدأ بدرجة أكثر كثيرًا مما يعتقد ادعاء الإمبراطور، كما أنه كان من حيث بعض معانيه أقوى أثرًا، فمنذ أول نظرة قد يبدو أن من الكبرياء الكهنوتي المحض أن يطالب خليفة القديس بطرس بالحق الأعلى في السلطان على جميع الأمم وفوق جميع ملوك الأرض..

ومنذ عهد البابا نيقولاس الأول في القرن التاسع يجد المرء مبدأ السِّيادة البابوية على العالم وقد أخذ يصاغ صياغة تزداد سماتها الإيجابية يومًا بعد يوم، ويستخدم المرة بعد الأخرى في خلع الملوك ومنح الأراضي، والتَّحايل على القوانين القائمة (٣).

فكيف يمكن أن تكون هناك حُرِّيَّة من أي نوع، مع هذا الاستبداد المطلق، ومع هذا السلطان القهريِّ المتحكم لرجل واحد هو « بابا » الكنيسة الكاثوليكيَّة؟!

لقد جاهدت أوروبا جهادًا عنيفًا في القرون الوسطى؛ لتحقيق صيغة الدولة القومية المدنية، والخروج من أسر السلطان « البابوي » الذي كان يقوم بالحرمان الكنسيِّ لكل من يحاول التَّمرد على هذا السلطان..

وهل يمكن أن تكون في هذا الجو الخانق حُرِّيَّة رأي أو حُرِّيَّة فكر أو حُرِّيَّة اعتقاد؟!

* * *

---

(١) حقائق الإسلام (ص ٥٨ - ١٥٩).

(٢) أعلام وأفكار ليوهان هويزنجا (ص ١٢٢)، سلسلة الألف كتاب الثاني، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثانية، القاهرة (١٩٩٩م).

(٣) المرجع السابق.

مَعْنَى الرَّأْي

الرَّأْي كما في القاموس المحيط: الاعتقاد. واشتقاقه من الرُّؤية. يقول صاحب القاموس: الرؤية النظر بالعين وبالقلب (١).

فكأنَّ للقلب نظرةً للأمور المعنوية، كما أن العينَ لها نظرة إلى الأمور الحسية. وكأن الإنسانَ حين يفكر في قضية من القضايا يستطيع أن ينظر إلى حقيقة اعتقاده فيها، فيعبر عنه بالرَّأْي.

ومن هنا قيل لأصحاب القياس أصحاب الرَّأْي؛ لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثًا أو أثرًا.

وقد كان العبَّاس بن عبد المطلب عمُّ النَّبِي ﷺ يسمى في الجاهلية « ذا الرَّأْي » وفي الإسلام كان هناك من يضاف اسمه إلى الرَّأْي مثل: الحباب بن المنذر الذي كان يسمى « ربيعة الرَّأْي » وهو شيخ الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ. و « هلال الرَّأْي » من أعيان المذهب الحنفيّ.

وفي القرآن آيتان: إحداهما تعني الرؤية البصريَّة، والأخرى تعني المعرفة والإدراك ونتيجة التفكير، فالأولى قوله تعالى: ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا؛ لتأكيد وضوح الرؤية ونفي أن تكون هذه الرؤية توهمًا.

والثانية قوله تعالى إخبارًا عن قوم نوح أنهم قالوا لنبيِّهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧].

قال ابن عبَّاس « بادي الرَّأْي: ما ظهر لنا » (٢).

يريدون إيهام الناس أنَّ لهم رأيًا، وأنهم أعملوا فكرهم حتى انتهوا إلى هذه النَّتيجة البائسة، وهي أنَّ من آمن بنوح هم أراذل الناس، وأنَّ الكافرين هم أفاضلهم؛ ولهذا قالوا في الآية نفسها: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

وهذا يشبه تشبث من أصيب بالجنون بأنه هو العاقل وأن سائر الناس مجانين!

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا لا نجد فيه كلمة « الرَّأْي »، بينما نجد فيه صيغًا فعليةً

---

(١) القاموس المحيط، مادة « رأي ».

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، سورة هود.

واسمية أخرى من مادة الرُّؤية في آياتٍ كثيرة تغلب عليها الرُّؤيةُ البصريَّةُ، ولكن قد تعني الإدراك والوعي وحسن التفكير، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤].

فهذا البرهان لا يرى بالبصر، بل هو رؤية القلب ونفاذ البصيرة.

وقوله سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

فقوله سبحانه: ﴿ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ ﴾ يفيد إدراكهم لما انحرفوا إليه من ضلال، وذلك مما لا يرى بالبصر، بل يرى بعين العقل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨].

فهذا تصويرٌ للرَّأي الفاسد حين يظنُّ الإنسان عمله السيِّئ حسنًا، على نحو قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهذه هي مأساةُ الإنسانيَّةِ في كل عصورها، أنَّ أصحاب الآراء الفاسدة لا يرون فسادها ولا يحسون بضررها، بل يرونها حسنةً صائبةً تؤدي إلى أفضل النَّتائج.

حتى إنَّ الكافرين ينظرون إلى المؤمنين نظرةَ سخريةٍ واستهزاءٍ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

وقال فرعون لقومه، كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

أي: أنه جعل نفسه منظار الحياة لقومه، يفكر لهم وعليهم أن يتابعوا فكره، وأن يكون رأيه على هواه وعليهم أن ينقادوا له، فكأنَّه عطَّل عقول قومه، وحرَّم عليهم التَّفكير واتخاذ الآراء، بل إنَّ أممًا سابقةً كانت تخشى الجهر بالرَّأي، أو استعمال التفكير والوقوف عند حد الطَّاعة وإنفاذ الأمر الصَّادر إليها، وهذا هو مغزى ما حكاه القرآن عن « بلقيس »

ملكة سبأ وأهل الرَّأْي والمشورة في مملكتها، فعندما جاءها كتاب سليمان عليه السلام يدعوها إلى التَّوحيد وترك عبادة الشَّمس: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٣].

فمن الواضح أنها كانت امرأةً عاقلةً ذات فكر ثاقبٍ ورأيٍ رشيد، لكنها أرادت أن تستأنس برأي ذوي الرَّأْي من قومها فقالت لهم: ﴿ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ أي: أشيروا علي بما ترون في هذا الموقف العصيب، كيف نردُّ على كتاب سليمان صاحب الجيوش الجرَّارة والقوى المسخَّرة له وقالت لهم: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أيْ: لن أنفرد باتخاذ القرار، بل لابد من عرضه عليكم، ومن العجيب أن هؤلاء الرجال الأشدَّاء لم يجرؤوا على إبداء الرَّأْي وتقديم المشورة، بل فوَّضوا الأمر إليها، وأعلنوا أنَّ واجبهم تنفيذُ الأمر الصادر منها إليهم: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ وكأنَّهم خافوا من الجهر برأيٍ قد يخالف رأيها أو المشورة إليها برأي لا تميل إليه ..

وهكذا كانت « بلقيس » في منتهى الحُرِّيَّة والبحث عن الصواب، بينما كان الملأ من قومها في منتهى الخوف من الجهر بالرَّأْي والاكتفاء بالطَّاعة والخضوع.

لكن بلقيس اهتدت إلى الرَّأْي الصحيح في هذه المشكلة التي تهدد أمن بلادها وسلامة شعبها، فآثرت المهادنة والمصانعة وكان ردُّها على سليمان هديةً ثمينةً من الكنوز والجواهر، لكنَّ سليمانَ عليه السلام ردَّ الهديَّة، ورآها نوعًا من الرشوة حتى يترك هؤلاء القوم الذين كانوا يسجدون للشَّمس من دون اللَّه .. ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧]، وكان من أمر « بلقيس » مع سليمان ما كان حتى انتهت إلى القرار الصحيح ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]، وهكذا استعملت « بلقيس » عقلها وحمت نفسها وقومها برأيها الصائب، بينما اكتفى « الملأ » أولو القوة والبأس الشديد بالطاعة والانقياد .. وفي هذا تعطيل للعقل وإغلاق لمجال الفكر والرَّأْي .. وهذا ما يحذر منه القرآن.

* * *

الرَّأْي فِي السُّنَّة

جاء الرَّأْي في السُّنَّة منسوبًا إلى النَّبِي ﷺ ومنسوبًا إلى بعض أصحابه، فمما نسب إلى النَّبِي ﷺ ما جاء في حديث سلمة بن صخر البياضي ﷺ حين واقع امرأته في نهار رمضان ولجأ إلى النَّبِي ﷺ يعرض عليه الأمر، أنه قال لقومه: « وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الضِّيقَ وَسُوءَ الرَّأْيِ وَوَجَدْتُ عِنْدَ النَّبِي ﷺ السَّعَةَ وَحُسْنَ الرَّأْيِ » (١).

وفي سنن أبي داود أن النَّبِي ﷺ قال في قضية خصومة في مواريث: « **إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِرَأْيِي فِيمَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيه** » (٢).

وفيها أيضًا أن عمر بن الخطَّاب ﷺ قال وهو على المنبر: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّأْيَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُصِيبًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ كَانَ يُرِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَّا الظَّنُّ وَالتَّكَلُّفُ » (٣).

وما دام الرَّأْي اجتهادًا لا صلة له بالوحي فقد أوضح النَّبِي ﷺ لأصحابه أن رأيه رأيُ بشرٍ وليس من الوحي، فقد روى مسلم في صحيحه أحاديثَ جعل عنوانها: « بَاب وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ النَّبِي ﷺ شَرْعًا دُونَ مَا ذَكَرَهُ ﷺ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ » وفيه عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ: « **مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ** » فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا** » قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ، فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: « **إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ﷻ** » (٤).

وفي الباب أيضًا من حديث رافع بن خديج قَالَ: قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يَقُولُونَ: يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: « **مَا تَصْنَعُونَ؟** » قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: « **لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا** »، فَتَرَكُوهُ فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ، قَالَ: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ،

---

(١) سنن أبي داود كتاب الطلاق باب رقم (١٧) وسنن الدارمي (٦٥/٢)، ط دار إحياء السنة النبويّة.

(٢) سنن أبي داود كتاب الأقضية، حديث رقم (٣٥٨٣).

(٣) المرجع السابق حديث رقم (٣٥٨٦).

(٤) صحيح مسلم كتاب الأقضية (٣٤٠/٢) ط عيسى الحلبي.

فَقَالَ: « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ »[1].

ويزداد الأمر وضوحًا في هذه القضية بما رواه مسلم في صحيحه في الباب نفسه عَنْ عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِي ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: « لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ » قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: « مَا لِنَخْلِكُمْ » قَالُوا: قُلْتَ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُم ».

فقد أتاح لهم النَّبِي ﷺ فرصةَ التجربة واحترام نتائجها، فظن ظنًّا أو أبدى رأيًا ليس من الدِّين ولا من الوحي، وإنما هو رأيٌ بشريٌّ قابل للتَّجربة والاختبار، وجعل ذلك درسًا لهم في كل شئون حياتهم: أنَّ عليهم أن يجرِّبوا ويختبروا الوسائل المختلفة في الزِّراعة والصِّناعة والتِّجارة وغيرها من أمور الحياة الدُّنيا، دون أن ينتظروا في تلك المسائل العملية حُكمًا شرعيًّا أو وحيًا من اللَّه سبحانه.

● وبهذا ندرك خطأ من يحاولون خلع صبغة شرعية على مسائل دنيوية البشر هم أعلم بها من واقع التَّجارب والمعاناة، كهؤلاء الذين يزعمون أنَّ هناك طبًّا نبويًّا يعتمدون فيه على كثير من الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة، وينسون أن النَّبِي ﷺ في آخر حياته كانت تأتي إليه وفود الغرب فينعتون له الأنعات، أيْ: يقدمون إليه وصفات من الأدوية العشبية، وكانت عائشة رضي الله عنها تعالجها له، ومن هنا كانت معرفتها بتلك الأدوية وخبرتها في المعالجة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير أنه كان يقول لعائشة: يا أمتاه لا أعجب من فهمك أقول: زوجة رسول اللَّه ﷺ وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول: ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس، أو من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطِّب كيف هو أو من أين هو؟ قال: فضربت على منكبه وقالت: « أي عُرَيّة - تصغير عروة - إن رسول اللَّه ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، أو في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له فمن ثَمّ »[2].

وبهذا ضرب النَّبِي ﷺ مثلًا لأمته في الأخذ بالتَّجارب النَّافعة والفصل بين ما هو وحي وما هو رأيٌ واجتهادٌ، وبهذا نفهم معنى قول عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في الحديث

---

(١) المصدر السابق. (٢) مسند أحمد (٦/٦٧).

الذي أوردته آنفًا في الفرق بين رأي النَّبِي ﷺ ورأي أصحابه فالواضح أن هذا الرَّأْي كان في مجال القضاء بين الناس فيما لم يرد فيه وحي، وليس المراد به الرَّأْي في شئون الدُّنيا الخاضعة للتَّجربة والمعاينة، والتي قصدها ﷺ بقوله لأصحابه « **أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُم** ».

• وبهذا تتأكد بشريةُ « الرَّأْي » في مقابل عصمة الوحي وهدايته. ومن هنا وجدنا الأنصار في غزوة أحد يذهبون إلى رأي آخر غير رأي النَّبِي ﷺ كما جاء في الحديث الذي رواه الدارميُّ في سننه عن أبي موسى الأشعريِّ أنَّ النَّبِي ﷺ أول الرؤيا التي رآها قبل غزوة أحد ثم قال لأصحابه: « **لَو أَقَمْنَا بِالمَدِينَةِ، فَإِذَا دَخَلُوا عَلَينَا قَاتَلْنَاهُم** » فقالوا - أي الأنصار -: واللَّه ما دُخِلتْ علينا في الجاهلية، أفتدخل علينا في الإسلام؟! قال: « **فشأنكم إذًا** » وقالت الأنصار بعضها لبعض: رددنا على النَّبِي صلى اللَّه عليه رأيه، فجاءوا فقالوا: يا رسول اللَّه شأنك - أي اصنع ما تريد - فقال: « **الآن؟ إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعه حتى يقاتل** » (١).

ففي هذا الحديث نرى الأنصار وهم يختارون رأيًا من واقع تجاربهم في الحرب قبل الإسلام، وهم يعلمون أنَّ للنَّبي ﷺ رأيًا آخر وهو: البقاء في المدينة وعدم الخروج لملاقاة المشركين، وكلاهما رأيٌ حربيٌّ، فقال لهم النَّبِي ﷺ: « **فشأنكم إذًا** » أي: اصنعوا ما ترونه الأوفق في مواجهة الغزاة. لكنَّهم عادوا، فتحرَّجوا وندموا وقال بعضهم لبعض: رددنا على النَّبِي ﷺ رأيه فجاءوه فقالوا: « يا رسول اللَّه شأنك » أي أنَّا قبلنا الرَّأْي الذي عرضته أولًا بالبقاء في المدينة، لكنَّ النَّبِي ﷺ كان قد لبس عدةَ الحرب وتهيَّأ للخروج؛ لمواجهة الأعداء، فلا يجوز له أن يرجع عن عزمه وأن يتردد في أمر الخروج ومن هنا قال لهم: « **الآن؟!** » أي أتقولون هذا الآن؟ وأعلن أنَّ من هدي الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام أن يحسموا الأمر ويُمْضوا العزم، وقد صدق اللَّه المسلمين في غزوة أحد وعده وثبت صحَّة رأي من رأوا عدم البقاء في المدينة ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

---

(١) سنن الدارمي كتاب الرؤيا (٢/ ١٣٠). واللأمة : الدرع.

وهذا مثل واضح من أمثلة اختلاف الرَّأْي ونزول أحد الفريقين على رأي الآخر، فإذا انتهى الأمر إلى نتيجة أيًّا كانت، فإنها مقبولةٌ من الجميع.

لكنَّ المنافقين في غزوة أُحُد استغلوا هذا الاختلاف؛ ليعترضوا على النتائج ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ كأنهم يعترضون على قرار الخروج من المدينة لملاقاة الأعداء، لكنَّ الحقَّ سبحانه ردَّ عليهم بأن ما أصاب المسلمين من القتل والجراح كان قدرًا لازمًا لا مدخل لرأي أحد فيه، فقال سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ والمهم أن يتدرَّب المجتمع الإسلاميُّ على الحوار القائم على تبادل الرَّأْي ومناقشته مناقشة موضوعيَّة بعيدًا عن الخصومة والجدل.

• وفي السيرة النَّبَويَّة: أن الحباب بن المنذر ﷺ قال للنبي ﷺ حين نزل في غزوة بدر عند أدنى ماء من بدر: يا رسول اللَّه أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه اللَّه ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرَّأْي والحرب والمكيدة؟ قال: « **بل هو الرَّأْي والحرب والمكيدة** » قال: يا رسول اللَّه فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم منزلة، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب [1]، ثم نبني عليه حوضًا، فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لَقَدْ أَشَرْتَ بالرَّأْي** » [2]، ومع أن هذا الخبر قد رواه ابن إسحق ونقله عنه كُتَّاب السِّيَر، إلا أنه لم يَرِدْ في كتب السُّنَّة، لكنَّه لا يخالف ما صحَّ عنه ﷺ من قبول الرَّأْي السَّديد والأخذ به، ونلاحظ أن الحباب بن المنذر بدأ أولًا بسؤال النَّبِي ﷺ عن نزوله بهذا المكان، هل هو بوحيٍ من اللَّه سبحانه، أم من قبيل الرَّأْي والخطَّة الحربيَّة. فلما أجابه النَّبِي ﷺ بأنَّ هذا ليس بوحي، ولكنه اجتهادٌ بشريٌّ قابل للمناقشة أشار عليه بخطَّةٍ أخرى وشرح فائدتها الحربية، فأقرَّها النَّبِيُّ ﷺ وقال له « **لَقَدْ أَشَرْتَ بالرَّأْي** » أي: بالرَّأْي السَّديد المحقِّق للغرض، وهذا من تواضعه ﷺ وسعة صدره وحرصه على تدريب أصحابه على التفكير والاجتهاد فيما يحقق فائدة المجتمع المسلم.

آرَاءُ الصَّحَابَة:

أما آراء الصَّحابة - رضوان اللَّه عليهم - فكانت متعددة بين رأي سياسيٍّ ورأي فقهيٍّ .. فقد روى أبو داود في سننه عن قيس بن عبَّاد قال: قلت لعليٍّ ﷺ: أخبرنا عن

(١) القلب: جمع قليب وهو البئر.

(٢) السيرة النَّبويَّة. لابن كثير (٢/٣٤٨).

مسيرك هذا - أيْ في الحرب التي قامت بينه وبين معاوية بن أبي سفيان - أعهدٌ عهده إليك رسول الله ﷺ أم رأيٍ رأيته؟ فقال: ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ بشيء، ولكنَّه رأيٌ رأيته [١].

وهنا يتجلَّى صدق عليٍّ ﷺ وأمانته .. فلو أنه أراد أن يخلع على صراعه الحربيِّ قداسة وأن يضمن انقياد الناس له لقال: « هذا عهد عهده النَّبِي ﷺ إليَّ » لكنه قال: « ولكنَّه رأيٌ رأيته »؛ ليتحمل هو مسئولية رأيه الذي ارتآه ولا ينسب إلى النَّبِي ﷺ. وهذا يوضح حرص الصَّحابة - رضوان الله عليهم - على الفصل بين الوحي وبين الرَّأي البشريِّ المبنيِّ على التفكير والاجتهاد.

وقد روى الدارميُّ في مقدمة سننه عن طاوس قال: ربما رأى ابنُ عبَّاس الرَّأْي، ثم تركه [٢].

والمراد بالرَّأْي هنا: الرَّأْي الفقهيُّ. ومن الطبيعي أن لا يتفق الفقهاء في آرائهم، لاختلاف الاجتهاد واختلاف الوقائع. فقد روى الدارميُّ في مقدمة سننه عن حميد قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو جمعت النَّاس على شيءٍ، فقال: ما يسرني أنهم لم يختلفوا. قال: ثم كتب إلى الآفاق أو إلى الأمصار: ليقض كلُّ قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم [٣].

ومن ذلك ما رواه الدارميُّ بسنده عن مروان بن الحكم قال: قال لي عثمان بن عفان: إنَّ عمر قال لي: إني قد رأيت في الجد رأيًا، فإن رأيتم أن تتبعوه فاتبعوه. قال عثمان: إن نتبع رأيك فإنه رشدٌ، وإن نتبع رأي الشَّيخ قبلك فنعم ذو الرَّأْي كان. قال: وكان أبو بكر يجعله أبًا [٤].

ومن هنا قال عون بن عبد الله: « ما أحب أن أصحاب النَّبِي ﷺ لم يختلفوا، فإنهم لو اجتمعوا على شيءٍ فتركه رجل ترك السُّنَّة، ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحدٍ أخذ السُّنَّة » [٥].

ولكنَّ الرَّأْي لا ينبغي أن يكون حكَمًا على الدين، فلكل منهما مجاله وقد روى البخاريُّ في صحيحه بسنده عن أبي وائل قال: قال سهل بن حنيف: يا أيها الناس

(١) سنن أبي داود كتاب السنة حديث رقم (٤٦٦٦).
(٢) سنن الدارمي (١/١٥١). (٣) المصدر السابق.
(٤) سنن الدارمي (١/١٥٠). (٥) المصدر السابق.

اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل - في صلح الحديبية - ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته .. »[١].

والإفتاء بالرَّأي وترك الكتاب والسُّنَّة مزلق خطيرٌ حذَّر منه النَّبي ﷺ بقوله فيما رواه البخاريُّ بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت النَّبي ﷺ يقول: « **إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِم، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَونَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ** »[٢].

ولا نريد هنا الدخول في مجالات الرَّأي وحريَّته..، فلذلك موضعه المخصص في هذا البحث، لكن نريد هنا إيضاح معرفة المسلمين للرَّأي وتمييزهم بينه وبين الوحي ثم تقسيمه بعد ذلك إلى رأيٍ محمود ورأيٍ مذموم.

• ولعلَّ من المناسب هنا أن نشير إلى إدراك الشُّعراء المسلمين في العصر العبَّاسيِّ وما بعده لقيمة الرَّأي وأثره في واقع الحياة كقول أبي الطيب المتنبي في مطلع قصيدة له:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاء كُلَّ مَكَانِ
وَلَرُبَّمَا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ ... بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الأَقْرَانِ
لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ ... أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الإِنْسَانِ[٣]

ومن قبله قال بشَّار بن برد:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ المَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ ... بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمِ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غضاضة ... فَإِنَّ الخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ[٤]

ولئن كان هذا من شعر الحكمة التقريريِّ الذي لا خيال فيه ولا تصوير إلا أنه مقبول في العقل والسمع؛ لأنه يوفر على الإنسان عناء التَّجربة ويوضح له مكانة « الرَّأي » النَّاشئ عن التفكير والبحث.. فالرَّأي يأتي أولًا قبل الاندفاع والتَّهور وبعده تأتي الشجاعة .. فإذا اقترن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس (٢٦٣/٤) بحاشية السندي.

(٢) المرجع السابق (٢٦٢/٤).

(٣) ديوان المتنبي (ص ٣٤٨)، ط مكتبة صادر بيروت.

(٤) الخوافي: ريشات في جناح الطائر إذا ضم الطائر جناحيه خفيت والقوادم: ريشات في مقدم الجناح.

الرَّأي بالشَّجاعة في نفس حر فإنه يرقى به إلى المجد والعلياء.

وإذا كان هناك طعان بالسيوف والرماح فإن هناك طعانًا بالآراء، ولولا العقل لكانت السِّباعُ أشرف من الإنسان..

وقد افتتح الطُّغرائيُّ قصيدته لامية العجم بقوله:

أَصَالَةُ الرَّأْي صَانَتْنِي مِنَ الخَطَلِ وَحِلْيَةُ الفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى العَطَلِ (١)

وقال أبو تمام يمدح الخليفة العباسيَّ المأمون:

وَأَرَى الأُمُورَ المشكَلاتِ تَمَزَّقَتْ ظُلُمَاتُهَا عَنْ رَأْيِكَ المتَوَقِّدِ (٢)

وهنا نرجئ الحديث عن موقف الإسلام من الرَّأْي وتوجيهه له بما يحقق الغايات المثلى للمجتمع الإسلام، ونتحدث عن الكلمة الثَّالثة في عنوان هذا البحث وهي « الإسلام ».

* * *

(١) القصيدة كاملة في الكشكول للعاملي (٣٩٧/١)، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٩٦٠م).

(٢) ديوان أبي تمام (ص ١١٣)، المركز العربي للبحث والنشر - بيروت طبعة مصورة عن نظارة المعارف.

الإِسْلَام

وهل يحتاج الإسلام إلى تعريف وهو الرسالة الخاتمة التي قال عنها الحقُّ سبحان: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وهو دِينُ الأنبياء السابقين فقد كان إبراهيم عليه السلام حنيفًا مسلمًا كما قال الحقُّ سبحانه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال سبحانه عن يوسف عليه السلام أنه دعا ربه فقال: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

قال في القاموس المحيط: أسلم انقاد وصار مسلمًا. وقال في أساس البلاغة: أسلم وجهه للّه وأخلص له.

« ومن تتبع المعاني اللُّغوية للفظ الإسلام .. يتبين لنا أنها باستعمالاتها المختلفة تدور حول معاني الإخلاص والملازمة والانقياد والانصياع التّام لمن تُسلم له مع البعد تمامًا عما سواه » [(١)].

• وللإسلام أصله الواضح ومنهجه المستقيم فكل عقائده وأحكامه وآدابه قد احتواها القرآن الكريم وما صحَّ عن رسول اللّه ﷺ. ولهذا لا ينبغي أن ينسب إلى الإسلام ما لم يأت في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة من البِدَع والأهواء التي ألصقت بالإسلام كذبًا وزورًا.

قال الإمام أبو العبَّاس بن تيمية رحمه الله: وكان من أعظم ما أنعم اللّه به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسُّنَّة فكان من الأصول المتفق عليها بين الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده،

(١) الإسلام دعوة الحق للدكتور السيد رزق الطويل (ص ١٦)، سلسلة دعوة الحق برابطة العالم الإسلامي، السنة الخامسة العدد (٤٦).

فإنه ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البيّنات أنَّ الرسول جاء بالهدى ودين الحق وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم (١).

ثم قال ابن تيمية يرحمه اللَّه: « وكانت البدعُ الأولى مثل: بدعة الخوارج: إنما هي من سُوء فهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكنهم فهموا منه ما لا يدل عليه، فظنُّوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب إذ كان المؤمن هو البَرّ التقي. قالوا: فمن لم يكن برًّا تقيًّا فهو كافرٌ وهو مخلد في النار.. ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذُّنوب والخطَّايا، فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام، كَفّر أهلُها - أي أصحاب البدعة - المسلمين واستحلُّوا دماءهم وأموالهم، وقد ثبت عن النَّبِي ﷺ الأحاديث الصَّحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم. قال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: صح فيهم الحديث من عشرة أوجه. ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه وأفرد البخاريُّ قطعة منها، وهم مع هذا الذمِّ إنما قصدوا اتباع القرآن، فكيف بمن تكون بدعته معارضةَ القرآن والإعراض عنه وهو مع ذلك يكفِّر المسلمين كالجهمية » (٢).

وفي موضع آخر من رسالة « الفرقان » قال الإمام ابن تيمية يرحمه اللَّه: وأهل الضَّلال الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا وهم كما قال مجاهد: أهل البدع والشبهات، يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل كما قال فيهم الإمام أحمد. قال: هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب، يحتجُّون بالمتشابه من الكلام ويضلُّون الناس بما يشبِّهون عليهم (٣).

• ومن هنا فإن مرادنا بالإسلام الذي نبحث عن حُرِّيَّة الرَّأْي فيه هو الإسلام النقي قبل أن تظهر هذه الفرق الضَّالة التي أحدثت الصراع الفكريَّ والسياسيَّ في حياة المسلمين.

إنه الإسلام المستمد من كتاب اللَّه سبحانه ومن سنة رسوله ﷺ بعيدًا عن التشويش والاختلاف والتأويل الفاسد واتِّباع الهوى وضلال الرَّأْي.

إنه الإسلام الذي قال الحق سبحانه فيه ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. الإسلام البعيد عن التفلسف والتزندق والتعصُّب، البريء من التقليد والجمود، المنكر

(١) الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية (ص ٢١) من مجموع رسائل ابن تيمية.
(٢) المرجع السابق (ص ٢٣). (٣) المرجع السابق (ص ١٠٦).

للعدوان على الأنفس والأعراض والأموال بغير حق، المحافظ على حقوق الإنسان وحرياته وكرامته الذي لا يخضع لتأويل متأول ولا إلى تفلسف متفلسف أو إنكار زنديق، إنه الإسلام وكفى.

* * *

الفَصِلُ الثَّانِيْ

حرية الرأي في الإسلام

الذي يتضح للمتأمل العاقل المنصف: أن الإسلام دين الحُرِّيَّة يحققها للفرد والمجتمع والأمة والإنسانية.

فالحُرِّيَّة هي المناخ الذي تتفتح فيه ملكات الإنسان وينمو عقله وتفكيره، ويشعر بمسئوليته، ويمارس تحقيق إرادته في حدود مصلحة المجموع.

وإذا أردنا أن نتحدثَ عن تحرير الإنسان ذاته وتخليصه من قيود العبوديَّة وإنقاذه من مهاوي الذل.. فإن الإسلام صاحب السَّبق والسَّعة والصدق في هذا المجال، فقد جاءت شريعته المحكمة بتحرير الأرقاء بكل وسيلة متاحة، بالعتق احتساب الأجر من اللَّه، وبالعتق كفَّارة في بعض ما تجب فيه الكفَّارة وبالمكاتبة لافتداء الرقيق نفسه من الرِّق بماله..

وليس هذا مقصدنا في هذا البحث، فله مجال آخر يتسع للتفصيل فيه ..، وإن كنا نلفت النَّظر إلى خطأ الوهم الشائع بأنَّ الزعيم الأمريكيَّ « أبراهام لنكولن » هو محرر العبيد؛ لأنَّ الإسلام هو الدين الذي جاء بهذا التحرير ودعا إليه ورغب فيه بل أوجبه باعتباره اختيارًا من اختيارات بعض الكفَّارات!

فلئن نسبنا هذا التحرير إلى بشر.. فهو محمد بن عبد اللَّه ﷺ، ولكنه ما جاء به من عند نفسه، بل هو من هداية الوحي الذي أوحي إليه. إن أحدًا في أوربا خلال تاريخها الممتد لم يتحدث عن تحرير الرَّقيق وإلغاء الرِّق..، بل إن الولاياتِ المتَّحدة الأمريكية اعتمدت في إعمارها وازدهار اقتصادها على « الزُّنوج » الذين كانت تختطفهم العصابات، وتستعبدهم وتبيعهم في الأسواق وتذيقهم أقسى أنواع العنف والتَّسخير والاضطهاد .. حتى إذا تنادى بعض المصلحين فيها إلى إلغاء الرِّق نشبت الحرب بين ولايات الشَّمال وولايات الجنوب، أي: بين من يتمسكون بالرِّق وبين من يريدون إلغاءه، ولم يصل الموقف إلا في يناير سنة (١٨٦٥م) إلى درجة النُّضج التي تسمح « للكونجرس » بأن يقترح إلغاءه الرقيق أبديًّا بتعديل دستوريٍّ وكان ذلك على يد « إبراهام لنكولن » (١).

فالإسلام سبق إلى تحرير الرَّقيق بثلاثة عشر قرنًا، ولا يزال هذا التحرير يتلى على الناس في محكم الكتاب.

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية، لويلز (ص ١٣٤٦). (الجزء الرابع). ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

• وعندما نتجاوز قضية تحرير الذَّات الإنسانية إلى تحرير الرَّأْي..، فإننا نجد أنه لا يجوز الحديث عن حُرِّيَّة الرَّأْي إلا بعد معرفة موقف الإسلام من حرِّياتٍ ثلاث:

هي حُرِّيَّة العقيدة، وحُرِّيَّة الفكر، وحُرِّيَّة التعبير، وهو التعبير عن الرَّأْي نطقًا أو كتابة..

لأن الرَّأْي مرتبط بالفكر، والفكر مرتبط بالعقيدة، فهناك فرق بين فكر المؤمن وفكر الجاحد المكذب، ومن هنا يأتي الرَّأْي تعبيرًا عن الاعتقاد والفكر.

* * *

حرية العقيدة

جاء الإسلام بالتَّوحيد في مجتمع كان يعبد الأصنام، ويتقرَّب إليها بزعم أن هذه الأصنام تقرب من يعبدها إلى اللَّه سبحانه.

وهذا هو الشرك الذي حاربه الإسلام وأقام الأدلَّة على فساده وتناقضه..

وقد أقام القرآن الدَّليلَ النَّاصع على فساد عقيدة الشِّرك، ونادى البشر جميعًا؛ ليعبدوا إلهًا واحدًا في ذاته وصفاته، لا ندَّ له ولا شريك ولا صاحبة له ولا ولد: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وقد تضمن القرآن دلائل عقلية وكونية على وحدانيَّةِ اللَّه سبحانه منها قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

فقد بيَّنت آيةُ الإسراء أنَّه لو كان مع اللَّه إله آخر لوقع الصِّراع والتَّنازع، وبيَّنت آية الأنبياء أنَّه لو كانت هناك آلهة غير اللَّه لفسدت السماوات والأرض، ثم أوضحت آية « المؤمنون » أن اللَّه سبحانه لم يتخذ ولدًا وأنه ليس معه آلهة، ولو كان معه آلهة آخرون لانفرد كُلّ منهم بخلقه، ولتكبّر بعضهم على بعض حتى يسلِّم سائرهم لأقواهم، وحينئذ فالأقوى هو الإله، والآخرون ليسوا آلهةً، وهكذا نرى السُّور الثَّلاث قد تكاملت في إيضاح جوانب الدليل وتأكيد نفي الشَّريك عن اللَّه سبحانه بحكم العقل إلى جانب شواهد الكون.

• ونلاحظ أن آياتِ سورة المؤمنون التي أقامت الدليل العقليَّ على نفي الشَّريك عن اللَّه سبحانه قد سُبقت بدليل كونيٍّ على تلك الحقيقة يعدُّ تمهيدًا للحجَّة العقليَّة. قال

تبارك وتعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٩٠].

وبعدها تأتي الآية التي تنفي عن اللَّه سبحانه الولد والشَّريك، وتبينُ ما ينشأ عن افتراض وجود الشُّركاء من فساد ينفيه نظام الكون المحكم، ووحدة الخلق في السُّنن والتَّكوين.

وهذا يبين أن القرآن قد سَلك مَسْلك النظر الكونيِّ ومسلك الدليل العقليِّ في إثبات التَّوحيد ونفي الشُّركاء.

كما نلاحظ أن هذه الآيات من سورة المؤمنون قد جاءت بأسلوب السؤال وتقرير الجواب، وهو أسلوب التَّشويق الذي نجده في القرآن في المواطن التي تحتاج إلى إيقاظ المشاعر الهامدة وتحريك القلوب الجامدة، وقد أحاطت هذه الآيات بالمعاندين من كل جانب، بإثارة هذه الأسئلة المفاجئة التي تستخرج الجواب أسرع ما يكون: ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ ﴿ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ ﴾ ﴿ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ والجواب في كل موضع: ﴿ لِلَّهِ ﴾ أي ذلك خالص للَّه سبحانه لا ينازِعُهُ فيه أحدٌ، وإذن ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ أيْ: كيف تصرفون عن هذه الحقائق وتتجاهلون دلالة الكون وهو يناديكم بأوضح منطق، منطق المشاهدة والعيان؟

وأمام هذا الدَّليل العقليِّ الذي أقامه القرآن على نفي الشُّركاء وإثبات الوحدانية للَّه سبحانه، لم يبق للمشركين المعاندين من حجة، وقد طالبهم القرآن أن يظهروا ما لديهم من برهان على ما ادَّعوا من دون اللَّه، فلم يجدوا ما يقولون إلا الزُّور والبهتان.

قال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٤، ٥].

فهاهم المشركون في صورتهم الحقيقيَّةِ لا يملكون دليلًا من شواهد الكون على ما يزعمون: ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ ويكتفي السِّياقُ هنا بالأرض، ولا يطالبهم برؤية ما خلقت أصنامُهم في السَّماء، فحسبهم إن استطاعوا أن يدلونا على أثر معبوداتهم الباطلة في الأرض وحدها، أو في جزء صغير منها، وأن يدلونا على نصيب معبوداتهم من السَّماء، لكنهم لا يقدرون على هذا ولا ذاك، ثم تطالبهم الآيات بالدليل العقليِّ إن كان لديهم دليل: ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤] وأيُّ علم يثبت لهم أن للَّه شركاءَ فيما خلق وبرأ؟! وأيُّ كتابٍ يُقرُّهم على مسلك الجهالة والجحود؟!

وإذن فليس للشرك من حجَّةٍ ولا برهان، بل هو أهواءٌ متَّبعةٌ، وأوهامٌ متسلطةٌ وقع هؤلاء الأشقياء صرعى لها!

* * *

وقد عرض القرآن شبهاتِ المشركين، وأجاب عنها بما ينقضها ويكشف عن بطلانها.. فقد عجب المشركون من دعوة التوحيد، وقالوا كما جاء في القرآن: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

وهكذا يعوج المنطق حين تطمس البصائرُ، ويضطرب العقلُ، ويسود الهوى ويغلب الاستكبار، فأصبح التوحيد عند المشركين خروجًا عن الأصل ومخالفة لما أجمعوا عليه، بل زعموا أنه مخالفةٌ للدين حيث قالوا: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [ص: ٧].

وقد يسأل سائِلٌ: لماذا حكى القرآن أقاويلَ المشركين مع القطع بفسادها وجهالتها؟ والجواب: أن الإسلامَ دين الحقِّ لا يخاف شيئًا من عرض هذه الأقوال الباطلة، بل إن القرآن يعرضها ليكشف فساد عقول المشركين، ثم لينقضها من أساسها.

ومن هنا سجَّل القرآن مواقف هؤلاء المشركين كما سجَّل مواقفَ الأقوام جميعًا من رسلهم وما ردُّوا به عليهم حتى لا تبقى لهم شبهةٌ، ولا يزعم زاعمٌ أنَّ لهم رأيًا لم يُنَاقش أو حجَّةً لم يُرَدَّ عليها.

فقد زعموا فيما زعموا: أنَّهم إنَّما يعبدون الأصنام؛ لتقربهم إلى اللَّه، نقرأ ذلك في قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ

ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

• وقد كان الردُّ القرآنيُّ على هذه الشبهة موجزًا حاسمًا، فبيَن أن هؤلاء كاذبون مُغرقون في الجحود: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾؛ لأنَّ الذي يبتغي التَّقرب إلى اللَّه سبحانه لا يتقرب إليه باتِّخاذ أنداد معه يساويهم باللَّه سبحانه في الخوف والرَّجاء ويتوجه إليهم بالقربات والدعوات، ويعتقد أن لهم مدخلًا في التَّدبير والتصريف.

فهذا الزَّعْم الجاحد ما هو إلَّا كذبٌ صراح، والتياثٌ في التَّفكير.

وأيُّ زلفى هذه التي تجعل الإنسان يعتقد أن حجرًا أصمَّ ينفعه أو يضره، أو أنه سبيل القرب من اللَّه؟!

إن هؤلاء المشركين قد أهدروا نعمة العقل، وأصمُّوا آذانهم عن نداء الفطرة، وورَّثوا الضلالة من يأتي بعدهم ويتبع سبيلهم.

ومضت الآيات من سورة الزُّمر تستنكر هذا الادِّعاء، وتبين أنَّ اللَّه سبحانه لم يتخذ ولدًا وليس له شريكٌ، وأنَّه لم يجعل لشيء من خلقه استحقاقَ العبادة أو التَّقديس، فقال سبحانه: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤].

وبعد لفت الأنظار إلى بدائع الخلق يأتي تقرير الحقيقة، والنَّعي عن المعرضين عنها: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر: ٦، ٧].

وحين نتدبر سورة الزُّمر نرى أنَّ الموضوع الغالب فيها هو مناقشةُ أباطيل المشركين وفضح مواقفهم ومسالكهم الخاطئة وتثبيت دعائم التوحيد..

وهذه السُّورة مكيَّةٌ في أكثر آياتها .. وليس فيها إلا ثلاث آياتٍ نزلت بالمدينة، فلهذا كان موضوعها الأول: هو الردُّ على مزاعم المشركين، وبيان تناقضهم في مسالكهم، إذ يتجهون إلى اللَّه وحده ساعة الخطر وعند الضُّر، فإذا كشف اللَّه عنهم النِّقمة وبدَّلها نعمةً، رجعوا إلى أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن

سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

ثم تجابهُ السُّورةُ المشركين بأنَّهم قد خسِروا خسرانًا مبينا، وأيُّ خسارةٍ أكبرُ من خسارتهم أنفسَهم وأهليهم يوم القيامة؟!: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٣ - ١٥].

وتضرب السُّورةُ مثلًا للمشركين يدلهم أوضحَ دلالةٍ على فساد تصورهم وشناعة سلوكهم في زعمهم أنَّهم إنَّما يعبدون الأصنامَ؛ لتقربهم إلى اللّٰه سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٩].

فهل يرضي أحدَهم أن يكون له عبدٌ يشاركه فيه غيره من السَّادة؟ أم يحب أن يكون عبده خالص الولاء له لا يوزِّع مشاعرَه بين عدد من المُلَّاك، بل يختصّ بها سيده وحده لا ينازعه فيها منازعٌ؟! وإذن فكيف يكون التَّقربُ إلى اللّٰه في زعمهم بالإشراك به، وكيف يظنُّ هؤلاء الجاحدون أنَّ اللّٰهَ يقرِّبهم إليه حين يعبدون معه غيره؟!

ولوضوح الدلالة وزوال الشُّبهة بتقرير هذا المثل ختمت الآيةُ بحمد اللّٰه سبحانه، فقد أظهر الحق لمن يريد اتباعه، وبيَّن أنَّ الشرك لا يمكن أن يكون سبيلًا من سُبُل الإيمان ولا طريقًا من طرق الرضوان: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ لأنهم يتبعون الجهالة ويتعبدون بالضلالة.

كما نلاحظ في سورة الزُّمر تأكيدًا لوصف المشركين بالكذب، عن طريق تكرار هذا الوصف؛ حتَّى يعلم النَّاسُ جميعًا أنَّ الشِّرك ما هو إلا كذبٌ وادِّعاءٌ لغير الحقيقة، وليس له من حجَّةٍ أو منطقٍ أو برهانٍ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣٢].

فهي مفاضلةٌ بين اتِّجاهين: كذب يُفْترى وتكذيبٌ بالصِّدق من جانب، وحق يأتي به الصَّادقُ الأمين ويصدِّقه فيه المؤمنون من الجانب المقابل.

أمَّا الكذب فهو الشِّرك، وأمَّا الصِّدق فهو التَّوحيد، ولا مناص لمن يحترم عقله ويدرك معنى وجوده، من اتِّباع طريق الصِّدق ورفض هذه الأكاذيب.

• إنَّ الثَّابت المؤكَّدَ أنَّ الإسلام لا يُكْرِه أحدًا على الدُّخول فيه، بل لابدَّ أن يكون ذلك عن اقتناع ويقين واطمئنان، ولهذا جاء في الكتاب الكريم: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وجاء فيه أيضًا قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

فلو كان الأمرُ أمرَ إكراهٍ دون اختيار من الإنسان، لأجبرهم اللَّه على الإيمان ولم يجعل لهم اختيارًا إلا لطريق واحد ..، ولكن مسئولية الإنسان في الدُّنيا وثوابه أو عقابه في الآخرة قائمٌ على أساس الرَّغبة والاختيار وإيثار أحد الطَّريقين على الآخر .. ومن هنا فليس مطلوبًا من الرَّسول ﷺ أن يحمل كل فرد على الإيمان بدعوته ولو بطريق القوة؛ لأن مهمته هي البلاغ والتذكير: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [المائدة: ٩٩]. ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

* * *

• إنَّ الإكراه على العقيدة أمرٌ مرفوضٌ في الإسلام .. فإيمان المكرَه غير مقبولٍ، وكذلك كفر المكرَه قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

ويتَّصل بهذه الحُرِّيَّة أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يحكم على ما في قلب إنسان، أو يشكِّك في عقيدته، فيزعم أنه كافرٌ يظهر الإيمان.

وفي الحديث الصَّحيح في خبر أسامة بن زيد في إحدى المعارك أنه قتل مشركًا بعد نطقه بالشهادتين، فلما سأله رسول اللَّه ﷺ عن ذلك قال: إنما قالها تعوُّذًا من القتل فقال له رسول اللَّه ﷺ: « أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟! ».

وفي رواية أنَّ النَّبِي ﷺ قال له: « وَكَيفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَومَ الْقِيَامَةِ »[1].

وهكذا يصون الإسلامُ حُرِّيَّة العقيدة ويمنع العدوان عليها.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم (١٥٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذُّنوب والخطايا، فإنَّه أول بدعةٍ ظهرت في الإسلام، فكَفرّ أهلها المسلمين، واستحلُّوا دماءَهم وأموالهم » (١).

من هنا جاء التَّحذير الشَّديد من إلقاء هذه التُّهمة جزافًا في قوله ﷺ: « **مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِر، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا** » (٢).

وذلك لأنَّ من نطق بالشهادتين وأدَّى فرائضَ الإسلام لا يجوز لأحدٍ أن يتعقَّبَه، ويحاول التَّفتيشَ عن قلبه، بل يزعم أنه نظر في قلبه فلم يجد إيمانًا بل وجد كفرًا!

• لَا إِكْرَاه:

وَإِذَنْ فلا إكراهَ على الاعتقاد .. ولا تفتيشَ عمَّا في قلب الإنسان وإدانته رغمًا عنه .. بزعم أنَّ من يدينه من البشر أعلم منه بما في قلبه.

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تجعل للإنسان اختيارَه فيما يعتقد بلا إكراهٍ أو تخويفٍ كقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولا يقدح في حُرِّيَّة اختيار العقيدة ما جاء بعد هذه الجملة القرآنية من قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٢٩، ٣٠].

فإنَّ بيانَ جزاء الظَّالم الكافر يوم القيامة وجزاء المؤمن الصَّالح .. لا يعني الإكراه .. بل هو بيان لما يترتب على اختيار العبد لنفسه؛ ليستطيع الموازنة بين العاقبتين، وليدرك الفارق بين الطريقتين ..

وهذا كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٤ - ١٠].

فالأوَّل: صَدَّقَ بالحسنى وهي كلمة التَّوحيد، أو بالجنَّة، فأعطى واتَّقى.

---

(١) رسالة الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية (ص ٢٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب باب رقم (٧٣) وصحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم (١١١).

والثَّاني: كذَّب بالحسنى فبخل واستغنى وتكبَّر على خلْق اللَّه، فنرى هذا الاختيار الإنسانيَّ واضحًا في الاعتقاد والعمل، ومن هنا ينال الإنسانُ جزاءه على هذا الاختيار.

وهنا نتذكر أن القرآن ينعي على المقلدين في اعتقادهم دون معرفة ولا بحث عن الدليل. قال الحقُّ سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ [البقرة: ١٧٠].

* * *

فالإيمان الصَّحيح لا بُدَّ أن يكون عن معرفة واستدلال ويقين.

قال الإمام أبو العبَّاس أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: « وكلُّ من يخالف الرسلَ: هو مقلِّد متَّبع لمن لا يجوز له اتِّباعه، وكذلك من اتَّبع الرَّسول بغير بصيرةٍ ولا تبيُّن، وهو الذي يُسلم بظاهره من غير أن يدخل الإيمان إلى قلبه، كالذي يقال له في القبر: ما ربُّك وما دينُك وما نبيُّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلت، هو مقلِّدٌ، فيُضربُ بمرزبةٍ من حديد، فيصيح صيحةً يسمعها كلُّ شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق أيْ: لمات.

وقد قال تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. فمن لم يدخل الإيمان في قلبه، وكان مسلمًا في الظَّاهر فهو من المقلِّدين المذمومين » [١].

• فإذا كان إسلام المقلِّد الذي لم يدخل الإيمان قلبه غير مقبولٍ، فإن هذا أوضح دليلٍ على أنَّ الإسلام لا يُكره أحدًا على الدُّخول فيه، بل لا بدَّ أن يكون للإنسان معرفةٌ واختيار.

وقد شهد بذلك المؤرخون الأوربيُّون المنصفون مثل: (جوستاف لوبون) صاحب كتاب حضارة العرب الذي قال: « إن القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوامِ النَّصرانيةِ الإسلام، واتخذوا العربيةَ لغةً لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السَّابقين، ولِمَا كان الإسلام عليه من السُّهولة التي لم يعرفوها من قبل. وقد أثبت

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٤/٢٠٠).

التَّاريخ أنَّ الأديان لا تُفرضُ بالقوَّةِ، فلما قهر النَّصارى عرب الأندلس فضَّل هؤلاء القتلَ والطَّرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

- **لَمْ يَنْتَشِرْ بِالسَّيفِ:**

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذنْ، بل انتشر بالدَّعوةِ وحدها، وبالدَّعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالتُّرك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها (١).

ويزيد عدد المسلمين في الهند يومًا فيومًا، مع أنَّ الإنكليزَ الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر يُجَهِّزون البعثاتِ التَّبشيريَّة، ويرسلونها تباعًا إلى الهند، لتنصير مسلميها على غير جدوى. ولم يكن القرآن أقلَّ انتشارًا في الصِّين التي لم يفتح العرب أيَّ جزءٍ منها قط، وسترى في فصلٍ آخرَ سرعةَ الدَّعوة الإسلاميَّةِ فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونًا في الوقت الحاضر (٢).

ويقول لوبون أيضًا: « وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دينٍ أدخل التَّوحيدَ إلى العالم. وتشتقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السُّهولة سرُّ قوة الإسلام، والإسلام وإدراكه سهل، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذَّوقُ السَّليم غالبًا من المتناقضات والغوامض، ولا شيءَ أكثرَ وضوحًا وأقلَّ غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام اللَّه، وببضعة فروض يدخل الجنَّةَ من يقوم بها، ويدخل النَّارَ من يعرض عنها، وإنَّك إذا ما اجتمعت بأيِّ مسلمٍ من أيَّةِ طبقةٍ، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد، ويسرد لك أصولَ الإسلام في بِضْع كلماتٍ بسهولة، وهو بذلك على عكس النَّصرانيِّ الذي لا يستطيع حديثًا عن التَّثليث والاستحالة وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاَّهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وساعد وضوحُ الإسلام البالغ، وما أمر به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسِّر بهذه المزايا سبب اعتناق كثيرٍ من الشعوب النَّصرانية للإسلام،

---

(١) تلك إحصائيات قديمة والمسلمون اليوم في شبه القارة الهندية مئات الملايين.

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر (ص ١٢٧ – ١٢٨)، ط دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دون تاريخ.

كالمصريين الذين كانوا نصارى أيَّامَ حكم قياصرة القُسْطَنْطِينيَّة، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصولَ الإسلام، كما نفسِّر السببَ في عدم تنصُّرِ أيَّةِ أمَّة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء كانت هذه الأمة غالبةً أم مغلوبةً » (١).

* * *

إنها شهادة التاريخ ودلالة الواقع .. والعجب بعد ذلك ممن يتجاهلون تلك الحقائق ويردِّدون الأكاذيبَ عن انتشار الإسلام بالقُوَّة وإرغام النَّاس على الدُّخول فيه.

والحقُّ أنَّه انتشر - كما يقول هذا المؤرخ الفرنسيُّ المنصف - بالدعوة وحدها إلى جانب سهولة العقيدة التي تملأُ القلب وتقنع العقل.

هذا وإنَّ حُرِّيَّة العقيدة في الإسلام هي من حُرِّيَّة الرَّأْي، فالعقيدة هي أَصدق الرَّأْي وخلاصة الفكر ..

فإذا كان الإسلام يقرر حُرِّيَّة العقيدة، فهو من باب أولى يقرر حُرِّيَّة الرَّأْي أصدق ما تكون تلك الحُرِّيَّة .. فالعقيدةُ ليست بالإكراه كما يقول الحق سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والعقيدة لا تعتبر إلا بالاختيار الحر والاقتناع الكامل دون شبهة من إجبار أو سلب للإرادة.

* * *

(١) المصدر السابق (ص ١٢٧).

حرية الفكر

بعد حُرِّيَّة العقيدة تأتي حُرِّيَّة الفكرِ.. والفكرُ في اللغةِ: إعمال النَّظر في الشيء كالفكرة والفِكْري بكسر الفاء - والجمع أفكار. ويقال: فكَّر في الأمر وتفكر [1].

وقد جاءت هذه المادَّةُ في القرآن في صورة الفعل، ولم تأت بصيغة الاسم « الفكر »؛ لأن القرآن لا يريد الفكر النظريَّ ولا الفلسفة المجرَّدة، بل يدعو لأن يقوم الإنسان بواجبه في التفكير ولهذا مدح الله المؤمنين أولي الألباب، وهي العقول بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فالتَّفكرُ في خلق السَّماوات والأرض هو إعمالُ النظر، واستخراجُ الدلائل من هذا الخلق البديع على قدرة الله سبحانه وكمال علمه ورحمته.

وقد تبيَّن في القرآن دعوته إلى استعمال الفكر للوصول إلى الحق كما قال سبحانه في سورة النَّحل: ﴿ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال سبحانه في السورة نفسها عن النَّحل: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٩]. فهذه الآيةُ في خروج الشَّراب من بطون النَّحل واحتوائه على مادة يكون فيها شفاءٌ لبعض الأمراض، آيةٌ علمية، تُحْوِجُ في إدراكها إلى البحث والتجربة، وهنا يكون الفكر متعلقًا بالعلم والعمل.

بل إنَّ في نعمة الأسرة، وإيجاد المودَّة والرَّحمة بين الزوجين مجالًا لإعمال الفكر؛ لاستخراج قوانين الأسرة وعلاقتها بالمجتمع. قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

كما نجد في القرآن تعقيباتٍ مكرَّرةً بلفظها في مواقع مختلفة كقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى

---

(١) القاموس المحيط مادة (فكر).

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فقد جاءت بهذا اللفظ في سورة الزُّمر [١]، وفي سورة الجاثية [٢]، أمَّا آية سورة الزُّمر، فهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

فهي دعوةٌ للتَّفكُّر في حال النَّفس عند النَّوم، وكيف أنَّ بعض النُّفوس تُتوفَّى في منامها والبعض الآخر يستيقظ حيًّا مواصلًا لنشاطه وسعيه. وهذا يستدعي القيامَ ببحوث وملاحظات حول هذا الأمر الواقع المتكرر في حياة الإنسان.

وأمَّا آيةُ سورة الجاثية فهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

فمجال التفكر هنا واسع جدًّا .. يشمل البحر وعجائبه وكنوزه وتياراته وكونه سببًا لابتغاء المنافع والسفر من قطر إلى آخر ونقل التجارة فيه .. هذا مع كون العرب أمة بعيدة عن البحر قليلة التعويل عليه في التجارة والسفر .. لأن القرآن يخاطب الناس كافة لا العرب وحدهم، ولا شك أن علوم البحار قديمة معروفة في الحضارات كلها .. وكذلك يشمل التفكّر ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وهذا شأن واسع لا مجال لحصره، ويكتفي فيه بضرب الأمثلة.

• هذا في الفكر المرتبط بالمشاهدة والملاحظة في خلق السماوات والأرض وفي أحوال الإنسان المرتبطة بمنامه وبزواجه..

وهناك فكرٌ دعا إليه القرآنُ يقوم على النَّظر في الأدلَّة العقليَّة، وتأمُّلِ الحجج؛ للوصول إلى الحقِّ.. وللحكم الصحيح على العقائد والأفكار وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦]. فقد أمرهم القرآن أن يقوموا لله أيْ: وقفة إخلاص وتجرد وابتعاد عن الهوى وخروج من أسْر التعصُّب والتقليد، سواء كان وقوفهم هذا في صورة اثنين يتحاوران، أو في صورة فرد واحد يرجع إلى معطيات العقل وأصول التفكير، وعندئذ يتَّضح لهم براءةُ الرَّسول المصطفى ﷺ مما رموه به من

(١) آية رقم (٤٢).
(٢) آية رقم (١٣).

الجنون والسّحر والشعر.. ويوقنون أنه نذيرٌ يحذّرهم من العذاب الشّديد الذي ينتظر من اتّبع هواه وخالف عقله..

وليس وراء هذا إعلاءٌ لشأن الفكر وأثره في الوجود الإنسانيّ.

• وقد كان هذا التّفكير في عجائب المخلوقات ومنافعها سببًا لارتياد العرب - بعد إسلامهم - آفاقَ البحث والنّظر في العلوم المتعلقة بما في السّماء .. وما في الأرض.

وقد ألف القزوينيّ كتابه « عجائب المخلوقات » في القرن السّابع الهجريّ، وبيّن في مقدمته: أنّه اندفع لتسجيل هذه العجائب تأثرًا بدعوة القرآن إلى النّظر في خلق السّماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦].

يقول القزوينيّ: « ولقد حصل لي بطريق السّمع والبصر والفكر والنظر حكمٌ عجيبةٌ وخواصٌّ غريبةٌ، فأحببت أن أقيّدها؛ لتثبت، وكرهت الذّهولَ عنها مخافةَ أن تفلت ».

ثم يقول: ومن لم ير من السّماء إلا زرقتَها، ومن الأرض إلا غبرتَها فهو مشاركٌ للبهائم في ذلك وأدنى حالًا منها وأشد غفلة، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والمراد من هذا النظر: التّفكير في المعقولات والنّظر في المحسوسات، والبحث عن حكمتها وتصاريفها؛ لتظهر له حقائقها، فإنها سببُ اللذّات الدّنيويّة والسّعادات الأخروية، وكلما أمعن النظر فيها ازداد من اللّه هدايةً ويقينًا ونورًا وتحقيقًا (١).

وهذا النّداءُ القرآنيّ بل الأمر الإلهيّ للناس جميعًا: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس: ١٠١].

والنظر إلى ما في السّماوات والأرض من العوالم الهائلة والآيات الباهرة لا يعني النظر إليها بالعين فحسب، بل النظر إليها بالعقل والفكر، وهذا يستغرق علوم البشر جميعًا ولا يكاد يحيط به أحد..

وهذا يفسّر ريادةَ المسلمين في علوم الفلك والبحار والجغرافيا والطّب والرّياضة والبصريات وغيرها من العلوم التي كانت متاحةً في عصرهم.

---

(١) عجائب المخلوقات للقزويني (٢/١).

والحديث عن إسهام العرب المسلمين في بناء صرحِ العلم أشهرُ من أن يحتاجَ إلى تعريف، وقد شهد به المستشرقون المنصفون. أمثال « غوستاف لوبون » في كتابه الرائع الجامع: « حضارة العرب » [(١)] - وموسوعة « تراث الإسلام » للمستشرق الألماني « جوزيف شاخت » [(٢)] - ومجموعة من زملائه - وكتاب فجر العلم الحديث تأليف « توبي.أ.هف » [(٣)]. وغيرها كثير لا يمكن حصره في هذا المجال.

ومن هنا يظهر أنَّ الإسلام دينٌ يستنهض الفكر؛ ليصل إلى الحق، وليرسم طريق السلام والأمن والاستقرار في أنحاء المجتمعات.

• عِنْدَمَا يَجْنَحُ الْفِكْرُ:

إنَّ الإسلام لا يقيِّد الفكر الإنسانيَّ بقيد، إلا أن يكون الرجوع إلى حكم الحقِّ والابتعاد عن الهوى.. وإلا أن يستهدف النفع والإصلاح لا الإضرار والدَّمار..

ومن هنا تعجب من تشعب الفكر الإنسانيِّ في طرقٍ عويصةٍ ملتويةٍ.. فالفلاسفة الأقدمون لم يدلوا البشريةَ على خيرٍ، وإن أرهقوها بالمشكلات العقلية والمصطلحات الغامضة.

لقد تصدَّى الإمام الغزاليُّ المتوفَّى سنة (٥٠٥هـ) لمقولات الفلاسفة ونقدها في كتابه « المنقذ من الضلال » و « تهافت الفلاسفة ».

وقد قسَّم الغزاليُّ الفلاسفةَ إلى ثلاثة أقسام:

١ - الدَّهريُّون الذين قالوا بقِدَم العالم، ويُسَمَّون أيضًا بالزنادقة.

٢ - الطَّبيعيُّون الذين يبحثون في الطبيعة، وقد أنكروا خلودَ الرُّوح، وجحدوا الجزاء والبعث، فانحلَّ عنهم اللجام وانهمكوا في الشَّهَوات، وهؤلاء أيضًا زنادقةٌ.

٣ - الإلهيُّون وهم المتأخِّرون كفلاسفة المشَّائين في اليونان، ورغم أنهم ردُّوا على الصنفين الأولين وكشفوا أخطاءهم، ونقدوا أسلافهم إلا أنَّهم لم يبرأوا من الكفر.. وقد حكم الغزاليُّ بكفر أتباعهم المشائية في الإسلام، ويبدو ذلك واضحًا في كتاب « التَّهافت »، ولكنه عاد في كتاب « فيصل التفرقةِ بين الإسلام والزَّندقة » يعتذر عنهم؛

(١) ترجمة عادل زعيتر ط مكتبة عيسى الحلبي - القاهرة.

(٢) صدرت في سلسلة عالم المعرفة بالكويت، سنة (١٩٧٨م).

(٣) ترجمة د. محمد عصفور. سلسلة عالم المعرفة العدد رقم (٢٦٠) - الكويت.

لضيق أفقهم وشططهم العقليّ. وقد بيّنّ الغزاليّ أقسامَ علومهم الفلسفيّة، وناقشها في ضوء المنهج الإسلاميّ، ما بين رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية، وفي هذا القسم أكثر أغاليطِ الفلاسفة.

وقد بيّنّ الغزاليّ أنه يجب تكفير الفلاسفة في ثلاثِ مسائل وتبديعهم، أيْ: الحكم عليهم بالبدعة في سبع عشرة مسألة.

أما المسائل التي كفرهم فيها فهي:

١ - مسألة قِدم العالم وإيمانهم بها.

٢ - إنكارُهم علم اللَّه للجزئيات وقصرهم علم اللَّه -سبحانه عما يقولون- على الكليات.

٣ - إنكارهم بعث الأجساد.

• ومن إنصاف الغزالي ودقته في الحكم أنه لم ينكر ما قاله الفلاسفة في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية.

أما مذهب أرسطو - كما نقله عنه أمثال: الفارابيّ وابن سينا مقلّدين لغيرهم، فهو في نظر الغزاليّ عدو الإسلام، وقد قام برد هذا المذهب متخذًا سلاحَ أرسطو نفسه وهو سلاح المنطق..

وفي كتب الغزاليّ وخاصّة - تهافت الفلاسفة - ردٌّ مُفَصَّلٌ على أغاليط الفلاسفة ودعاواهم التي شغلوا بها الأذهانَ دون جدوى [1].

• ثم جاء الإمام أبو العبَّاس بن تيمية المتوفَّى سنة (٧٢٨هـ)، فخاض معركةً عنيفةً ضد أضاليل الفلسفة التي تأثَّرَ بها بعضُ المتكلمين من المسلمين، وأراد تنقيةَ العقيدة الإسلاميّةِ من شوائب الفلسفة اليونانيّةِ، وما سُمِّيَ بالفلسفة الإسلاميّة عند الرَّازي وابن سينا والفارابيّ وغيرهم من المقلّدين لفلاسفة اليونان، وقد أعد ابن تيمية عدَّته لمناقشة هذه الأفكار التي تحجب الحق وتلبسه بالباطل، بأن أحاط علمًا بجميع علوم عصره وتبحر فيها، ومن هنا تسنَّى له أن يرد على شُبُهات الفلاسفة وعقائدهم الضَّالة، بل إنه نقدَ منطقَ أرسطو في كتابه الضَّخم المسمَّى « نقد المنطق » وأظهر فيه خطأَ أرسطو في كثير من القضايا المنطقيّة.

---

(١) يراجع كتاب « الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث » للدكتور عبد القادر محمد من (ص ٢٧٦) إلى (ص ٢٨٤) الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة (١٩٨٦م).

• وكان منهجه في دفع هذه الشُّبُهات، ورد هذه الأغاليط يعتمد على الكتاب والسُّنَّة وقد يحتج أحيانًا بأقوال التابعين وآثارهم من باب الاستئناس. والمهم لدى ابن تيمية الحفاظ على صفاء العقيدة واستمدادها من الكتاب والسُّنَّة دون اعتبار لمزاعم الفلاسفة وأشباههم.

• يقول الإمام في رسالة « الفرقان »: « فعلى كل مؤمن ألا يتكلم في شيءٍ من الدين إلا تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، ولا يتقدم بين يديه، بل ينظر ما قاله فيكون قولُه تبعًا لقوله وعملُه تبعًا لأمره؛ فلهذا كان الصَّحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يؤسس دينًا غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله اللّٰه والرسول، فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل، فهذا أصل أهل السُّنَّة. وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ما تلقَّوه عن الرَّسول، بل على ما رووه أو ذاقوه، ثم إن وجدوا السُّنَّة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك، فإذا وجدوها - أي: السُّنَّة - تخالفه أعرضوا عنها تفويضًا، أو حرَّفوها تأويلًا. فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسُّنَّة وأهل النفاق والبدعة » (١).

وفي فتاوى الإمام، وخاصَّة في مسائل العقيدة، هجومٌ كاسحٌ على أوهام الفلاسفة وخاصَّة ما زعموه من العقول العشرة والنُّفوس الفلكية التسعة (٢).

ولا يتسع المجال هنا لاستعراض ما كتبه ابن تيمية في الرَّدِّ على الفلاسفة، ومن شايعهم من الفرق الإسلاميَّةِ، فهذا مبثوثٌ في الكثير من كتبه ورسائله وفتاواه (٣).

وستأتي الإشارةُ إلى جهوده الفكريَّة عند الحديث عن حُرِّيَّة الرَّأْي.

* * *

• إنَّ الفكر ثمرةٌ من ثمار العقل الصَّحيح .. وقد بيَّن الأستاذ العقَّاد في كتابه « التفكير فريضة إسلامية » أنَّ من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقلُّ فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين؛ لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتًا تؤيده أرقام الحساب، ودلالة اللفظ اليسير، قبل الرجوع في تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء.

وتلك المزيةُ هي التَّنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتَّكليف،

---

(١) رسالة الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية (ص ٤٧). من مجموع رسائل ابن تيمية.

(٢) فتاوى ابن تيمية (٣٠١/٣).

(٣) يراجع كتاب الفكر الإسلامي للدكتور عبد القادر محمود (ص ٣٥٠)، مرجع سابق.

ففي كتب الأديان الكبرى إشاراتٌ صريحةٌ، أو مضمونة إلى العقل أو إلى التَّمييز، ولكنها تأتي عرضًا غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئًا من الزراية بالعقل أو التَّحذير منه؛ لأنه مَزلةُ العقائد وبابٌ من أبواب الدَّعوى والإنكار.

• ولكنَّ القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التَّعظيم والتَّنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضةً ولا مقتضبةً في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكَّدةً جازمةً باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يُحَثُّ فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يُلَام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه. ولا يأتي تكرارُ الإشارةِ إلى العقل بمعنًى واحدٍ من معانيه التي يشرحها النَّفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقليَّةِ على اختلاف أعمالها وخصائصها، وَتتعمَّد التفرقةَ بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يُناطُ به التأمُّل الصَّادق، والحكم الصحيح، بل يعمُّ الخطابُ في الآيات القرآنيَّة كل ما يتسع له الذهن الإنسانيّ من خاصة أو وظيفة، وهي كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام المجمل، إذ هي جميعًا مما يمكن أن يحيط به العقلُ الوازع، والعقل المدركِ، والعقل المفكِّر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء [(١)].

ويتَّضح ذلك في تأمُّل الآيات القرآنيةِ التي وردت فيها مادةُ العقل، بصيغة الفعل « تعقلون » وذلك في أربع وعشرين آية من الكتاب الكريم.. يتَّجه فيها الخطاب إلى الجاحدين والمنكرين في صيغة: « أفلا تعقلون » وفيها اللوم على نبذ العقل وعدم الرجوع إليه، كقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، ففيها تقريعُ بني إسرائيل على تناقضِهم في دعوة النَّاس إلى البرِّ، وحرمان أنفسهم من هذه الدَّعوة، وحكم العقل يقضي بأن أولى الناس بالانتفاع بالدعوة إلى البر هو قائلُها. ويلاحظ أن ذلك الإنكار على بني إسرائيل قد تكرر في آيات عدة، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

---

(١) التفكير فريضة إسلامية للأستاذ عباس محمود العقاد (ص ٣، ٤)، طبع مكتبة نهضة مصر، القاهرة، دون تاريخ.

والغالب على بني إسرائيل عدمُ استخدام العقل في المواقف الخطيرة، وقد وصفهم الحقُّ سبحانه بذلك في قوله: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

* * *

والواضح في مسالكِ المشركين والجاحدين إهمالُ العقل وعدم التَّعويل على حكمه. ومن هنا قال الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه عُبَّاد الأصنام: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

ولهذا أنكر الحقُّ سبحانه على طوائف الضَّالين من البشر أجمعين أنَّهم عبدوا الشَّيطان وأطاعوا أمره، وأهملوا العقول التي كان يمكن أن تحجزَهم عن هذا الانهيار، لو أنهم استعملوها ونزلوا عندما تأمرهم به.

قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

• هذا هو السؤال الذي يثير الأحزان في موقف البشريَّةِ من الدِّين الصحيح: أمَا كان لدى البشر الضَّالين الذين أطاعوا الشَّيطان، وصاروا من حزبه، عقلٌ يردعهم عن هذا الغيِّ، ويكشف لهم حقيقةَ الشَّيطان الذي هو عدوٌّ مبين لبني الإنسان؟!

ولا يزال هذا السؤال قائمًا في حياة البشر حتى اليوم.. في عصر الفلسفات المتضاربة والاتجاهات الفكرية المختلفة!

إنَّ مهمة الفكر أن يكون كاشفًا للطَّريق الصَّحيح محذِّرًا من مهاوي الهلكة والدَّمار.. ولكن أيُّ فائدةٍ للفكر إذا أصابه الخللُ، واعتمد على أوهام وأكاذيب!

• وقد جاءت لفظة « يعقلون » بياء الغائب في الكتاب العزيز اثنتين وثلاثين مرة.. وهي تؤكِّد ما جاء في صيغة « تعقلون » بتاء الخطاب.. ففي سورة يوسف ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وفي سورة العنكبوت: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وهنا اجتمع العقلُ مع العلم في سبيل إدراك الحقيقة. وقد يجتمع العقل مع النَّظر في الآيات وتأمل تجارب الحياة الإنسانية كما في قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وهكذا يتضافر العقل مع السَّمع والبصر للوصول إلى الحقِّ والنَّجاة من الأوهام والأساطير.

وهؤلاء العقلاء الذين يستخدمون العقل على وجهه الصحيح هم المخاطبون بالقرآن المعنيون بتفصيل آياته، كما قال رب العالمين: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

أمَّا إذا أغلق الإنسان منافذَ المعرفة، فلم يسمع الحقَّ، ولم يبصر الآيات، فإنه حينئذ شرُّ الدَّواب؛ لأنه تخلى عن مرتبة الإنسان.

قال الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

ومن المؤسف أن أكثرَ البشر خلال العصور ينتمون إلى هذا النوع الذي لا يسمع ولا يرى ولا يعقل، كما قال ربُّ العالمين: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

● إنَّ القرآنَ يهيب بالبشر أن يترفَّعوا عن مرتبة البهائم، وأن لا يقفوا عند الاستجابة للغرائز التي يشاركهم فيها الحيوان من الطعام والشراب والشهوة.. لأن الإعراض عن العقل وتعطيل الفكر وسدَّ منافذ المعرفة يؤدي بالإنسان إلى الهلاك في الدُّنيا والآخرة، ومن هنا يتحسر الأشقياء الذين عطَّلوا عقولهم ولم ينتفعوا بحواس الإدراك والمعرفة إذا وجدوا أنفسهم « أصحاب السعير » يوم القيامة: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]. وتلك جنايةُ الجهالةِ وسد منافذ المعرفة والإدراك والتفكير.. وما بهذا يرضى الإسلام.

* * *

حرية الرأي في الإسلام

• وهنا نصل إلى الغرض المقصود من هذا البحث وهو بيانُ سماحة الإسلام في مجال التعبير عن الرَّأي قولًا، أو كتابةً، أو بسائر طُرُقِ التعبير.

ولما كان هذا التعبير عن الرَّأي لا يكون إلَّا بالبيان المفصح عما في الفؤاد، فإنَّنا نرى إشادة القرآن بالبيان واعتباره نعمةً لبني الإنسان. قال الحقُّ سبحانه:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

وفي القاموس: البيان: الإفصاحُ مع ذكاء [(١)].

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه: البيان والتَّبيين: « والبيان اسمٌ جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحُجُبَ دون الضَّمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائلُ والسَّامعُ، إنما هو الفهم والإفهام، فبأيِّ شيءٍ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع » [(٢)].

ثم ذكر الجاحظ أنهم قالوا: البيان بصرٌ والعيُّ عمًى، كما أنَّ العلم بصر والجهل عمًى، والبيان من نتاج العلم والعي من نتاج الجهل.

وقال سهل بن هارون: العقلُ رائد الرُّوح، والعلم رائدُ العقل، والبيانُ ترجمان العلم.

وقال ابن التَّوأم: الرُّوح عماد البَدَن، والعلم عماد الرُّوح، والبيان عماد العلم [(٣)].

وهكذا يتَّضح أنَّ البيانَ هو وسيلة التَّعبير عن الرَّأي، والدلالة على المعاني القائمة في النَّفس، ومن هنا قال الجاحظ: « والدلالةُ الظاهرةُ على المعنى الخفي: هو البيان الذي سمعتَ اللّه تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويَحُثُّ عليه، وبذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصنافُ الأعجام » [(٤)].

وقد جاءت مادةُ البيان والتِّبيان في القرآن في آياتٍ كثيرةٍ بصيغة الاسم وصيغة الفعل ومشتقاته.

---

(١) القاموس المحيط مادة (بين).

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (١/٤٢)، طبعة مصورة أصدرتها دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) المرجع السابق (١/٤٣).

(٤) المرجع السابق (١/٤٢).

فكلمة « البيان » جاءت في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

وفي قوله تعالى عن القرآن: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وفي قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٩]. وكلمة « تبيان » جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

وكلمة « مبين » جاءت في القرآن مائة وستَّ مرات، منها ما يصف القرآن بهذا الوصف كقوله سبحانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

وكقوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ١].

وقد وصف الرسول ﷺ بهذا الوصف في قوله عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحجر: ٨٩].

بل جاء هذا اللفظ صفةً لربِّ العزَّة في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥] ومن المعلوم بالضَّرورة أنَّ صفة اللَّه سبحانه تختلف عن صفة المخلوق إذا كان الوصف بلفظ واحد.

وكلمة الحق المبين جاءت في القرآن وصفًا للإسلام في قوله سبحانه: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩].

وآياتُ القرآن بيِّناتٌ، تقيم الحجَّةَ، وتظهر الدليل، ولا تترك لمنكِرٍ شبهةً، ولهذا وصفت بذلك في الكتاب الكريم. قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ﴾ [النور: ٣٤].

وقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النور: ٤٦]، وقال ﷻ: ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ ﴾ [الطلاق: ١١] وإذا كانت كلمةُ « مبيِّنات » قد جاءت بصيغة اسم الفاعل فإنَّ هناك كلمة « بيِّنات » بصيغة الصفة المشبهة قد جاءت في اثنتين وخمسين آيةً، منها قوله سبحانه في وصف القرآن: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٩]: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [النور: ١]: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [الحديد: ٩].

وهناك كلمة « بيِّنة » جاءت وصفًا للقرآن ولدين الإسلام وذلك في قوله سبحانه:

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ١]
وقوله سبحانه: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

● إن لفظة البيان والتبيين في القرآن تدل دلالةً واضحةً على مقصد الإسلام من إقامة الحجَّة وإظهار الدَّليل: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وبهذا الكشف والإيضاح تحقَّق للبشرية المعرفةُ الصَّادقة بحقيقة الدِّين، وتُحَقَّقُ الاختيار الإنسانيّ بين الهدى والضلال.

قال سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ذلك لأنَّ الإسلام هو دين الحقِّ والصِّدق، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلافٌ ولا كتمانٌ للحق؛ ولهذا استقبلته النفوسُ الخَيِّرَةُ والقلوب الطَّاهرة أكرمَ استقبالٍ.

وجاء الفعل « بيَّن » في القرآن في خمس آيات منها قوله سبحانه: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨]. وقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

فكتمان الحقِّ ومحاولة إخفاء الهدى عن النَّاس جريمةٌ كبرى يستحق مقترفُها الطردَ من رحمة اللَّه سبحانه.

أمَّا الفعل « تبيَّن » فقد جاء في خطاب اللَّه سبحانه لنبيِّه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤].

وهذا تحديدٌ لمهمَّته ﷺ: إنَّها البلاغُ والتَّبيين الذي يظهر الحقيقةَ، ويبدِّدُ الشُّبهةَ، ويجلِّي الطريق أمام الإنسان..

ويحذِّر من طريق الجهالة والانحراف وهذه هي الغاية من تفصيل القرآن. قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥].

ومن هنا منَّ اللَّه على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ بأنْ وهبه « جوامع الكلم » أي: القدرة على

جمع المعاني الواسعة في الألفاظ الوجيزة البليغة، وقد تحدَّث الرسول ﷺ عن هذا الفضل البياني الذي وهبه الله إياه، فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ...** » (١).

وفي روايةٍ أخرى لمسلم عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: « **بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ** » وفي روايةٍ أخرى له: « **وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** ».

• إنَّ هذا البيان النبويَّ المبارك لم يكن شقشقةَ لسان، ولا استعراضًا لزينة اللفظ، لكنَّه كان تعبيرًا عن منهجٍ استقاه النَّبيُّ ﷺ من القرآن، وكان سبيله إلى التأثير في المجتمع ونقله من حال إلى حال.. ومن هنا نجد المعاني الواسعة في هذه الألفاظ القليلة.

« أمَّا قوَّةُ أفكاره ﷺ فممَّا لا يرتاب فيه إلا خصومه؛ لأنَّ الذي ينقل النَّاس من الجاهلية إلى الإسلام ويخرجهم من الظُّلماتِ إلى النُّور، لابدَّ أن يكون ذا فكرٍ قويٍّ غلابٍ. وإذا كان البيانُ أكبرَ وسائله في الإقناع والتَّأثير، فلابدَّ أن تكون الأفكارُ التي يصوِّرُها هذا البيان من القوة بحيث ترجُّ العقائدَ المتأصِّلة في النُّفوس رجًّا عنيفا، بل تحطِّمُها؛ لتبني مكانها عقائدَ أخرى تكون على أتمِّ ما يُرجى لها من التَّأصُّلِ والرُّسوخ. يَعْرِفُ هذا كلُّ عاقلٍ حصيف، وإن كان أجنبيًّا عن العربيَّة وعن أدبِهَا، فمتى قلت لأيِّ مفكرٍ في شتَّى بلاد العالم: إنَّ رجلًا قاد الملايين بالمنطق المقْنِع مِن اعتقادٍ إلى اعتقادٍ مضاد، فإنَّه سيقول لك دون حاجةٍ إلى أمثلة وشواهد: لا شك أنَّ هذا القائد مفكرٌ دقيقٌ » (٢).

ثم يقول: نطالع أفكارَ محمدٍ ﷺ التشريعية وأهدافَه الخُلُقِيَّة، وأحاديثه الإنسانية، وأخباره الغيبيَّة، فنجد ما لا يُؤْلف في عصره، ولا يُعْهَد في قومه.

وإذا كان للتَّشريع والآداب الخلقيَّة، والأحاديث الغيبية أمكنتُها الفسيحةُ في كتبِ العلماء والمحدثين، فإنَّ المحلِّلَ الأدبيَّ ينظر إليها من الوجهة الفنيَّةِ، فيجدها من ناحية الفكرة ذات قوة عالية نفَّاذة تُنْبِئُ عن عقليَّةٍ دقيقةٍ واعيةٍ، ومن هنا كثرت الحكمةُ في البيان النبويِّ، وتسابق البلغاء إلى اقتناصِها؛ لأن الحكمةَ لا تأتي إلا عن تجربةٍ شاملةٍ وفكر دقيق... أمَّا الفكرة الدَّقيقةُ لدى الرسول ﷺ فتأتي في مساقٍ واضحٍ سهل، وهي على دقَّتِها النَّافذة لا تتعدَّى في كثير من

---

(١) صحيح مسلم كتاب المساجد حديث (٥ – ٨). (٢١٣/١) ط عيسى الحلبي.

(٢) البيان النبوي للدكتور محمد رجب البيومي (ص ٢١٦، ٢١٧). الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ). دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة.

أحوالها حديثًا سِيقَ في مجلس على ملأ من الناس ففهمه الجميعُ..

ولنا أن ننظر في مجالَ التَّطبيق الأدبيّ إلى مقال مثل: قوله ﷺ: « إِنَّ الْحَلَالَ بيِّـن وَإِنَّ الْحَرَامَ بيِّـن وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِه، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَولَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّه مَحَارِمَهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » (١).

أسطرٌ قليلةٌ تعرض عدةَ قضايا متنوعة يجمعها رابطٌ دقيقٌ، فوضوحُ الحواجز بين الحلال والحرام لا يمنع وجود مشتبهاتٍ توجب اليقظةَ والحذرَ، وتدفع إلى الاحترازِ، إذ إنَّ من حام حول الحمى يوشك أن يقعَ فيه، وهنا تصويرٌ محسوسٍ لأمرٍ عقليٍّ يزيد به وضوحًا وجلاءً.

أمَّا الحِمَى المحظورُ فمحارمُ اللَّه، وأمَّا القلبُ فهو مصدر الصَّلاح إذا بَعُد عن المحارم أو الفساد إذا وقع فيها.

فما رأيُ القارئ في قوة هذه الأفكار وصوابها؟ أليست تحمل الطابعَ العامَّ لبيان الرسول، وهو الصِّدقُ الموجز دون تزيُّدٍ أو فضول؟! (٢).

● وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ من اتِّخاذ البيانِ وسيلةً للادِّعاء والتَّظاهر بالعلم والمعرفة، فقال فيما رواه جابر بن عبد اللَّه ﷺ: « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَـيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَومَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخلَاقًا، الْمُوَطَّأُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ. وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَـيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَومَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ » (٣).

والثرثارون: جمع ثرثار وهو كثير الكلام وهو مأخوذ من العين الغزيرة الماء التي يقال لها: ثرَّة وثرثارة، تشبيهًا للإنسان الكثير الكلام بغير فائدة بالعين التي يفيض منها الماء بغزارة. والمتشدقون هم الذين يملأون أشداقهم بالكلام إظهارًا للبلاغة وتكلفًا للفصاحة.

أمَّا المتفيهقون: فهم الذين يتظاهرون بالعلم ويدَّعون المعرفةَ. وأصل الفهق الامتلاء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب (٣٩).

(٢) البيان النبوي (ص ٢١٧، ٢١٨). مرجع سابق .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب البر باب رقم (٧١). والإمام أحمد في مسنده (٣٦٩/٢).

قال في القاموس: فَهِق الإناء - كفَرِح - فهقا بسكون الهاء وبتحريكها بالفتح أيضًا امتلأ. وتفيهق في كلامه: تنطَّع وتوسع كأنه ملأ به فمه.

وأولئك الذين يبغضُهم الرسولُ ﷺ كما يظهر من وصفه لهم بهذه الصِّفات: قوم خوت قلوبُهم من الإخلاص، فهم لا ينظرون إلَّا إلى النَّاس ولا يعملون إلا رياء وسمعة - إن كان لهم عمل - ولكنهم كما يظهر من هذه الأوصاف لا يعملون شيئًا ذا بال، بل يكتفون بالقول بدلًا من العمل وبالادعاء بدلًا من الحقيقة، فهم لذلك يكثرون القول وأكثره كذبٌ أو لغوٌ، ومن هنا جاء وصفهم بأنهم « ثرثارون » يفيض منهم الكلام دون وعي، كما يتدفَّق الماءُ من العين الغزيرةِ، ولكنْ شتَّان بين ما يصدر من هؤلاء من قولٍ، وما يفيض من العين من ماء، فهؤلاء يتكلمون بما يضرُّ لا بما ينفع، أما العين فإنَّها تتدفَّق بالماء الذي يحيا به الإنسانُ والحيوان والنبات، وهؤلاء لا يقفون عند حدِّ كثرةِ الكلام بغير نفع - وكفى بها خطيئةً - بل يضيفون إليها خطيئةً أخرى وهي التصنُّع في الكلام وتكلُّف الفصاحة، والادِّعاء والتكلف لا يدل على نفسٍ سويَّةٍ أبدًا، إنَّما يدل على نفسٍ مريضةٍ تعاني الغرورَ والكبرياءَ الكاذبَ، وتريد أن تشعر بالتَّفوقِ على غيرها بغير جهد ولا استحقاقٍ. وقد أُضِيف إلى هذين الوصفين وصفٌ ثالث يعمِّقُ الصُّورةَ، ويزيدها جلاءًا ووضوحًا: إنَّهم كذلك « المتفيهقون » وما أدقَّها مِنْ لفظةٍ تأتي في مكانها؛ لتبرزَ ما خفِي مِنْ سِمَات، أو استتر من صفات.

فهي تصوِّرُ أولئك الأدعياءَ على حقيقتهم: إنَّهم فارغون من كل شيءٍ، ولكنهم يدَّعون الامتلاءَ من كل شيءٍ، فما أعجب المفارقة بين الحقيقةِ والادِّعاءِ، وما أجدر ذلك الجاهل الذي يدَّعي العلم، أو العَييّ الذي يدَّعي الفصاحةَ بالسُّخرية والازدراء!

وهكذا نجد حرصه ﷺ على التَّحذير من التَّلاعب بالبيان، واتخاذه وسيلةً للفخر والكبَرياء...، فذلك يتنافى مع الصِّدق ولا يحقِّق الهدف من نعمة البيان.

• وقد أشاد النَّبيُّ ﷺ بالبيان وتأثيره وشبَّه عمله الخفيَّ في النَّفس بعمل السِّحر في لُطْفِ نفاذه وسرعةِ عمله، فقال فيما صح عنه: « **إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا** » (١).

إنَّ البيانَ عندما يتَّجهُ إلى التعبير عن الوجدان والإفضاء بالرَّأي الرَّشيد يكون له من الأثر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب رقم (٤٧). ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، حديث رقم (٤٧).

أقوى جانب، فكم من كلمةٍ تَهْدي إلى طريقةٍ حسنةٍ، أو تُطفئ فتنةً مشتعلةً، أو تصلح بين فريقين متخاصمين، ولكنَّ التحذيرَ النبويَّ من استغلال فصاحة اللسان في الخداع والتَّضليل، واكتساب المزية بين الناس بشقشقةِ اللسان يظلُّ قائمًا مَرْعِيًّا.

ومن هنا جاء التحذيرُ من البيان الذي لا يرعى مصلحةَ الإنسان، فقد روى الترمذيُّ في سننه والإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة الباهليِّ عن النَّبِي ﷺ أنه قال: « **الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ** » (١).

ولا تناقضَ بين الإشادة بالبيان وشدَّة أثره في قوله ﷺ: « **إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا** ». وبين ذمِّ البيان في هذا الحديث؛ ذلك لأنَّ النَّبِي ﷺ قرن هذا البيان بالبذاء. والبذاء، هو الفحش ومنه قولهم: رجل بذيء أيْ: فاحش. وإذن فإن البيان المذموم هناك: إنما هو البيان المقترن بالفحش الَّذي يُتَّخذُ وسيلةً للهدم لا للبناء وللإفساد لا للإصلاح.

وقد ذم اللَّه سبحانه بيانَ المنافقين في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤]. وذلك لطول قيامهم وقدرتهم على تشقيق الكلام وتكلُّف المعاني والألفاظ.

• فالبيان إنما يُمدح أو يذم بحسب مضمونه وغايته، لا بحسب ألفاظه وتنميقها؛ لأنَّ البيانَ مسئوليةٌ كبرى يحملها الإنسان، وليس وسيلةً للفخر وإحراز المنزلة بين الناس ونيل إعجابهم.

ولهذا وقف الجاحظُ في كتابه « البيان والتَّبيين » من هذا الحديث موقفَ التَّعجب، بل رأى أنه يناقض ما في القرآن من مدح البيان حيث قال في مواجهة من فضلوا الصَّمتَ على النطق: وزعمتم أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: « **شُعْبَتَان مِنَ شُعَبِ النِّفَاقِ: الْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ، وَشُعْبَتَانِ مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ: الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ** ».

ونحن نعوذ باللَّه من العيِّ، ونعوذ باللَّه أن يكون القرآن يحثُّ على البيان، ورسول اللَّه ﷺ يحث على العيّ، ونعوذ باللَّه أن يجمع رسولُ اللَّه ﷺ بين البذَاء والبيان، وإنما وقع النهيُ عن كلِّ شيء جَاوز المقدار، ووقع اسم العيّ على كل شيء قَصُر عن المقدار، فالعيُّ مذمومٌ والخطل مذمومٌ، ودين اللَّه تبارك وتعالى بين المقصِّر والغالي، وها هنا رواياتٌ كثيرةٌ

(١) سنن الترمذي، كتاب البر، باب رقم (٧٨) ومسند أحمد (٢٦٩/٥).

مدخولةٌ، وأحاديثٌ معلولةٌ (١).

وهكذا لم يستطع الجاحظ الجمعَ بين الروايتين، بل لجأ إلى الطَّعن في الرِّواية واتهام هذا الحديث ونحوه بالعلَّة، ولم يكن الجاحظُ من أهل الحديثِ، ولم تكن الصِّحاح والسُّنن قد شاعت في الأمصار، فقد تُوفي الجاحظ عام (٢٥٥هـ)، بينما تُوفي الإمام البخاريُّ سنة (٢٥٦) أيْ: بعده بعام، وتُوفي الإمام مسلم بن الحجاج عام (٢٦١)، فهم جميعًا من أبناء القرن الثالث الهجري، ولم يكن للجاحظ صلةٌ بالبخاريِّ ومسلم ولا ذكرهما في شيء من كتبه.

وقد ظنَّ وقوع التناقض بين القرآن في حثِّه على البيان واعتباره نعمة للإنسان ..، وبين ذم هذا الحديث للبيان وقرْنه بالبذاء وهو الفحش.

ولكنَّ التأملَ يقطع بعدم وجود التَّناقض ..، فالذي مدحه القرآنُ هو البيان الذي يشرح الحقَّ، ويلتزم سبيل الصِّدق...، والبيان الذي ذمَّهُ الحديث الذي رواه الترمذيُّ والإمام أحمد هو البيان الَّذي يُسَخَّرُ للدِّفاع عن الباطل، وصرف الناس عن الحقِّ ما دام معه الفحش والهجاء.

بل إنَّ صاحب البيان مأجورٌ إذا ما دافع عن مظلومٍ لا يستطيع الدِّفاع عن حقِّه، أو الإفصاح عن حجَّته، فقد روى أحمد في مسنده بسنده عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « وَبَيَانُكَ عَنِ الْأَرْتَمِ صَدَقَةٌ » (٢) والرتم: الكلام الخفيُّ والحياء التام. فكأنَّ المراد أن يقومَ صاحبُ البيان الجهير بإظهار حقٍّ من يغلبه الحياءُ، ولا يستطيع الإفصاحَ عن حجَّته.

إنَّ البيان نعمةٌ من اللَّه سبحانه، ولابُدَّ أن تُستعملَ تلك النِّعمةَ على وجهها الصحيح، وأن تكون هادفةً للبناء والإصلاح وتحقيق الطمأنينة والسَّلام لبني الإنسان.

* * *

ولعلَّ من المناسب في هذا المقام أن نتحدثَ عن حكم القرآن على الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة في قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١١٣/١) ط المكتبة العلمية المصورة.

(٢) مسند أحمد (١٥٤/٥).

ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

ولئن قال أهل التفسير: إنَّ الكلمةَ الطيِّبةَ: هي كلمة التوحيد، وقال بعضهم: هي إيمان المؤمن ..، وإنَّ الكلمةَ الخبيثةَ هي كفر الكافر ونحو ذلك .. (١) إلَّا أنَّ هذا لا يمنع من اتِّساع المجال؛ ليشمل كلَّ كلمةٍ طيِّبةٍ نافعةٍ للنَّاس في الدنيا والآخرة. وكلمة التوحيد هي القمَّةُ العليا للكلمة الطَّيبة، ولكنَّ كلَّ كلمةٍ نافعةٍ خَيِّرةٍ تهدف إلى الإرشاد والإصلاح، والدَّعوة إلى الخير هي كلمةٌ طيِّبةٌ، ولها سمات الشَّجرةُ الطَّيبةُ ذاتُ الثَّمر.

والكلمة الخبيثةُ هي الكلمة الشِّريرةُ الضَّارَّةُ المفسدة التي تهدف إلى زعزعةِ الإيمان والدَّعوة إلى الإلحاد، والدُّخول في الظُّلمات التي تفسد على الإنسان دينه ودنياه .. ولا شكَّ أنَّ كلمة الكفر: هي ذروةُ الخبث والكذب والضَّلال ..

وهكذا يفرِّقُ القرآنُ بين كلمةٍ وكلمةٍ سواء في ذلك النَّثر والشِّعر ..

- **الإِسْلَامُ وَالشِّعْرُ..**

وربما جادل البعضُ في موقف الإسلام من الشِّعر، وزعموا أنَّ الإسلام يكره الشِّعر ويضيِّق على الشُّعراء ..

لكنَّ الحقيقةَ التي يستخلصها الباحث الأمين البعيد عن الهوى والغرض من قراءته للنُّصوص الإسلاميَّة عن الشِّعر: أنَّ للإسلام موقفًا واضحًا من الشِّعر لا مجال فيه للتَّوهُّم والظنِّ. فالإسلامُ لا يرفض الشعرَ في ذاته، بدليل ما جاء في محكم القرآن من التَّفريق بين الشِّعر الملتزم بالعقيدة الصَّحيحة المعبِّرُ عن الفضائل والأخلاق الكريمة، والشِّعْرُ الذي يُتَّخذُ وسيلةً لتزيين الشُّرور، وإثارةِ الغرائز، وانتهاك الحرُمات.

قال الحقُّ سبحانه: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

---

(١) يراجع تفسير الطبري (٢٠٣/١٣) وما بعدها.

وقد قال ﷺ فيما رواه البخاريُّ بسنده عن أُبيٍّ بن كعب ﷺ: « **إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً** » (١).

كما روى البخاريُّ أيضًا عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شاعِرٍ كَلِمَةُ لَبِيد: أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللَّه بَاطِلُ ...، وَكَادَ أُمَيَّةُ أَنْ يُسْلِمَ** ». يريد أمية بن أبي الصلت الذي كان يجهر بالتوحيد في شعره.

وقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رِدِفْت رسول اللَّه ﷺ يومًا فقال: « **هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيءٌ؟** » قلت: نعم. قال: « هِيه » فأنشدته بيتًا فقال: « **هيه** - أي زِدْ - » ثم أنشدته بيتًا فقال: « **هيه** »، حتى أنشدته مائة بيتٍ » (٢).

ولم يجد الإمام مسلم بن الحجَّاج حرجًا في أن يورد في صحيحه ما روي من الشِّعر في أيام الإسلام، فروى في كتاب الفضائل في باب فضائل حسان بن ثابت ﷺ عن عائشة ﵂ أنها قالت: فسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لحسان: « **إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّه وَرَسُولِهِ** ». وقالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى** »، ثم ذكرت ثلاثة عشر بيتًا من قصيدة حسان التي يقول فيها:

هَجْوتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْت عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

إلى قوله:

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللَّه فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيسَ لَهُ كفَاءُ (٣)

فلو كان للإسلام موقف مُضَادٌّ للشعر لما عني علماء الحديث بروايته في كتب الصحاح.

وكذلك استشهد الإمام البخاريُّ في صحيحه بالشعر وروى بعضه في باب الفتنة. فذكر ثلاثة أبيات من الشعر الجاهليِّ قالوا: إنها منسوبة لامرئ القيس وهي في الحقيقة منسوبة لعمرو بن معد يكرب (٤).

---

(١) صحيح البخاري (٧٢/٤ - ٧٧) بحاشية السندي ط عيسى الحلبي القاهرة.

(٢) صحيح مسلم (٣٠٢/٢) ط عيسى الحلبي القاهرة. دون تاريخ.

(٣) صحيح مسلم (٣٩٥/٤، ٣٩٦) ط عيسى الحلبي.

(٤) صحيح البخاري كتاب الفتن (٢٢٧/٤) بحاشية السندي.

والمهم أن البخاريَّ لم يجد حرجًا في رواية هذه الأبيات المنسوبة إلى شاعر جاهليٍّ في وصف الحرب.

وهذا دليلٌ على أنه ليس هناك موقف مضادٌّ للشِّعر على إطلاقه في الإسلام، بل إن الرفض يتجه إلى الشِّعر الذي يخرج عن حدود العقيدة والآداب والأخلاق الإسلاميَّة.

وهذا دليل لا يُنقض على أن الإسلام يحكم على الشِّعر بمضمونه وهدفه، فلا يترك الشُّعراء على أهوائهم يعبثون بالكلمة ويهيمون في الأودية ويجعلون القول بمعزل عن العمل.

ولهذا مدح الكتاب الكريم الشُّعراء: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]؛ لأن ثمرة الإيمان والصلاح والذكر والدفاع عن الحق لا بدَّ أن تكون كلماتٍ نافعةً صادقةً دافعةً إلى الخير مُصَوِّرةً لكل ما هو جميل في الكون والنفس والحياة.

والحكم الإسلاميُّ على الشِّعر في عمومه يرجع إلى تلك المقولة المأثورة عن بعض الصَّحابة رضوان الله عليهم والتي رواها البخاريُّ في كتابه « الأدب المفرد » عن خالد ابن كيسان قال: كنت عند ابن عمر فوقف عليه إياس بن خيثمة فقال: ألا أنشدك من شعري يابن الفاروق؟ قال: بلى ولكن لا تنشدني إلا حسنًا. فأنشده حتى إذا بلغ شيئًا كرهه ابن عمر قال له: أمْسكْ! (١).

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: « الشِّعر منه حسنٌ ومنه قبيحٌ، خذ بالحسن ودع القبيح. ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعارًا منها القصيدة فيها أربعون بيتًا ودون ذلك » (٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما – يرفعه –: « الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام » (٣).

والأشبه أنَّ هذا من كلام عبد الله بن عمر ولا تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ.

والأصل في ذلك كله ما جاء في الكتاب الكريم من قول الحق سبحانه: ﴿ لَّا يُحِبُّ

(١) الأدب المفرد للبخاري، حديث رقم (٨٥٦) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. ط المكتبة الأثرية باكستان – بالتصوير.

(٢) المرجع السابق حديث، (٨٦٦). (٣) المرجع السابق حديث رقم (٨٦٥).

ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٨].

فالمسلم الحق شاعرًا كان أو غير شاعر لا يجهر بالسوء من القول، ولا يجنح بالكلمة إلى الشَّر والعدوان، وهو على وعي بمغزى المثل الذي ضربه الحق سبحانه للكلمة الطَّيبة، والكلمة الخبيثة والفارق بينهما بعيد جدًّا، مع أنَّ كلًّا منها مكَوَّن من حروف ومقاطع وأصوات، لكن الذي يجعل هذه الكلمة طيبةً وتلك خبيثةً، ما وراء الكلمة من اعتقاد وما ترمي إليه من هدف.

فالشِّعر ليس مستثنى من الحكم الإسلاميِّ على الكلمة، والشَّاعر في نظر الإسلام لا ينال المجد في مجاله الشعريِّ إذا سلك طريق الكفر أو الفسوق أو العدوان!.

وقضية حُرِّيَّة الإبداع على وجه العموم تستحق أن نناقشها في فصل خاص في هذا البحث؛ لنرى حدودها وأبعادها ومخاطرها.

* * *

مجالات الرأي في الإسلام

الرَّأْي: هو نتيجة الفكر، والفكر: ثمرة العقيدة. والإسلام لا يحجر على الرَّأْي ولا يحظر على الفكر، فالفكر فريضةٌ إسلاميةٌ كما يقول الأستاذ العقاد استنباطًا من آيات الكتاب الكريم وحديث النَّبي عليه أفضل الصلاة والتسليم:

وقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي ألوانًا من الرَّأْي، منها: الرَّأْي العلميّ في التفسير والفقه والحديث، والرد على الفرق الضَّالة والآراء المنحرفة.

والرَّأْي السِّياسيّ في الشُّورى والاختلاف حول القضايا، والرَّأْي الاجتماعي في مشكلات المجتمع وقضايا الحياة.

ولم يعرف الإسلام الحجرَ على الآراء، ولا منع النَّاس من التفكير، وخاصة أن القرآن قد بيَّن أنَّ الاختلاف واقعٌ بين البشر في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩].

ولهذا لا يصحُّ زعمُ مَن زعم من خصوم الإسلام أنَّ الإسلام لا يعرف إلا الرَّأْي الواحد، وأنه لا مجال فيه للتَّعددية واختلاف الآراء.

فالقرآن يقرر أنَّ الاختلاف واقعٌ في حياة النَّاس ولا يزال مستمرًّا .. فإذا كان الاختلاف في أمر الدِّين، فمرجعه إلى اللَّه سبحانه كما قال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومن هنا حذر القرآن أمةَ الإسلام من الاختلاف في الدِّين بعد مجيء البيِّنات، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

كما أوجب الرجوع إلى حكم اللَّه عند الاختلاف في شيء من أمور الدِّين قال سبحانه: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠].

وقد تقع هدايةُ اللَّه للمؤمنين عند وقوع الخلافِ، فيدركوا طريقَ الحقِّ، قال سبحانه: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وليس كلُّ الاختلاف نافعًا، ولا مؤديًا لظهور الحقِّ، ولكن قد يكون الاختلاف في

الرَّأْي ناتجًا عن بغيٍ، أو استكبار، أو أنفةٍ من الإقرار بالخطأ. وهذا هو الاختلاف الذي أفسد أهل الأديان السابقة.

قال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩].

• وعجيبٌ أن يكون العلم الذي هو سبيل الوحدة والائتلاف سببًا للفرقة والاختلاف، ولكنَّ شططَ الرَّأْي ومحاولة الغلبة بأي سبيل والتَّعويل على الجدل بالباطل هو الذي يفرق بين الناس ويباعد اتجاهاتهم.

المهم أنَّ الإسلامَ لا يضيق بالرَّأْي المحمود النَّافع البريء من العصبية والشِّقاق، فكل الآراء السليمة يجب أن تنطلق؛ ليكون هناك مجالٌ واسعٌ للاختيار والتَّثبت والمناقشة.

* * *

الرأي في مجال التفسير

المفروض أنَّ التَّفسيرَ يكون بالمأثور كتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسُّنَّة والمرويات عن الصحابة رضوان اللّٰه عليهم.

وقد جاء التَّحذير من القول في القرآن « بغير علم » أو بالرَّأْي، فقد روى الترمذيُّ في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** » قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح [1].

وفي رواية أخرى للترمذيِّ عن ابن عبَّاس عن النَّبي ﷺ قال: « **اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** » قال أبو عيسى: هذا حديث حسن [2].

ثم روى الترمذي بسنده عن جُندب بن عبد اللّٰه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ** » [3].

قال أبو عيسى الترمذيُّ: هكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النَّبي ﷺ وغيرهم أنهم شدَّدوا في هذا، في أن يفسّر القرآن بغير علم، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن، فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير عِلْم أو مِنْ قِبَل أنفسهم [4].

لأن القرآن كلام رب العالمين وأساس هذا الدين، فلا يجوز أن تخالطه الآراء أو تعبث به الأهواءُ، ولكنَّ التفسير بالرَّأْي المحمود قد عرف طريقه إلى كتب التفسير وخاصة تفسير الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبريِّ المتوفى سنة (٣١٠هـ) الذي جمع بين التفسير بالأثر والتفسير بالرَّأْي. غير أن الرَّأْي عند الطبريِّ هو اجتهاده في اختيار ما يميل إلى صحته من أقوال المفسرين الأوائل من الصحابة والتابعين، بعد استعراض الأدلَّة والنظر في القراءات والإعراب، فهو يقول في كل آية: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تعالى...، ثم قد يقول بعد استعراض الأقوال مثلًا: « وأولى هذه التأويلات بالآية: تأويل ابن عباس

(١) سنن الترمذي حديث رقم (٢٩٥٠).

(٢) سنن الترمذي حديث رقم (٢٩٥١).

(٣) سنن الترمذي حديث رقم (٢٩٥٢).

(٤) سنن الترمذي (٥/٢٠٠) دار إحياء التراث العربي – بيروت.

الذي ذكره محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير » [١]. ويقول « وأما علتنا في اختيارنا ما اخترنا من التأويل في ذلك فهي » [٢].

وقد قال الطبريُّ في مقدِّمة تفسيره: « ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه منشئون إن شاء اللَّه، ذلك، كتابًا مستوعبًا لكل ما بالناس إليه الحاجة، من علمه جامعًا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافيًا، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه الأمة، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبينوا علل كل مذهب من مذاهبهم، وموضِّحوا الصَّحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك وأختصر ما أمكن من الاختصار فيه » [٣].

• بل إن الطبريَّ أورد في مقدمه تفسيره الأحاديث التي تنهي عن تفسير القرآن بالرَّأْي دون علم، وهي الأحاديثُ نفسها التي أوردناها آنفًا عن الإمام الترمذيِّ وزاد عليها أخبارًا عن الصَّحابة. فروى عن أبي بكر الصِّديق ﷺ أنه قال: « أيُّ أرضٍ تُقلُّني، وأيُّ سماءٍ تُظلُّني إذا قلت في القرآن ما لا أعلم » ؟!، ثم قال الطبريُّ: وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا، من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول اللَّه ﷺ، أو بنصه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه، وإن أصاب الحق فيه فمخطئ فيما كان من فعله بقيله فيه برأيه؛ لأن إصابته ليست إصابةَ موقن أنه محقٌّ، وإنما هي إصابة خارص وظانّ، والقائل في دين اللَّه بالظن قائل على اللَّه ما لم يعلم، وقد حرَّم اللَّه جل ثناؤه ذلك في كتابه على عباده فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فالقائل في تأويل كتاب اللَّه الذي لا يُدرَك علمه إلا ببيان رسول اللَّه ﷺ الذي جعل اللَّه إليه بيانه، قائل بما لا يعلم، وإن وافق قيله ذلك في تأويله ما أراد اللَّه به من معناه؛ لأنَّ القائل فيه بغير علم، قائل على اللَّه ما لا علم له به.

وهذا هو معنى الخبر ... عن رسول اللَّه ﷺ قال: « **من قال في القرآن برأيه، فأصاب فقد أخطأ** » يعني ﷺ أنه أخطأ في فعله بقيله برأيه، وإن وافق قيله ذلك عين الصواب

---

(١) تفسير الطبري (١/١٠٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير الطبري (١/٥).

عند اللَّه؛ لأنَّ قيلَه فيه برأيه ليس بقيل عالم أن الذي قال فيه من قول حقٍّ وصواب، فهو قائلٌ على اللَّه ما لا يعلم، آثمٌ بفعله ما قد نهى عنه وحُظِر عليه » (١).

• ومن هنا فإن الطبريَّ يخاصم بقوة أصحاب الرَّأي المستقلين في التَّفكير، ولا يزال يشدد في ضرورة الرُّجوع إلى العلم الراجع إلى الصَّحابة، أو التَّابعين والمنقول عنهم نقلًا صحيحًا مستفيضًا، ويرى أن ذلك وحده هو علامة التفسير الواضح، فمثلًا عندما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة يوسف: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف: ٤٩] نجده يذكر ما ورد في تفسيرها عن السَّلف مع توجيهه للأقوال وتعرُّضه للقراءات بقدر ما يحتاج إليه تفسير الآية، ثم يعرج بعد ذلك على من يفسر القرآن برأيه وبدون اعتماد منه على شيء إلا على مجرد اللغة، فيفند قوله ويبطل رأيه، فيقول ما نصه: « وكان بعضُ من لا علم له بأقوال السَّلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب، يوجه معنى قوله: « وفيه يعصرون » إلى: وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث، ويزعم أنه من العَصْر والعُصْر التي بمعنى المَنْجاة، من قول أبي زبيد الطائيِّ:

صَادِيًا يَسْتَغِيثُ غَيرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ

أي المقهور. ومن قول لبيد:

فَبَاتَ وَأَسْرَى الْقَومِ آخِرَ لَيلِهِمْ وَمَا كَانَ وقَّافًا بِغَيرِ مُعَصَّرِ

وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين » (٢).

وكثيرًا ما يقف ابن جرير مثل هذا الموقف حيال ما يُرْوى عن مجاهد أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس (٣).

المهم أن ابن جرير الطبري قد برئ من إقحام الرَّأي البعيد عن العلم المتجاهل لما روي عن الصحابة والتابعين.. وإن كان قد توسع في الموازنة بين الأقوال وترجيح بعضها على بعض، واستبعاد ما يعتمد على الرَّأي المطلق ويدخل في باب القول على اللَّه سبحانه بغير علم!

---

(١) تفسير الطبري (١/٣٥). (٢) تفسير ابن جرير (١٢/١٣٨).

(٣) التفسير والمفسرون للشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي (١/٢١٠ - ٢١١)، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة، القاهرة (١٩٦١م).

وقد قال ابن تيمية عن تفسير الطبريِّ: « وأمَّا التَّفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبريِّ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل والكلبي » [(١)].

• غير أن هذا المجال في التفسير يتسع ليشمل الفهم الذي يؤتاه الرجلُ في كتاب اللَّه، كما جاء ذلك في الحديث الذي رواه البخاريُّ في صحيحه كتاب العلم عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب اللَّه أو فهمٌ أعطيَه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: وما في هذه الصَّحيفة؟ قال: العقل وفِكاك الأسير ولا يُقتلُ مسلمٌ بكافر [(٢)].

وقد رواه أحمد في مسنده عن أبي جحيفة أيضًا قال: سألْنا عليًا ﷺ: هل عندكم من رسول اللَّه ﷺ شيءٌ بعد القرآن؟ قال « لا والذي فَلَقَ الحبّة وبرأ النَّسمة، إلا فهم يؤتيهِ اللَّهُ ﷻ رجلًا في القرآن، أو ما في الصحيفة » قلت: وما في الصَّحيفة؟ قال: « العَقْل – أي في الدية، وفِكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر » [(٣)].

كما روى الدارميّ في سننه عن كعب قال: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهدًا. وقال في التَّوراة: يا محمد إني منزل عليك توراة تفتح فيها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلفًا [(٤)].

وروى الدارميّ أيضًا عن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قال: الفهم بالقرآن. وعن مجاهد: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ قال: الكتاب يؤتي إصابته من يشاء [(٥)].

• وهذا الفهم لا يؤتاه كلُّ أحدٍ.. بل هو نور يقذفه اللَّه سبحانه في قلوب العلماء الأبرار المخلصين لدينهم وكتاب ربهم سبحانه.

ولعل من أمثلة ذلك ما رواه البخاريُّ في كتاب التَّفسير في صحيحه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنه قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وَجَد في نفسه فقال: لم تُدخل

(١) فتاوى ابن تيمية (٣٨٥/١٣). جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم طبعة مصورة.

(٢) صحيح البخاري كتاب العلم باب رقم (٣٩)، (٢٢/١) ط الخيرية.

(٣) مسند أحمد (٧٩/١).

(٤) سنن الدارمي (٤٣٣/٢).

(٥) سنن الدارمي (٤٦٣/٢).

هذا معنا؟ ولنا أبناء مثله؟! فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيتُ أنَّه دعاني يومئذ إلَّا ليريهم. قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فقال بعضهم: أمِرْنا أن نحمد اللَّه ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا. وسَكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عبَّاس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجَلُ رسول اللَّه ﷺ أعلمه له قال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول (١).

فبعض الصَّحابة لم يفهم من السُّورة إلا معناها الظَّاهر.

أمَّا ابن عبَّاس وعمر ﷺ فقد فهما معنى آخر وراء المعنى الظَّاهر، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء.

وأيضًا ما روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. فرح الصحابة و بكى عمر – رضى اللَّه تعالى عنه – وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرًا نعيه عليه الصَّلاة والسلام فقد أخرج ابن أبي شيبة أنَّ عمر رضي اللَّه تعالى عنه لما نزلت الآية بكى، فقال النَّبِي ﷺ: « ما يبكيك؟ » قال: أبكاني أنَّا كنَّا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل، فإنَّه لم يكمل شيء قط إلا نقص. فقال عليه الصَّلاة والسلام: « صدقت ». فعمر ﷺ أدرك المعنى الإشاري وهو نعي رسول اللَّه ﷺ وأقره النَّبِي على فهمه هذا. وأمَّا باقي الصَّحابة فقد فرحوا بنزول الآية؛ لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها (٢).

● غير أنَّ هذا الفهم الذي يؤتاه الرجل في كتاب اللَّه لا يصح أن يكون بابًا ينفذ منه أهل الدَّعاوى والأهواء الذين زعموا أنَّ للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وادَّعوا أنَّهم نفذوا إلى علم الباطن، كما فعل ابن عربي وأمثاله من أصحاب التفسير الإشاري وكما يقول الدكتور الذهبيُّ يرحمه اللَّه: « إنَّ مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن مَزلَّة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم، ولم يذيعوها على الناس فيوقعوهم في حيرة واختلاف: منهم من يأخذها على ظاهرها، ويعتقد أن ذلك هو مراد اللَّه من كلامه، وإذا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (١٧٩/٦).

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي (٢٠/٣) وانظر تفسير الآلوسي (٦٠/٦).

عارضه ما ينقل في كتب التَّفسير على خلافه فربمًا كذَّب به أو أَشْكل عليه، ومنهم من يكذبُها على الإطلاق، ويرى أنها تقوُّل على اللَّه وبهتان.. ليتهم فعلوا ذلك إذًا لأراحونا من هذه الحَيْرة وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم وقَذْف البعض لهم بالكفر والإلحاد في آيات اللَّه » (١).

• **وقد ذكر العلماء شروطًا** لمثل هذا التفسير الذي يعتمد على الفهم والوجدان وهي:

أولًا: ألا يكون التَّفسير الإشاريُّ منافيًا للظَّاهر من النظم القرآنيِّ.

ثانيًا: أن يكون له شاهدٌ شرعيٌّ يؤيِّده.

ثالثًا: ألا يكون له معارض شرعيٌّ أو عقليٌّ.

رابعًا: ألا يُدَّعى أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظَّاهر، بل لابد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولًا، إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر.. (٢).

وقد حسم الإمام الشاطبيُّ الأمر في الحكم على هذا التفسير الذي يزعم أصحابُه أنهم تلقوه بقلوبهم وخواطرهم فقال: الاعتبارات القرآنيَّةُ الواردة على القلوب الظاهرة للبصائر إذا صحت على كمال شروطها **فهي على ضربين**:

أحدهما: ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نور البصيرة فيه حُجُب الأكوان من غير توقف، فإن توقَّف فهو غير صحيح، أو غير كامل حسبما بينه أهل التَّحقيق بالسلوك.

والثَّاني: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئيًّا أو كليًّا ويتبعه الاعتبار في القرآن.

فإن كان الأول فذلك الاعتبار صحيحٌ، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأنَّ فهم القرآن إنما يَرد على القلوب على وِفق ما نزل له القرآن وهو الهداية التَّامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين وبحسب التَّكاليف وأحوالها لا بإطلاق، وإذا كانت كذلك فالمشي على طريقها مَشْيٌ على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآنيَّ قلَّما يجده إلا من كان من أهله، عملًا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه - أي: استنباط العبرة - عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به، والتَّخلق بأخلاقه عن

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي (٣/٤٢).

(٢) المرجع السابق (ص ٤٣).

حدوده، بل تتفتح لهم أبوابَ الفهم فيه على توازي أحكامه، ويلزم من ذلك أن يكون معتدًّا به لجريانه على مجاربه. والشَّاهد على ذلك ما نُقل من فهم السلف الصالح فيه. فإنه كله جارٍ على ما تقضي به العربية وما تدل عليه الأدلة الشَّرعية.

وإن كان الثاني فالتَّوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازمٌ وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع، لأنه خلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره في فهم القرآن (١).

وقال ابن الصَّلاح في فتاويه - وقد سُئِل عن كلام الصُّوفية في القرآن -: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحديِّ المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال - صنَّف أبو عبد الرحمن السُّلمي حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسيرٌ، فقد كفر (٢).

والحقُّ أنَّ التَّوسع في هذا الباب والتذرع به إلى بثِّ أفكار وتأويلات بعيدة عن الإسلام مزلقٌ خطيرٌ من مزالق الفتنة، ولم يرد عن النَّبِي ﷺ في حديث صحيح أنه قال: إن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، ولم يرد ذلك إلا في أحاديث موضوعة، أو واهية. كيف والقرآن ينادي البشر جميعًا ليفهموا بيان القرآن المعجز الظاهر للجميع قال سبحانه: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. وقد وصف القرآن بأنه مبينٌ في آيات عدة فالقول بالظَّاهر والباطن في القرآن لا يجعله مبينا للناس جميعًا بل يفتح أبواب الخواطر والآراء البعيدة عن الإبانة والوضوح بحجة أنها إلهامات وردت على قلوب الأولياء والأصفياء!

وندع موضوع « الفهم الخاص » الذي ينبغي للإنسان العاقل الصالح أن يحتفظ به لنفسه، وألَّا يذيعه على الناس؛ ليفتنهم به، إلى قضيَّة أخرى: وهي التَّفسير بالرَّأي ما بين مجيز له ومانع منه.

والرَّأْي يُطلقُ على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس، ومنه: أصحاب الرَّأْي أي أصحاب القياس.

والمراد بالرَّأْي في مجال التَّفسير هو الاجتهاد، للوصول إلى المعنى الذي يرتضيه المجتهد.

(١) الموافقات (٣/٤٠٣ - ٤٠٥) ط المكتبة التجارية - القاهرة.

(٢) فتاوى ابن الصلاح (ص ٢٩) القاهرة دون تاريخ.

« فالتفسير بالرَّأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربيَّة ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهليّ، ووقوفه على أسباب النُّزول ومعرفته بالنَّاسخ والمنسوخ من آيات القرآن وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر » (١).

وكأن هذه هي طريقة ابن جرير الطبريِّ في تفسيره، الذي يطمئن إليه أهل العلم ويجدون فيه جمعًا لكل المرويات في التفسير، وترجيحًا لما تؤيده أدلةُ الأثر واللغة والشعر وأسباب النزول.

ولكن بعض العلماء غالى في منع هذا الاجتهاد المعبَّر عنه بالرَّأي، فتشدَّدوا في ذلك فلم يجرؤوا على تفسير شيء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم وقالوا: لا يجوز لأحد تفسيرُ شيء من القرآن وإن كان عالمًا أديبًا متَّسعًا في معرفة الأدلَّة والفقه والنحو والأخبار والآثار، وإنما له أن ينتهي إلى ما رُوِيَ عن النَّبي ﷺ وعن الذين شهدوا التنزيل من الصَّحابة ﷺ، أو عن الذين أخذوا منهم من التابعين (٢).

• والحقُّ أنَّ هذا الحظر والتَّضييق لا مسوغ له، ففي القرآن آياتٌ تدلُّ على الأمر بتدبُّر القرآن، وتفهمه والاتِّعاظ به وإدراك مقاصده كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]. وقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]. وقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

والاستنباط: هو استخراج الحكم ومعرفة الدلالة بالفهم والاجتهاد.

فكيف يحرِّم هؤلاء المانعون الاجتهاد في التَّفسير بعد استكمال العدة والإحاطة بالعلوم التي يحتاج إليها المفسّر؟!

وقد نقل الراغب الأصفهانيُّ في مقدمة التفسير عن بعض المحقِّقين أنَّ المذهبين - وهما المنع من جانب والإباحة من جانب آخر - هما الغلوّ والتقصير، فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرًا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحدٍ الخوض فيه فقد عرَّضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

---

(١) التفسير والمفسرون (١/٢٥٥) مرجع سابق. نقلًا عن مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني.

(٢) المرجع السابق.

وقد قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق الآثار عمّن تحرَّج من السَّلف من القول في التَّفسير: « فهذه الآثار الصَّحيحة وما شاكلها عن أئمة السَّلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأمَّا من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القولُ فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ولما جاء في الحديث المرْوى من طُرُقٍ: « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَومَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » (١).

* * *

وهكذا يتَّضح أنَّ للرأي – بمعنى الاجتهاد – في التفسير مجالًا واسعًا تشهد به كتب التفسير بالرَّأي المحمود، مثل تفسير الطبريِّ وتفسير مفاتيح الغيب للفخر الرَّازي وتفسير البيضاويِّ وتفسير النسفيِّ، وتفسير الخازن وتفسير البحر المحيط لأبي حيان، وتفسير الجلالين وتفسير النيسابوري وتفسير الخطيب الشربينيِّ، وتفسير أبي السعود وتفسير الآلوسيِّ، وغيرها من الكتب التي تمتلئ بها المكتبة الإسلاميَّة، والتي انتفع بها النَّاس قديمًا وحديثًا.

• أمَّا التَّفسير بالرَّأي المذموم: فهو التفسير الذي يحاول تأويلَ القرآن على غير ما يقتضيه ظاهر اللفظ ودلالة اللغة؛ لكي يكون القرآن موافقًا لأهوائهم وضلالاتهم ..

ولا يُعقل أن يُترك تفسيرُ كلام اللَّه سبحانه للأهواء والآراء، وإلا لاتخذه المضلُّون وسيلة للاستدلال على ضلالهم .. ومن هنا كان المرجع في تفسير القرآن هو ما صحَّ عن النَّبي ﷺ وما تلقَّاه صحابتُه وفهموه ..، ثم ما رواه عنهم التابعون على تفاوت في درجاتهم ومدى الاحتجاج برواياتهم!.

ومما يؤسَف له أنَّ هذا المحذور قد وقع عندما حاول أصحابَ الأهواء والآراء أن يحملوا القرآن على آرائهم وأوهامهم ...، فقد حاول المعتزلةُ تفسيرَ القرآن وفق مذاهبهم وآرائهم، وجرى ذلك عند الشِّيعةِ والخوارجِ والباطنيَّة والفلاسفة .. حتى الفرق الخارجة عن الإسلام كالقاديانية والبهائية وغيرها .. ولا نستطيع في هذا المجال أن نستعرض مناهج التفسير عند هذه الفرق الخارجة عن منهج أهل السُّنَّة والجماعة .. فذلك جهدٌ

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير (ص ٣٩) نشر المكتبة العلمية – لاهور – باكستان دون تاريخ.

يستغرق مئات الصَّفحاتِ، بل ألوفَها ..

مناهج المفسرين:

وأحسنُ من استعرض هذه المناهج والآراء الشاذة في التفسير وحكم عليها وفق المنهج الإسلاميِّ القويم: الشيخ محمد حسين الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه الحافل: « التفسير والمفسرون » الذي صدر في ثلاثة أجزاء في قرابة ألف صفحة [١]، فليرجع إليه من شاء ..

لكن المهم هنا أن نشير إلى الموقف الإسلاميِّ الصحيح من إقحام الرَّأْي في تفسير القرآن، الذي لا يعول على علم ولا يرجع إلى أثر ...

وقد وفق اللَّه العلماء الراسخين المتَّبعين لمنهج الكتاب والسُّنَّة إلى كشف ضرر هذه التَّفاسير التي تُأَوِّلُ القرآنَ بما يتفق مع آراء هذه الطرق التي جانبت منهجَ السَّلف في العقيدة والتفسير.

قال الإمام أبو العباس أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن تفاسير المعتزلة: « إنَّ مثل هؤلاء اعتقدوا رأيًا، ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سَلفٌ من الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوهٍ كثيرة، وذلك من جهتين: تارةً من العلم بفساد قولهم، وتارةً من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إمَّا دليلًا على قولهم، أو جوابًا على المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحًا، ويدسُّ البدعَ في كلامه، وأكثر النَّاس لا يعلمون كصاحب « الكشَّاف » ونحوه حتى إنه يَرُوج على خَلْق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة .. وقد رأيت من العلماء المفسِّرين وغيرهم ممن يَذْكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يُعْلم أو يُعْتَقَد فسادُها ولا يهتدى إلى ذلك » [٢].

وقد كان الإمام ابن القيِّم تلميذُ ابن تيمية عنيفًا في حكمه على تفاسير المعتزلة فقال: « إنه زُبَالة الأذهان، ونخالة الأفكار، وعفار الآراء ووساوس الصدور، فملأوا به الأوراق سوادًا والقلوب شُكوكًا والعالم فسادًا، وكلُّ مَنْ له مُسْكَةٌ من عقل يعلم أن فساد العالم إنما نشأ من تقديم الرَّأْي على الوحي والهوى على العقل » [٣].

---

(١) نشرت دار الكتب الحديثة بالقاهرة الطبعة الأولى من هذا الكتاب، عام (١٣٨١هـ - ١٩٦١م).

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٢٢). مطبعة الترقي بدمشق سنة (١٩٣٦م).

(٣) إعلام الموقعين (٧٨/١). مطبعة الكردي - القاهرة - (١٣٢٥هـ).

وحقًّا قال هذا الإمام ..، فإن تقديم الرَّأي على الوحي فسادٌ في التَّفكير وإقحام للرأي فيما لا مجال له فيه ..؛ لأنه لا يحق لأحد أن يقول من ذات نفسه: إنني أرى أن مقصود اللَّه - سبحانه - في هذه الآية هو كذا وكذا ... إنَّه حينئذ يظلم نفسه حين يحملها ما لا طاقة لها به، ويظلم دينه بالقول على اللَّه سبحانه بغير علم، ويظلم مجتمعه بإثارة الفوضى والاضطراب والتنازع في جنباته.

* * *

وكذلك القول في ألوان التَّفسير التي اتخذت وسيلةً لنصرة الآراء الشَّاذَّة، كتفسير الشِّيعة وتفسير الباطنية وتفسير الفلاسفة وغيرهم من كل من حاولوا التَّرويج لآرائهم ومذاهبهم الباطلة، كالقول بوحدة الوجود عند ابن عربي والرجوع إلى آراء الفلاسفة في تفسير القرآن عند ابن سينا. وأشباهه حتى نصلَ إلى التَّفسير في العصر الحديث، فنجد اتجاهاتٍ شتَّى منها: مدرسة الشيخ محمد عبده، ومن اتبع طريقه في التَّأويل العقليِّ ونصرة بعض آراء المعتزلة ومنها: مدرسة الشيخ طنطاويٍّ جوهريٍّ التي حاولت حمل النظريات العلمية على القرآن بتعسُّفٍ وتكلُّفٍ، وقون بالمجاز ..

والحاجةُ ماسَّةٌ إلى كلمة سواء في تفسير القرآن في العصر الحاضر استمدادًا من أصول التَّفسير، ورعايةً لمعاني اللغة وأسباب النُّزول، وخاصَّة فيما يسمَّى بالتفسير العلميِّ، أو الإعجاز العلميِّ للقرآن فلابدَّ فيه من مراعاة معاني اللغة وعدم التعسُّف في التَّأويل، والمقام يضيق هنا عن استعراض الأقوال التي خرجت عن معاني اللغة وفرح أصحابها بادعاء أنها تدل على نظرية علميَّةٍ، أو اكتشافٍ جديدٍ.

* * *

الرأي في مجال الاعتقاد

هل هناك مجال للرأي العقلي في أمور العقيدة؟

إنه سؤالٌ تجيب عليه ألوفُ الصَّفحات التي كتبت في الرَّد على أهل البدع والأهواء والآراء من شتَّى الفرق، خاصَّة ما ردَّ به ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عليهم في العديد من كُتُبِه.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: « والسَّلفُ لم يذمُّوا جنسَ الكلامِ، فإن كلَّ آدمي يتكلم، ولا ذمُّوا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر اللَّه به رسوله، والاستدلال بما بيَّنه اللَّه ورسوله، بل ولا ذموا كلامًا هو حق، بل ذمُّوا الكلامَ الباطل، وهو المخالف للكتاب والسُّنَّة، وهو المخالف للعقل أيضًا وهو الباطل.

• فالكلام الذي ذمَّه السَّلفُ هو الكلام الباطل، وهو المخالف للشَّرع والعقل، ولكنَّ كثيرًا من الناس خفي عليه بطلانُ هذا الكلام، فمنهم من اعتقده موافقًا للشرَّع والعقل، حتى اعتقد أنَّ إبراهيمَ الخليل استدلَّ به، ومن هؤلاء من يجعله أصلَ الدِّين ولا يحصل الإيمان، أو لا يتم إلا به، ولكن من عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصَّحابة عَلِمَ بالاضطرار أنَّ الرسول والصَّحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعةٌ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسدٌ، بل يظن مع ذلك أنَّه صحيحٌ من جهة العقل، لكنَّه طويلٌ، أو تبعد المعرفة، أو هو طريق مخيفةٌ خطرٌ يُخاف على سالكه، فصاروا يعيبونه كما يُعَابُ الطريق الطويل والطريق المخيف، مع اعتقادهم أنَّه يوصِّل إلى المعرفة وأنَّه صحيح في نفسه.

وأما الحُذَّاق العارفون تحقيقه: فعلموا أنه باطل عقلًا وشرعًا، وأنَّه ليس بطريق موصِّل إلى المعرفة، بل إنما يُوصلُ من اعتقد صحته إلى الجهل والضَّلال، ومن تبينَّ له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك » [1].

ثم قال ابن تيمية: « واللَّه سبحانه بعث الرسُل وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وإنَّما يُعْبَدُ بما أمَرَ به على ألسن رسله. وأصل عبادته: معرفته بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رُسله.ولهذا كان مذهبُ السَّلف أنَّهم يصفون

---

(١) رسالة الفرقان لابن تيمية (ص ١١٠).

الله بما وصف به نفسه، وما وصفه به رسله من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره وما عرفوه حقَّ معرفته، ولا وصفوه حقَّ صفتِه، ولا عبدوه حقَّ عبادتِه » (١).

● إن استعراض تاريخ الفرق الإسلاميةِ يدلُّ على الخلل الذي أصاب الفكرَ الإسلاميَّ حين استباح ذوو الأهواء والمقاصد السيِّئة إدخالَ آرائِهم في العقائد والجدل فيها بالباطل.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: « وهؤلاء كان من أعظم أسبابِ ضلالهم: مشاركتُهم للفلاسفة وتلقِّيهم عنهم، فإنَّ أولئك القوم مِنْ أَبْعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ﷺ، فإنَّ الرسولَ بُعِثَ بالبيِّنات والهدى، يبين الأدلة العقليَّة، ويخبر النَّاسَ بالغيب الَّذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم، وهؤلاء المتفلسفة يقولون: إنه لم يُفد الناس علمًا بخبره ولا بدلالته، وإنما خاطب خطابًا جمهوريًّا؛ ليصلحَ به العامةَ، فيعتقدوا في الربِّ والمعاد اعتقادًا ينفعهم، وإن كان كذبًا وباطلًا. وحقيقةُ كلامِ هؤلاء المتفلسفة: أنَّ الأنبياءَ تكذب فيما تخبر به، لكنه كذبٌ للمصلحة.. فكيف بهؤلاء الملاحدةِ المغترين، ولهذا لا يعتنون بالقرآن ولا تفسيره، ولا بالحديث وكلام السَّلف، وإن تعلموا من ذلك شيئًا فلأجل تعلق الجمهور به؛ ليعيشوا بينهم بذكره، لا لاعتقادهم مُوجَبه في الباطن » (٢).

وقد رصد ابن تيمية رحمه الله خطواتِ الافتراق والابتداع في العقائد، فقال: « أول التَّفرق والابتداع في الإسلام بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وافتراق المسلمين، فلمَّا اتَّفق عليٌّ ومعاوية رضي الله عنهما على التَّحكيم أنكرت الخوارج وقالوا: لا حكم إلا للّه وفارقوا جماعةَ المسلمين، فأرسل إليهم ابنَ عباس فناظَرهم، فرجع نصفُهم، والآخرون أغاروا على ماشية المسلمين، واستحلُّوا دماءَهم، فقتلوا ابن خبَّاب رضي الله عنه وقالُوا: كلُّنا قتله، فقاتلهم عليٌّ رضي الله عنه ».

وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتِّباعه، لكنهم خرجوا عن السُّنَّة والجماعة، فهم لا يرون اتباع السُّنَّة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجْم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلُّوا، فإنَّ الرسولَ ﷺ أعلم بما أنزل اللّه عليه، واللّه قد أنزل عليه الكتاب والحكمة.

وجوَّزوا على النَّبيِّ أن يكون ظالمًا، فلم ينفذوا لحكم النَّبِي ولا لحكم الأئمَّة بعده، بل قالوا إن عثمان وعليًا ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل اللّه: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. فكفَّروا المسلمين بهذا وبغيره.

---

(١) رسالة الفرقان لابن تيمية (ص ١٢٠). (٢) المرجع السابق (ص ١٥٥).

وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبنيٌّ على مقدمتين باطلتين: إحداهما: أنَّ هذا يخالف القرآن. والثَّانية: أنَّ من خالف القرآن يُكَفَّرُ ولو كان مخطئًا، أو مذنبًا معتقدًا للوجوب والتحريم [(١)].

• ثم تابع الإمام ﷺ رصده لظهور الفرق الأخرى، ومنهم: القدريَّةُ الذين ظهروا في آخر عصر الصحابة فقال: « فخاض هؤلاء - أي: الخوارج - في شرع الله بالباطل. وأما القدرية فخاضوا في قدره بالباطل، وأصلُ ضلالِهم: ظنُّهم أنَّ القدرَ يناقض الشَّرع، فصاروا حزبين: حزبًا يعظِّمون الشَّرع وَالأمر والنهي، والوعد والوعيد، واتِّباع ما يحبُّه الله ويرضاه، وهجر ما يبغضه وما يسخطه، وظنُّوا أنَّ هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسُّنَّة وأهل الجماعة، ففرقوا بين الكتاب والسُّنَّة، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين، وفرقوا بين المسلمين فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وكذلك القدريَّةُ فصاروا حزبين: حزبًا يغلِّب الشرعَ فيكذِّب بالقدر وينفيه، أو ينفي بعضَه، وحزبًا يغلب القدر فينفي الشَّرع في الباطن أو ينفي حقيقته، ويقول لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر الجميع سواء .. فجحدوا الفَرْقَ والفَصْل الذي بين التوحيد والشِّرك، وبين الإيمان والكفر وبين الطاعة والمعصية وبين الحلال والحرام » [(٢)].

• لقد جاهد الإمام ابن تيمية ﷺ جهادًا عظيمًا؛ لبيان حقيقة التوحيد وأصول الدين ورد شبهاتِ المتفلسفين، وأهل الأهواء والآراء، الذين كانوا يقصدون الهدم والتخريب، ولهذا يقول الإمام ﷺ: « فكلُّ مَنْ لم يناظِر أهل الإلحاد والبدع مناظرةً تقطع دابرَهم لم يكن أعطى الإسلام حقَّه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاءُ الصُّدور، وطمأنينةُ النُّفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين » [(٣)].

ويقول أيضًا: « وإنما يحصل النُّور والهدى بأن يُقَابَل الفاسدُ بالصَّالح والباطل بالحقِّ، والبدعة بالسُّنَّة، والضَّلال بالهدى، والكذب بالصِّدق، وبذلك يتبين: أنَّ الأدلةَ الصَّريحةَ

(١) رسالة الفرقان لابن تيمية (ص ١٥٥، ١٥٦).

(٢) المرجع السابق (ص ١٥٨).

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم (٣٥٧/١) مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.

لا تعارضَ بحال، وأنَّ المعقول الصَّريح مطابقٌ للمنقول الصَّحيح » [١].

والحقُّ أنَّ كتاب « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية تعبيرٌ عن موقف الفكر الإسلاميِّ الصحيح من إقحام الرَّأْي والعقل في مسائل الاعتقاد..

وقد تسلَّح ابنُ تيمية في هذه المعركة بسلاح العلم والعقل والمنطق والتَّعرف على مذاهب الفلاسفة، واستخدام مصطلحاتهم، ومناقشة آرائهم ونظرياتهم، بما يقطع بفساد المناهج العقليَّة التي تخرج عن منهج الكتاب والسُّنَّة..

وما تفرقت هذه الأمةُ، وما ذهبت قوتُها وضعفت طاقاتها إلَّا بهذا الصراع الفكريِّ الذي أنهكها وبدَّد جهدها، وجعلها تفترق شيعًا وأحزابًا..

* * *

وقد جمع الإمام ابن القيِّم يرحمه اللَّه في كتابه الحافل: « إعلام الموقعين » طرفًا من أقوال الأئمَّة - رحمهم اللَّه - في التحذير من التأويل والجدل في العقيدة، فنقل عن أبي حامد الغزاليِّ - يرحمه اللَّه - قوله:

« ولم تَجْرِ عادةُ السَّلف بهذه المجادلات، بل شدَّدوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال ».

وقال أيضًا: « الإيمان المستفاد من الكلام [٢] ضعيفٌ، والإيمان الراسخ إيمانُ العوام الحاصل في قلوبهم في الصِّبا بتواتر السَّماع، وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها » [٣].

وانظر إلى قوله: « بقرائن يتعذر التعبير عنها »، فإنها إشارةٌ إلى ما يحدث في قلب المؤمن من يقينٍ وتصديقٍ لا دخل له بأدوات الجدل، ولا مناقشات المتكلمين.

ثم قال ابن القيم: « وقد اتفق الأئمَّةُ الأربعةُ على ذمِّ الكلام وأهله، وكلامُ الإمام الشافعيِّ ومذهبه فيهم معروفٌ عند جميع أصحابه، وهو أنهم يُضْرَبون، ويطاف بهم في قبائلهم وعشائرهم ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة وأقبل على الكلام » [٤].

---

(١) المرجع السابق (ص ٣٧٦).
(٢) يريد: المستفاد من علم الكلام.
(٣) إعلام الموقعين لابن القيم (٢٤٧/٤). بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة مصورة بدار الفكر - بيروت.
(٤) المرجع السابق (ص ٢٤٨)

وقوله: « يضربون » معناه يتولَّى إمامُ المسلمين عقابَهم إذا أمعنوا في الجدل، وأضلوا العوامَّ بالمصطلحات الغامضة، وليس المرادُ أن يستبيح فرد مهما كان عقابَهم بنفسه، فالعقاب من سلطة ولي الأمر التي لا ينازعه فيها أحد.

ونقل ابن القيم أيضًا قول أبي نصر السَّجْزيّ: سمعت أبي يقول: قلت لأبي العباس ابن سريج: ما التوحيد؟ فقال: توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وتوحيد أهل الباطل: الخوض في الأعراض والأجسام، وإنَّما بُعث رسول اللَّه ﷺ بإنكار ذلك (١).

ثم قال ابن القيم: وقال بعض أهل العلم: كيف لا يخشى الكذب على اللَّه ورسوله من يحمل كلامه على التَّأويلات المستنكرة، والمجازات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجيّ أولى منها بالبيان والهداية؟!

وهل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال اللَّه فيهم: ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]. قال الحسن: هي واللَّه لكل واصف كذبا إلى يوم القيامة. وهل يأمن أن يتناوله قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قال ابن عيينة: هي لكل مفترٍ من هذه الأمَّة إلى يوم القيامة، واللَّه سبحانه نزَّه نفسه عن كل ما يصفه به خَلْقُه إلا المرسلين، فإنهم إنما يصفونه بما أَذِن لهم أن يصفوه به فقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١].

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠].

ثم قال ابن القيم: ويكفي المتأولين كلام اللَّه ورسوله بالتأويلات التي لم يُردها، ولم يدل عليها كلامُ اللَّه: أنهم قالوا برأيهم على اللَّه، وقدَّموا آراءَهم على نصوص الوحي وجعلوها عيارًا على كلام اللَّه ورسوله، ولو علموا أيَّ باب شرٍّ فتحوا على الأمة بالتأويلات الفاسدة، وأيَّ بناء للإسلام هدمو بها، وأيَّ معاقِلَ وحصون استباحوها، لكان أحدُهم أحبَّ إليه أن يخرَّ من السَّماء إلى الأرض أحبَّ إليه من أن يتعاطى شيئًا من ذلك.

فكل صاحب باطلٍ قد جعل ما تأوَّله المتأولون عذرًا له فيما تأوَّله هو، وقال: ما الذي حرَّم عليَّ التأويل وأباحه لكم؟ فتأوَّلت الطائفة المنكرة للمعاد - أي: البعث - نصوصَ

(١) المرجع السابق (ص ٢٤٩).

المعاد، وكان تأويلُهم من جنس تأويل منكري الصِّفات، بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها مَن وازَنَ بين التأويلَين وقالوا: كيف نحن نُعاقب على تأويلنا وتؤجرون أنتم على تأويلكم؟ (١). قالوا: ونصوص الوحي بالصفات أظهر وأكثر من نصوصه بالمعاد، ودلالة النُّصوص عليها أبْين فكيف يسوغ تأويلها بما يخالف ظاهرَها، ولا يسوغ لنا تأويل نصوص المعاد؟

• وكذلك فعلت الرافضةُ في أحاديث فضائل الخلفاء الرَّاشدين وغيرهم من الصحابة، وكذلك فعلت المعتزلةُ في تأويل أحاديث الرُّؤية والشَّفاعة. وكذلك القدريَّة في نصوص القدر، وكذلك الحَرُوريّة وغيرهم من الخوارج في النُّصوص التي تخالف مذاهبهم. كذلك القرامطة والباطنية طردت الباب وطمَّت الوادي على القَرِيّ (٢). وتأولت الدِّين كلَّه.

فأصل خراب الدِّين والدُّنيا: إنَّما هو من التَّأويل الذي لم يرِدْه اللَّه ورسوله بكلامه ولا دلَّ عليه أنه مراده.

وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟

وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟

فمنْ بابه دُخل إليها، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل؟ (٣).

ثم قال ابن القيم رحمه الله: « وإنما دخل أعداءُ الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنيةِ والإسماعيليَّةِ والنُّصَيْرِيةِ من باب التأويل، فما امْتُحِنَ الإسلام بمحنةٍ قط إلا وسببها التأويل، فإن محنتَه إمَّا من المتأوِّلين، وإما أن يسلَّط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا ظاهر التنزيل، وتعلَّلوا بالأباطيل » (٤).

وقال: « وما الذي سلَّط سيوفَ التَّار على دار الإسلام حتى ردوا أهلَها غيرُ التأويل؟ وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والاتحاد إلَّا من باب التأويل؟!

وهل فَتْح باب التأويل إلا مضادَّةٌ ومناقضةٌ لحكم اللَّه في تعليمه عباده البيان الَّذي امتَنَّ اللَّهُ في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؟!

(١) ظنوا التأويل اجتهادًا وهو ليس كذلك.

(٢) القري: مسيل الماء. والمعنى ارتفع الماء على المسيل.

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم (٢٤٩/٤ - ٢٥٠).

(٤) إعلام الموقعين (٢٥١/٤).

فالتأويل بالألغاز والأحاجيّ والأغلوطات أَوْلى [١]. منه بالبيان والتبيين.

وهل فَرْقٌ بين دَفْعِ حقائق ما أخبرت به الرسلُ عن اللّه وأمرت به بالتَّأويلات الباطلة المخالفة له، وبين ردِّه وعدم قبوله؟!

ولكن هذا ردُّ جحودٍ ومعاندة، وذاك ردُّ خِدَاعٍ ومصانعة! » [٢].

وأخيرًا قال ابنُ القيِّم - بعد أن نقل كلامًا طويلًا عن أبي الوليد ابن رشد المالكيّ - وهو ابن رشد الفقيه وليس الفيلسوف - في كتابه المسمى بالكشف عن مناهج الأدلة وقد ذَكر التأويلَ، وجنايته على الشَّريعة وضرب له مثلًا طويلًا - قال:

« ولو ذهبنا نستوعب ما جناه التأويلُ على الدُّنيا والدِّين، وما نال الأمم قديمًا وحديثًا بسببه من الفساد لاستدعى ذلك عدةَ أسفارٍ واللّه المستعان » [٣].

* * *

ولو رجعنا إلى السُّنَّة النَّبويَّة لوجدنا فيها كراهيةً للجدل ونهيًا عن المِرَاء والاختلاف في أصول العقيدة.

فقد روى ابن ماجه بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول اللّه ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفقأ في وجهه حَبُّ الرمَّان من الغضب، فقال: « **بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ، تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ** » قال: فقال عبد اللّه بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول اللّه ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه [٤].

وروى ابنُ ماجه أيضًا بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول اللّه ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].
فقال: « **يَا عَائِشَةُ، إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ، الَّذِينَ عَنَاهُم اللّه فَاحْذَرُوهُمْ** » [٥].

---

(١) يريد أن التأويل المتعسف أشبه بالألغاز والأحاجي، ولا يصدق عليه البيان والتبيين.

(٢) إعلام الموقعين (٤/٢٥٢). (٣) إعلام الموقعين (٤/٢٥٤).

(٤) سنن ابن ماجه المقدمة باب (١٠) حديث رقم (٨٥).

(٥) سنن ابن ماجه المقدمة باب رقم (٧) حديث رقم (٤٧).

وروى ابن ماجه أيضًا بسنده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ** »[١].

* * *

فكيف نقبل بعد ذلك قول من زعم[٢] أنَّ القرآنَ يدعو إلى التفلسف، ويستدل على ذلك بوجود المتشابه في القرآن الذي يترك المجال للأفهام لمحاولة تحديد المراد – مع أن الموقف محسومٌ في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧].

كما استدلَّ بعدم التَّحديد القاطع من القرآن في بعض الأمور، يقول: « حين يتكلم القرآن في آيات كثيرة عن السماء بأنَّ اللَّه سبحانه خلقها والأرض في ستة أيام وبأنه يجب التفكير فيما هي السماوات والأرض وفي خلقها وفي ماذا فيهما – حين يتعرض القرآن لذلك في مناسبات كثيرة لم يبيِّن لنا مطلقا ما هي السَّماء ولا ما المادَّة التي خُلِقت منها هي والأرض وهل هذه المادَّةُ قديمةٌ أو حادثةٌ .. وحين يتكلم عن الرُّوح لم يبيِّنْ لنا كذلك ما هي، وذلك حين يقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وكذلك كان الأمر في مشاكل أخرى غير قليلة. لنا أن نقول: إنَّ معنى هذا كله ونحوه أنَّ القرآنَ بعدم التحديد المقصود في هذه المسائل وأمثالها مما تعالجه فلسفةُ الطَّبيعة، وما بعد الطَّبيعة، يدعو العقلَ بعد أن أثار له المشكلةَ بوجهٍ عام إلى النَّظر والتفكير .. »[٣].

● وهذا من أعجب العجب، ومن أغرب طرق الاستدلال، فالمادةُ التي خلقت منها السَّماوات والأرض ليست من قضايا الفلسفة، فهل استطاع الفلاسفةُ تعيينَ المادة التي خلقت منها السماواتُ والأرضُ؟ وما معنى السُّؤال عن هذه المادة أهي قديمةٌ أم حادثةٌ، ومعلومٌ أنَّ الكونَ كلَّه حادثٌ، خلقه اللَّه سبحانه بعد أن لم يكن، وكذلك الإنسان: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]. وكذلك قضيةُ الرُّوح فهل الجوابُ القرآنيُّ لمن سأل عن حقيقتها: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ

---

(١) سنن ابن ماجه المقدمة باب رقم (٧) حديث رقم (٤٨).

(٢) هو الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه « القرآن والفلسفة » القاهرة – دار المعارف سنة ١٩٥٨م.

(٣) القرآن والفلسفة (ص ٥٤) مرجع سابق.

أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] يدعو إلى التفلسف في البحث عن حقيقة الرُّوح، أو إلى تفويض علمِها إلى الله سبحانه؛ لأنَّ علمَ الإنسان قاصرٌ عن إدراك حقيقتها؟!

• أمَّا أنَّ القرآن يدعو العقل إلى التفكير والنظر فهذا صحيح ..، ولكن: التفكير في ماذا، والنظر إلى ماذا؟

لقد أوضح القرآنُ ذلك في قول الحقِّ سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فهو تفكرٌ في خلق السماوات والأرض للتَّعرف إلى آيات القدرة ودلائل الحكمة .. وليس تفكرًا في المادة التي خُلقت منها الأرض والسماوات ..؛ لأن هذا ما ليس ممكنًا للعقل والنظر ..، ولكن إن استطاعت العلومُ التَّجريبية تسجيلَ بعضِ المعارف العلميَّة في ذلك فلا حرجَ ولا بأسَ ..

إنَّ القرآن الكريم لا يدعو إلى التفلسف ولا يرتضيه ..، بل إنه يدعو إلى الإيمان واليقين وينهى الإنسان أن يقفُو ما ليس له به علم، أو يحاول إقحامَ رأيه وعقله المجرد في قضايا العقيدة التي جاء بها الوحي من ربِّ العالمين.

مسار التفرق:

وقد لخَّص **الشَّيخ محمد عبده** مفتي الديار المصريَّةِ السابق - يرحمه اللَّه - مسار هذا التفرق والاختلاف في قضايا العقيدة في مقدمة « رسالة التوحيد » حيث قال:

« مضى زمنُ النَّبي ﷺ وهو المرجع في الحيْرة والسِّراج في ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العُمُر في مدافعة الأعداء، وجمع كلمة الأولياء، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم؛ ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم، وما كان من اختلافٍ قليلٍ رُدَّ إليهما، وقُضي الأمر فيه بحكمهما، بعد استشارة من جاورَهما من أهل البصر بالدين، إن كانت حاجةً إلى الاستشارة.

وأغلبُ الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد، ثم كان النَّاسُ في الزَّمنَين يفهمون إشاراتِ الكتاب ونصوصه، ويعتقدون بالتَّنزيه ويفوِّضون فيما يوهم

التشبيه، ويرون أن له معنى غير ما يُفهمه ظاهرُ اللفظ.

كان الأمرُ على ذلك إلى أنْ حدث ما حدث في عهد الخليفة الثَّالث، وأفضى إلى قتله. هوى بتلك الأحداث ركنٌ عظيمٌ من هيكل الخلافة، واصطدام الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها، وبقي القرآنُ قائمًا على صراطه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. وفتح للناس باب لتعدِّي الحدود التي حدها الدين، فقد قُتِل الخليفةُ، بدون حكم شرعيٍّ، وأشْعر الأمرُ قلوب العامة أن شهواتٍ تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمانُ قلوبهم، وغلب الغضبُ على كثير من الغالين في دينهم، وتغلَّب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم، فقُضيت أمورٌ على غير ما يحبّون.

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد اللَّه بن سبأ، يهودي أسلم، وغَلا في حبِّ عليٍّ - كرم اللَّه وجهه - حتى زعم أنَّ اللَّه - سبحانه - حلَّ فيه، وأخذ يدعو إلى أنه الأحقُّ بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه، فذهب إلى البصرة، وبثَّ فيها فتنته وأُخْرج منها، فذهب إلى الكوفةِ ونفث ما نفث من سُمِّ الفتنة فنفي منها، فذهب إلى الشام فلم يجد فيها ما يريد، فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانًا على فتنته إلى أن كان ما كان مما ذكرناه - يريد مقتل عثمان ﷺ » (١).

ثم قال الشيخ محمد عبده: « وكانت أولُ مسألةٍ ظهر الخلافُ فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختياريَّة، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب، اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصريُّ واعتزله، يعلِّم أصولًا لم يكن أخذها عنه. غير أن كثيرًا من السَّلف، ومنهم: الحسن على قولٍ كان على رأي أن العبدَ مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته، وقام ينازع هؤلاء أهلُ الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسانَ في عمله الإرادي، كأغصان الشَّجرة في حركاتها الاضطرارية، كل ذلك وأرباب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالأمر، ولا يُعنون برد الناس إلى أصلٍ وجَمْعهم على أمر ثم يذهب كلٌّ إلى ما شاء.

• ثم لم يقف الخلافُ عند المسألتين السَّابقتين، بل امتدَّ إلى إثبات صفات المعاني للذَّات الإلهية أو نفيها عنها، وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الأحكام الدينية

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، تحقيق محمود أبو رية (ص ٢٥)، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة.

حتى ما كان منها فروعًا وعباداتٍ .. » إلا أن قال: « فظهر الإلحادُ، وتطلعت رؤوسُ الزَّندقة، حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتِهم، وإبطال مزاعمهم » (١).

وبعد استعراض ما جرى بين الفرق المختلفة في قضايا العقيدة، وما سرى إلى بعضهم من أفكار الفلاسفة ..

قال الشيخ محمد عبده: « والذي علينا اعتقادُه: أنَّ الدِّين الإسلاميَّ دينُ توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد، العقلُ من أشد أعوانه، والنقلُ من أقوى أركانِه، وما وراء ذلك فنزغاتُ شياطين، أو شهوات سلاطين، والقرآنُ شاهدٌ على كلٍّ بعمله، قاضٍ عليه في صوابه وخطئه.

الغاية من هذا العلم - أي: علم التوحيد - القيام بفرض مجمع عليه، وهو معرفة اللَّه بصفاته الواجب ثبوتها له، مع تنزيهه عمَّا يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتمادًا على الدَّليل، لا استرسالًا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتابُ، فقد أمر بالنَّظر واستعمالِ العقل، فيما بين أيدينا من ظواهرِ الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلًا لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوالِ الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك » (٢).

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

جاءت هذه الدعوةُ في العصر الحديث تجديدًا لدعوة الإمام أبي العباس بن تيمية يرحمه اللَّه؛ لتنقية العقيدة من الشَّوائب والرجوع إلى منهج الكتاب والسُّنَّة، بعيدًا عن الأهواء، والآراء الفاسدة، أو التَّأثر بأقوال الفلاسفة ومصطلحاهم الغامضة.

وقد أوضح الشيخ - يرحمه اللَّه - أمر العقيدة في كتاب « التوحيد الذي هو حق اللَّه على العبيد » كما ألف كتابًا سماه « كشف الشبهات » وكتابًا في تفسير القرآن.

ويقوم كتاب « التَّوحيد » على أساس الاستدلال بالكتاب والسُّنَّة على مسائل العقيدة. وخاصَّةً في مسألة الصِّفات التي كانت مثار جدل بين الفرق المتناحرةِ خلال العصور، فرفضت مقولات المعتزلة ومقولات الأشاعرة وغيرهما من الفرق، واكتفت بإيضاح

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده (٢٧ - ٢٩) مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق (ص ٣٤).

العقيدة من الكتاب والسُّنَّة.

والملاحظ أنَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يسلك مسلك ابن تيمية في تفصيل الرُّدود ومناقشة آراء المبتدعة، واكتفى بإيضاح الحقِّ وسرد الأَدلة من الكتاب والسُّنَّة وما صحَّ من حديث رسول اللَّه ﷺ.

* * *

إن الرَّأْي في مجال العقيدة لا مكان له في الفكر الإسلاميِّ الصحيح، وقد ينتفع بالآراء في إقامة الحجج العقليَّة، وردِّ الشُّبهات بالمنطق السليم والأدلةِ المقبولة لدى العقول.

أما إقحامُ الرَّأْي فيما يتصل بصفات اللَّه سبحانه، أو مسائل العقيدة، فإنَّه من القول على اللَّه سبحانه بغير علم، واللَّه سبحانه يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

* * *

الرأي في مجال الفقه

• هذا مجالٌ واسعٌ للرَّأي يجتهد فيه المجتهدون، ويسعى فيه السَّاعون للوصول إلى الحقيقة مع التجرد من الهوى والإخلاص في المقصد.

ذلك؛ لأنَّ النصوصَ الواردة في الأحكام الشرعيَّة من الكتاب والسُّنَّة محصورة العدد.. والقضايا والأحداث التي تشهدها حياة الناس واسعة متجددة لا تنحصر..

فلا بدَّ إذن من الاجتهاد في استنباط الحكم من النُّصوص الشرعيَّة، أو عن طريق القياس.

وقد ورد النص على الاجتهاد في السُّنَّة النَّبويَّة، فقد روى البخاريُّ وغيره عن عبد اللَّه ابن عمرو أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: « **إذا قضى القاضي، فاجتهد فأصاب فله عشرةُ أجور، وإذا اجتهد فأخطأ كان له أجر أو أجران** » (١).

وفي رواية للبخاري ومسلم أن النَّبي ﷺ قال: « **إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ** » (٢).

وفي الحديث المشهور عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ لما بعثه إلى اليمن سأله: « **بِمَ تَقْضِي** »؟ قال: أقضي بكتاب اللَّه. قال: « **فإن لم تجد** »؟ قال: أقضي بسنة رسول اللَّه. قال: « **فإن لم تجد** »؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول اللَّه ﷺ صدره وقال: « **الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّه لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّه** » (٣).

فهذا اختبارٌ لفقه هذا الصحابيِّ وإدراكه لمصادر الفتوى والقضاء، فأولُّها: كتاب اللَّه سبحانه، وثانيها: سنَّةُ رسول اللَّه ﷺ، وبعد ذلك يجتهد رأيه ولا يألو أي لا يقصِّر في الفهم والاجتهاد في الحكم، وهذا هو الجهد البشريُّ لمعرفة الحق وإدراك الصواب.

وفي سنن الدارميِّ أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ:

« إنْ جاءك ما ليس في كتاب اللَّه ولم يكن فيه سنَّةٌ من رسول اللَّه، فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإنْ جاءك ما ليس في كتاب اللَّه ولم يكن في سنَّةِ رسول اللَّه ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام باب رقم (١٣) ومسند أحمد (١٨٧/٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب الاعتصام باب رقم (٢١) وصحيح مسلم كتاب الأقضية حديث رقم (٤٥).

(٣) سنن الترمذي كتاب الأحكام باب رقم (٣).

ولم يتكلم فيه أحدٌ قبلك، فاختر أيَّ الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهدَ رأيك ثم تقدم، فتقدم وإن شئتَ أن تتأخرَ فتأخر، ولا أرى التَّأخرَ إلَّا خيرًا لك » [١]. هذا هو الاجتهادُ واضحٌ في عصر النُّبُوَّة.

• وقد عرف الصَّحابةُ رضوان اللَّه عليهم الاجتهادَ في زمن النَّبِي ﷺ كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النَّبِي ﷺ يوم الأحزاب: « **لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرِيظَةَ** » فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلِّي، لم يردْ منا ذلك. فذُكر ذلك للنبيِّ ﷺ فلم يعنِّف واحدًا منهم [٢].

فهذا موقف اجتهاديٌّ مبكر في تاريخ الإسلام، كان للرأيِ فيه نصيبٌ. فإن الذين التزموا بتأجيل صلاة العصر إلى أن يَصِلوا إلى بني قريظة قد أخذوا بظاهر النَّص، واستدلوا بحرفيَّته ..

أما الذين أدوها عند حلول الوقت، فقد رأوا أنَّ النَّبِي ﷺ إنما أراد منهم التعجيلَ بالوصول إلى بني قريظة ما وسعهم ذلك، ولم يرد منهم تأجيل الصلاة.

والنَّبِي ﷺ قد أقرَّ ما فعله هؤلاء وهؤلاء ولم يعنف أحدًا، فكلهم قد أصاب الحقَّ باجتهاده.

وقد اختلف الصَّحابة في الأحكام الفرعيَّةِ، ولم يختلفوا في الأصول والعقائد ..، فقد كان لابن عباس رضي الله عنهما فقه.. وكان لابن عمر رضي الله عنهما فقهٌ.. وكذلك غيرهما من الصَّحابة رضوان اللَّه عليهم، ولم ينكر أحدٌ منهم على الآخر رأيَه واجتهاده..

وقد كان لاجتهاد الخليفة الثَّاني عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قيمةٌ عظمى في تاريخ الفقه الإسلاميِّ، مما جعل بعض الباحثين يؤلِّف مؤلفاتٍ ضخمة تحت عنوان « فقه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه » [٣]. ومن اجتهاداته رضي الله عنه درؤُه عقوبةَ قطع يد السَّارق في عام المجاعة، وهو لم يعلق النصَّ ولم يعدّله. وإنما فهم أن آخذ المالَ في عام المجاعة لا يوصف بأنه

(١) سنن الدارمي (٦٠/١) مرجع سابق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٢٢٨/٢) ط الخيرية.

(٣) تلك كانت رسالة الباحث الدكتور رويعي الرحيلي من أساتذة كلية الشريعة، بجامعة أم القرى، وقد طبعت في ثلاث مجلدات بمركز البحث العلمي بالجامعة.

سارقٌ؛ لأنه يرى لنفسه حقًّا فيما يأخذ، والسَّرقةُ: هي أخذ الإنسان ما لا حق له فيه خُفْية.. فعمر بن الخطَّاب ﷺ يتعلق فقهه بلفظ ورد في النص هو قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾ [المائدة: ٣٨] فيفسره بأنه آخذٌ ما لا حقَّ له فيه خُفْية، ثم يطبق مفهومه على السَّارق في عام المجاعةِ، فيراه آخذًا ما له حقٌّ فيه، ومن ثمَّ لا يشمله النَّصُّ فلا يجب قطعه .. وقال ابنُ القيِّم: « وقد وافق أحمد على سقوط القطع في عام المجاعة الأوزاعي، وهذا محضُ القياس، ومقتضى قواعد الشَّرع، فإنَّ السَّنَة إذ كانت سَنة مجاعة وشدَّة غلب على الناس الحاجة والضَّرورة، فلا يكاد يَسْلم السَّارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسدُّ به رمقَه .. وهذه شبهةٌ قويَّةٌ تدرأ القطعَ عن المحتاج ..

كل هذا يبيِّن أنَّ الأمرَ في نظر عمر بن الخطَّاب ﷺ لم يخرجْ عن النَّص وليس فيه إبطال له ولا نسخ ولا تعديل، وإنما هو تطبيقٌ دقيقٌ للفظ المشرِّع مع ملاحظة رغبته الصريحة في درء الحدود بالشُّبُهات » (١).

• وكذلك اجتهد عمر ﷺ في وقف عقوبة تغريب الزَّاني غير المحصن بعد التحاق ربيعة بن أمية بن خلف بالرُّوم عندما عاقبه عمر بهذه العقوبة، فقال عمر: « لا أغرِّب بعد هذا أبدًا ».

وليس في ترك عمر إياه – أي: التَّغريب – نسخٌ لِنَصٍّ، وجرى من بعده على هذه السُّنَّة، وذلك أنَّه إنَّما امتنع عن التَّغريب بعد التحاق ربيعة بن أمية بن خلف بالرُّوم، متَّبعًا في ذلك سنة رسول اللَّه ﷺ.

وفي ذلك يقول العلَّامة ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين (٣/٢٩): « إنَّ النَّبِي ﷺ نهى أنْ تُقطعَ الأيدي في الغزو. رواه أبو داود. فهذا حدٌّ من حدود اللَّه تعالى وقد نهى عن إقامته في الغزو خشيةَ أن يترتبَ عليه ما هو أبغضُ إلى اللَّه من تعطيلِه أو تأخيرِه، مِنْ لحوقِ صاحبه بالمشركين حميَّةً وغضبًا، كما قاله عمر وأبو الدرداء وحذيفة وغيرهم.

وقد نصَّ أحمد وإسحق بن راهويه والأوزاعيُّ وغيرهم من علماءِ الإسلام على أنَّ الحدودَ لا تُقام في أرض العدو ».

قال ابنُ القيِّم: « وليس في هذا ما يخالف نصًّا ولا قياسًا، ولا قاعدةً من قواعد

---

(١) نظرات في فقه عمر للشيخ محمد محمد المدني. مجلة الأزهر ربيع الأول سنة (١٣٨١هـ).

الشَّرع، ولا إجماعًا، بل لو ادُّعي أنه إجماعُ الصَّحابة كان أصوب » (١).

* * *

وعلى هذا المبدأ سار الصَّحابة والتَّابعون رضوان اللَّه عليهم، فكان كلٌّ منهم يعتمد على اجتهاده الخاص، متى كان قادرًا على ذلك، ويبيح لغيره الاجتهادَ، ويحترم رأيَ غيره متى كان قائمًا على دليلٍ من الكتاب والسُّنَّة، بل قد يرجع عن رأيه ويأخذ برأي غيره إذا تبين له رجحان هذا عن ذاك.

ومَوَاقفُهم هذه – رضوان اللَّه عليهم – كثيرةٌ مشهورةٌ قد زخرت بها كتبُ التاريخ الإسلاميّ، مسجلة لهم أسمى مبدأ في حُرِّيَّة الرَّأْي والحث على الاجتهاد (٢).

• وإنما يباح الاجتهادُ في الفروع الفقهيَّة لمن توافرت فيه الشروطُ التي ارتضَاها الفقهاءُ، ومنها العلم بكتاب اللَّه وسنَّةِ رسوله ﷺ، والعلم بلغة العرب، والذَّكاء والإخلاص في المقصد، بعد معرفة أصولِ الفقه وقواعد الاستنباط والقياس..

فإن فقدت هذه الشروط، أو بعضها، فلا يجوز التَّذرعَ بحُرِّيَّة الرَّأْي في الاجتهاد..

وللاجتهاد وسائلٌ منها: القياس، وهو إلحاقُ أمرٍ لم يرد فيه نصٌّ بأمر آخر جاء فيه نصٌّ؛ لوجود العلَّة المشتركة بينهما.

ومن وسائله الاستحسان، وينقل عن الإمام مالك بن أنس يرحمه اللَّه قوله: « تسعة أعشار العلم بالاستحسان » وهي عبارةٌ تُشعر أنَّ له في ذلك مجالًا أيّ مجال، فنتقدَّم؛ لترى ماذا في الأمر من قول بالاستحسان؟ فإذا الآمديُّ في « الإحكام » يقول: وقد اختلف فيه – أي: في الاستحسان – فقال به أصحابُ أبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأنكره الباقون حتى نقِل عن الشافعيّ أنه قال: « من استحسن فقد شَرَّع ».

كما نجد الشاطبيَّ المالكيَّ أيضًا يقول: إن الاستحسانَ يراه معتبرًا في الأحكام مالك وأبو حنيفة بخلاف الشافعيّ فإنَّه منكر له جدًّا، حتى قال: « من استحسن فقد شرَّع ».

ويزيد ذلك بيانًا بإيضاح الاستحسان في مذهب مالك، وأنَّه أَخْذٌ بمصلحةٍ جزئيَّةٍ في

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٢٩/٣) مرجع سابق.

(٢) الحرِّيَّة الدينية في الإسلام وعلاقتها بالاجتهاد والتقليد للدكتور علي عبد الواحد وافي مجلة الأزهر عدد شوال سنة (١٣٧٩هـ). أبريل سنة (١٩٦٠م)، (ص ٨٢٢).

مقابل دليلٍ كليٍّ، ويقرر الشاطبيّ أنَّ مالكًا وأصحابه قد بنوا على هذا الاستحسان، وكذلك يقول ابن العربيّ الفقيهُ المالكيّ أيضًا: « الاستحسان عند الحنفيّة: هو العمل بأقوى الدليلين » (١).

• ومن وسائل الاجتهاد أيضًا: المصالح المرسلة: « والمصالحُ: هي مصالحُ البشر التي يقصد الشرع إلى تحقيقها، فما يُستحسنُ منها هو ما استحسن الشَّرع، وما استقبحه الشَّرع فهو القبيحُ. وبطرائقهم الأصوليّة المقرَّرة **يقسِّمون هذه المصالحَ باعتبار الشَّرع لها إلى ثلاثةِ أقسام:**

١ - مصالح عُرف اعتبارُ الشَّرع لها.

٢ - مصالح عُرف إهدار الشَّرع لها وإلغاؤها.

٣ - مصالح لم يشهد لها الشَّرع باعتبار ولا إلغاء، بل تركها دون شهادة لها بشيء، ولهذا سميت المصالح المرسلة، وهي أمورٌ يبدو للعقل أنَّها مصالحُ للعباد، والقوم لا يعترفون بمصلحتها إلَّا إذا عرفوا - بطرائقهم ومسالكهم الأصوليّة - استحسان الشَّرع لها واعتبارها، فيلتمسون هذا الاعتبار من الشَّرع ولا يجدون شهادة منه لها، كما لا يجدون شهادة منه عليها.

وهذا البيانُ للمصالح واعتبارها أو إلغاؤها، والنَّظر في طرائق الاعتبار والإلغاء، إنَّما هو عملٌ عقليٌّ متقدم، ولذلك نستطيع القولَ بأنَّ النظرَ في هذه المصالح لا يكون إلا في مستويات فكريَّةٍ بَدَا فيها التَّطلُّع والنضج، وليس من السَّهل التَّسليم بأنها تكون موضعَ بحثٍ في فترةٍ ينشأ فيها الدرس الفقهيُّ أو يبدأ تدرجه، وعلى أساس من هذه الملاحظة نصيخ إلى ما يُقال من اعتبار الفقهاء لها ونحن مقدِّرون هذا الاعتبارَ الاجتماعيَّ الصحيح.

والذي في كتب الأصول المتأخِّرة عن عصر مالك بضعة قرون يتلخَّص في أنَّ الفقهاء من الشافعيَّة والحنفيَّة، وغيرهم قد اتَّفقوا على امتناع التَّمسك بهذه المصالح المرسلة، إلَّا ما نُقل ويُتْبعون ذلك بمثل قولهم، لعلَّ النقل إنْ صحَّ عن مالك، فالأشبه أنَّه لم يقل بذلك في كل مصلحةٍ، بل فيما كان من المصالح الضروريَّة الكليَّة الحاصلة قطعًا، لا فيما

---

(١) مالك تجارب حياة للأستاذ أمين الخولي سلسلة أعلام العرب رقم (١١) - القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

كان من المصالح غير ضروريّ ولا كلي ولا وقوعه قطعيّ » (١).

هل أغلق الباب؟

إنَّ الاجتهاد بطرقه ووسائله المختلفة، وشروطه المعتبرة مجال واسع للرَّأي الذي يستخرج الحكم الشرعيّ فيما يجدّ في حياة النَّاس من قضايا ومشكلاتٍ..

ولا يجوز إغلاق باب الاجتهاد في عصر من العصور؛ لأن قضايا الحياة المتجددة ومشكلاتها المعقَّدة تحتاج إلى مسايرةٍ للتَّطور وفق قواعد الشَّريعة، ولا تقف عند قول من أقوال الفقهاء مهما كانت منزلتُهم في الفقه.

يقول الشَّيخ محمد أبو زهرة - يرحمه اللَّه -: « إنَّ الفقهاءَ الذين أغلقوا باب الاجتهاد كانوا من الحنفيَّة والشافعيَّة، ووجدنا المالكيةَ يقرِّرون أنَّ المفتي يجب أن يكون مجتهدًا، وقالوا: إنَّ ذلك النَّوع من الاجتهاد لا يخلو منه زمانٌ، بل هو باقٍ ما بقي الإسلامُ والمسلمون، ولقد جاء الحنابلةُ بعد هؤلاء، وأولئك فقرَّروا أنَّ باب الاجتهاد بكل طرائقه لا يُغْلَق » (٢).

• وكيف يغلق باب الاجتهاد في زمن تغيَّرت فيه الأوضاعُ الاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّةُ والثَّقافيةُ، والناسُ يتساءلون عن حكم الشَّرع فيما يحدث لهم من أحوال ومشكلات جديدة لم تظهر في الأزمنة الماضية؟!

وكيف يُدَّعى أن باب الاجتهادِ قد أغلق في القرن الرابع الهجريِّ، أو بعد تخريب التتار لبغداد سنة (٦٥٦هـ) - كما يدعي محمد إقبال الشاعر الباكستاني الشهير في كتاب: « تجديد التفكير الديني في الإسلام » (٣). مع أنَّ أبا العباس أحمد ابن تيمية الذي ولد سنة (٦٦١هـ) وتُوفي سنة (٧٢٨هـ)، فعاش في القرن السابع وجزء من القرن الثامن الهجري قد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، « وقد نشأ ابن تيمية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وبما أنه أعطى نفسه حقَّ الاجتهاد، فقد خرج بذلك على من يحرمونه ويقولون بإقفال بابه، واستأنف النظر في الأصول الأولى؛ ليصدر عنها من جديد، ونهج

---

(١) المصدر السابق (٣٩١ - ٣٩٣).

(٢) أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث للدكتور عبد الحميد متولي، الطبعة الثالثة - القاهرة، سنة (١٩٨٥م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) (ص ١٧٤) - مطبعة لجنة التأليف - القاهرة، الطبعة الثانية (١٩٦٨م).

منهج ابن حزم في إنكار ما ذهب إليه الحنفيةُ من تقرير الأحكام على أساس القياس والإجماع كما فهمها قدماء الأصوليين .. وليس من شك في صواب رأيه إذا وضعنا موضع الاعتبار ما ساد عهده من انحلال خلقيٍّ، وضعف في التفكير العقليِّ.

وفي القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي - نادي السيوطي بأن له حقُّ الاجتهاد وزاد على ذلك قوله بظهور إمام مصلح في مستهل كل قرن من الزمان » [١].

« ولكنَّ تعاليم ابن تيمية لقيت خيرَ تعبيرٍ عنها في حركة مفعمة باحتمالات كثيرة قامت خلال القرن الثاني عشر الهجريِّ - الثَّامن عشر الميلادي - على رمال نَجْد التي وصفها « ماكدونالد » بأنها أطهرُ بقعة في عالم الإسلام الذي دبَّ إليه الانحلال « وهذه الحركة في الحق أولُ نبضات الحياة في التاريخ الإسلاميِّ الحديث ... وُلِدَ محمد ابن عبد الوهاب المصلح المتطهر العظيم في سنة (١١١٥هـ - ١٧٠٠م) وتلقى العلم في المدينة المنورة ثم رحل إلى ربوع فارس. ونجح آخر الأمر في إشاعة الرُّوح التي تأجَّجت في نفسه ونشرها في العالم الإسلاميِّ كله » [٢].

• وأئمةُ الفقه الإسلاميِّ أصحاب المذاهب الأربعة قد دعوا إلى الاجتهاد، ولم يرتضوا أن يقلدَهم الناسُ دون تفكير، فكانوا يعترفون بجواز وقوعِ الخطأ منهم وبجواز أن يكون هناك حديث لم يصل إلى علمهم، فالإمام أحمد بن حنبل يقول: لا تقلدْني ولا تقلد مالكًا، ولا الشافعيَّ، ولا الثوريَّ وتعلَّم كما تعلمنا.

كما ذُكر عنه قوله: « لا تقلِّد في دينك الرجالَ، فإنَّهم لن يَسْلموا من أن يغلطوا، ومن ترك الحديث وأخذ بقول الرِّجال، فقد ترك من لا يغلط إلى من يغلط! ».

ومما يذكر عن الإمام مالك قوله: « إنَّما أنا بشرٌ أخطئ وأصيب، فاعرضوا قولي على كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ».

وكان الشافعي يقول: « إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط » وليس أدل على بعد الشافعي عن التعصب لمذهبه من أنه حين انتقل من العراق إلى مصر - حيث عاش فيها خمسة أعوام - اتخذ مذهبًا جديدًا يتلاءم مع ظروف البيئة الجديدة، وهنا نجده يتأثر إلى

---

(١) لعله يشير إلى الحديث الذي رواه أبو داود والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » الجامع الصغير حديث رقم (١٨٤٥).

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال (ص ١٧٥، ١٧٦) مرجع سابق.

حد كبير بمدرسة أهل الرَّأي، فأصبح يُعرفُ للشافعيِّ مذهبان: قديم وجديد، فأما القديم فهو ما كتبه وقال به في العراق، وأما الجديد فهو ما كتبه وقاله في مصر (١).

اختلاف الفقهاء:

كما كان الفقهاء أنفسهم يختلفون ويتناقشون ويتحاورون - ومن أمثلة ذلك ما دار بين الإمام مالك بن أنس والإمام الليث بن سعد من مكاتبات تعكس هذا الاختلاف والاجتهاد في البحث عن الحق.

وقد أورد ابن القيم رسالة الليث بن سعد التي كتبها وهو في مصر إلى الإمام مالك ابن أنس في المدينة. وهي رسالة طويلة نجتزئ منها بعض الفقرات التي تناسب المقام.

فمنها قوله: « وأنه بلغك أنِّي أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأني يَحقّ عليَّ الخوف على نفسي، لاعتماد مَنْ قِبَلي على ما أفتيتُهم به، وأَنَّ الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن. وقد أصبتَ بالذي كتبت به من ذلك - إن شاء اللَّه تعالى ووقع مني بالموقع الذي تحبّ، وما أجد أحدًا يُنْسب إلى العلم أكره لشواذِّ الفُتْيا ولا أشد تفضيلًا لعلماء أهل المدينة الذين مضوْا، ولا آخَذَ لفتياهم فيما اتَّفقوا عليه منِّي والحمد للَّه رب العالمين ».

ومنها: «.. مع أنَّ أصحاب رسول اللَّه ﷺ قد اختلفوا بَعْدُ في أشياء كثيرة، ولولا أني قد عرفتُ أنْ قد علمتها لكتبت بها إليك، ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول اللَّه ﷺ سعيد بن المسيَّب ونظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحَضرتُهم بالمدينة وغيرها، ورَأْسُهم يومئذ: ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن (٢)، وسمعتُ قولك فيه، وقول ذوي الرَّأي من أهل المدينة: يحيى بن سعيد وعبيد اللَّه بن عمر وكثير بن فَرْقد، وغير كثير ممن هو أسنُّ منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد اللَّه بعضَ ما نَعيبُ على ربيعة من ذلك،

---

(١) أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث (ص ١٢٣، ١٢٤) مرجع سابق. ونشير هنا إلى أن المذهب الجديد للشافعي ليس مخالفًا تمامًا للمذهب القديم، فالأحكام الشرعية الأساسية لا تتغير من بلد إلى بلد. ولكن هناك مسائل جزئية تفصيلية تختلف باختلاف العرف والبيئة وهي مسائل معدودة لا يصح أن يقال عنها إنها مذهب جديد. وفي دعوة الأئمة للأخذ بالحديث انظر إعلام الموقعين (٤/٢٣٣).

(٢) ابن شهاب الزهري. وربيعة الذي يقال له ربيعة الرأي لكثرة استعماله للقياس.

فكنتما من الموافقين فيما أنكرتُ، تَكْرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خيرٌ كثير، وعقلٌ أصيل، ولسانٌ بليغ، وفضلٌ مستبين، وطريقةٌ حسنة في الإسلام، ومودةٌ لإخوانه عامةً ولنا خاصَّة - رحمه اللَّه وغفر له وجزاه بأحسن من عمله -. وكان يكون من ابن شهاب اختلافٌ كثيرٌ إذا لقيناه وإذا كاتبه بعضُنا، فربما كتبَ إليه في الشيء الواحد - على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضًا، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك، فهذا الذي يدعوني إلى تَرْك ما أنكرْتَ تركي إياه .. » [1].

• فانظر إلى قوله في هذه الرسالة: « وقد اختلف الصَّحابة » وقوله: ثم « اختلف التابعون » بطبقاتهم المختلفة ..، وانظر إلى كراهة مالك بن أنس لبعض آراء ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وهو الذي يقال له ربيعة الرَّأْي، حتى اضطر مالكٌ إلى فراق مجلسه ..

ثم انظر إلى السَّماحة والعدالة، واحترام الاختلاف في قوله عن ربيعة هذا:

« ومع ذلك بحمد اللَّه عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام ومودة لإخوانه .. » فلم تحمله كراهتُه لبعض آراء ربيعة إلى تجريحه وتجريده من كل المزايا والفضائل، أو نسبته إلى الابتداع أو الكفر، كما يصنع بعض المتعصبين لآرائهم في زماننا هذا!

• إن عدم قبول الرَّأْي لا يحمل المخالف على الهجوم الكاسح على من خالفه، ولا على نسيان سابقته، وحسن بلائه في مجال العلم والفقه والاجتهاد ...

وهذا دليلٌ على سعة الأفق ورحابة الصدر، والبعد عن التعصُّب والجمود!

اختلاف الفتوى:

ومما يدلُّ على ضرورة الاجتهاد والحاجة إليه في كل عصر أنَّه قد تقرر عند علماء الأصول: اختلاف الفتوى باختلاف الزمان والمكان .. قال ابن القيم في « إعلام الموقعين » تحت عنوان: « باب في تغيّر الفتوى، واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد »: « هذا فصلٌ عظيم النفع جدًّا، وقع بسبب الجهل به غلطٌ عظيمٌ على الشَّريعة أوجب الحرجَ والمشقَّةَ وتكليف ما لا سبيل إليه ما يُعْلم أنَّ الشريعةَ الباهرةَ التي في أعلى رُتَب المصالح لا تأتي به، فإنَّ الشَّريعةَ مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في

---

(١) إعلام الموقعين (٣/٩٥، ٩٦) مرجع سابق.

المعاش والمعاد، وهي عَدْلٌ كلُّها ورحمةٌ كلها ومصالح كلها، فكل مسألةٍ خرجت من العَدْل إلى الجَوْر وعن الرحمة إلى ضدّها، وعن المصلحة إلى المفسدةِ، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشَّريعة، وإن أُدْخلتْ فيها بالتأويل.

فالشَّريعة عَدل اللَّه بين عباده ورحمته بين خلقه، وظلُّه في أرضه، وحكمته الدَّالةُ عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نورُه الَّذي أبصره المبصرون، وهُدَاه الَّذي به اهتدى المهْتدون، وشِفَاؤُه التَّام الذي به دواءُ كلِّ عليل، وطريقُهُ المُسْتَقِيم الَّذي من استقام عليه، فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرةُ العيون والنور والشفاء والعصمة، وكلُّ خير في الوجود، فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها.

ولولا رسومٌ قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمةُ للنَّاس وقوام العالم، وبها يمسك اللَّه السماوات والأرضَ أن تزولا، فإذا أراد اللَّه ﷻ خراب الدُّنيا وطَيَّ العالم رفع إليه ما بقي من رسومها، فالشَّريعة التي بعث اللَّه بها رسوله ﷺ هي عَمُود العالم وقطبُ الفلاح، والسعادةُ في الدنيا والآخرة » (١).

● وبعد هذه المقدمةُ البليغةُ الجامعة التي تصلح مقياسًا يعرف به ما هو من الشريعة وما ليس منها.. **يذكر ابن القيم أمثلةً لتغيُّر الفتوى بتغيُّر الأزمنة والأمكنة والأحوال، بلغت أكثر من ثمانية أمثلة.**

أولها: حكم إنكار المنكر إذا ترتب على هذا الإنكار مفسدةٌ أكبر من هذا المنكر فقال: **المثال الأول:** أن النَّبِيَّ ﷺ شرع لأُمَّته إيجابَ إنكار المنكر؛ ليَحْصل بإنكاره من المعروف ما يحبه اللَّه ورسوله، فإن كان إنكارُ المنكرِ يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى اللَّه ورسوله فإنَّه لا يسوغ إنكاره، وإن كان اللَّه يُبْغضه ويَمْقت أهله، وهذا كالإنكارِ على الملوك والولاة، بالخروجِ عليهم، فإنه أساسُ كلِّ شرٍّ وفتنة إلى آخر الدهر.

وقد استأذن الصَّحابةُ رسولَ اللَّه ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخِّرون الصلاةَ عن وقتها وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: « **لَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ** » وقال: « **مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يكْرهه فَلْيَصْبِرْ، وَلَا يَنْـزَعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ** ».

ومن تأمَّل ما جرى على الإسلام في الفتن الكِبَار والصِّغار رآها من إضاعة هذا الأصل

(١) إعلام الموقعين (٣/١٤).

وعدم الصبر على منكر، فطُلب إزالته، فتولَّد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول اللَّه ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات، ولا يستطيع تغييرها، بل لمَّا فتح اللَّهُ مكةَ وصارت دارَ إسلام، عزم على تغيير البيتِ وردِّهِ عَلَى قواعدِ إبراهيم، ومَنَعه من ذلك - مع قدرته عليه - خشيةَ وقوعِ ما هو أعظمُ منه، من عدم احتمالِ قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهدٍ بكفر، ولهذا لم يأذنْ في الإنكار على الأمراء باليد، لما يترتَّب عليه من وقوع ما هو أعظم منه، كما وُجد - أي حصل - سواء (١).

• فانظر إلى فقه هذا الإمام ونظرِه البعيد إلى مصالحِ الأمة، بعيدًا عن التعصب والتمسك بظواهر النصوص والجهل بحقائقها ..، فلو أنَّ كلَّ الجماعات التي اتَّخذت من إنكار المنكر ذريعةً إلى تقويض الأنظمةِ، وإثارةِ الفوضى في جَنَبَات المجتمع، وإشعال الفتنة بين المسلمين، فقهت هذا الفقه، وتذكَّرت هذا الأصل، لما حدث ما حدث من الفظائع والأهوال في القديم والحديث.

ولهذا ضرب ابن القيم أمثلةً لما يمكن أن يحدُثَ من إنْكَارِ المنكر من فسادٍ، وحينئذ فينبغي تركُه، وأحيانًا قد يكون هذا الإنكار محرمًا إذا تولَّد منه ما هو أشرُّ منه.

يقول ابنُ القيم: فإنكار المنكر أربعُ درجاتٍ: **الأولى**: أن يَزُول ويَخْلفه ضدُّه، **والثانية**: أن يَقلَّ وإن لم يَزُلْ بجملته، **والثالثة**: أن يخلفه ما هو مثله، **والرابعة**: أن يَخْلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان: مشروعتان. **والثالثة**: موضع اجتهاد، **والرابعة**: محرَّمةٌ.

فإذا رأيت أهلَ الفجورِ والفسوق يلعبون الشطرنج، كان إنكارُك عليهم مِنْ عدم الفقه والبصيرة، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحبُّ إلى اللَّه ورسوله كرَمْي النشَّاب وسباق الخيل ونحو ذلك.

وإذا رأيت الفسَّاق قد اجتمعوا على لهوٍ ولعبٍ أو سماع مُكَاءٍ وتَصدْية (٢)، فإنْ نقلتَهم إلى طاعة اللَّه فهو المراد، وإلا كان تركُهم على ذلك خيرًا من أن تفرِّغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلًا لهم عن ذلك .. وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس اللَّه روحه ونوَّر ضريحه - يقول: مررتُ أنا وبعض أصحابي في زمن التَّتار بقوم منهم يشربون الخمرَ، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلت له: إنما حرم اللَّه الخمر؛ لأنها تصدُّ عن ذكر اللَّه وعن الصَّلاة، وهؤلاء تصدُّهم الخمر عن

(١) إعلام الموقعين (١٦/٣).

(٢) المكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق.

قتل النُّفوس وسبْي الذرية، وأخذ الأموال، فدَعْهم! (١).

• **والمثال الثاني لتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال:** أنَّ النَّبِي ﷺ « نهى أن تُقْطع الأيدي في الغزو » رواه أبو داود. فهذا حدٌّ من حدود اللَّه تعالى، وقد نَهى عن إقامته في الغزو خشيةَ أن يترتبَ عليه ما هو أبغضُ إلى اللَّه من تعطيله أو تأخيره، مِنْ لُحوق صاحبه بالمشركين حميّةً وغضبًا، كما قال عمر وأبو الدرداء وحذيفة وغيرهم. وقد نصَّ أحمد وإسحاق بن راهوَيْه والأوزاعيُّ وغيرهم من علماء الإسلام على أنَّ الحدود لا تقام في أرض العدو .. (٢).

ولا نستطيع هنا إيرادَ كل الأمثلةِ التي ساقها ابنُ القيِّم للدلالة على تغيُّر الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال .. فهذا أمرٌ يطول ..، لكنَّنا نكتفي هنا بتقرير أن هذا التغيُّر في الفتوى؛ لمراعاة الأحوال والمصالح لابدَّ فيه من اجتهادٍ يجعل الفتوى ذاتَ مستندٍ شرعيٍّ وليست رأيًا من الآراء.

ومن أمثلة تغيُّرِ الفتوى بتغير الأحوال: ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد اللَّه ابن عمرو بن العاص قال: كنّا عند النَّبِي ﷺ فجاء شاب فقال: يا رسول اللَّه: أقبِّل وأنا صائم؟ قال: « **لا** » فجاء شيخ فقال: يا رسول اللَّه أقبِّل وأنا صائم؟ قال: « **نعم** ». فنظر بعضنا إلى بعض فقال رسول اللَّه ﷺ: « **قَدْ عَلِمْتُ نَظَرَ بَعْضِكُمْ إِلَى بَعْضٍ، إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ** » (٣).

• وهذا تدريبٌ للصَّحابة - رضوان اللَّه عليهم - على الاجتهاد في الفتوى؛ لتكون مطابقةً لحال المستفتي، وأنَّ هذا الاختلافَ ليس هوى ولا رأيًا معزولًا عن أسباب الفقه الصحيح.

وقد أشار الأستاذ عبَّاس محمود العقَّاد في كتابه: « التفكير فريضةٌ إسلاميّةٌ » إلى قضية الاجتهاد، وأنه مطلوبٌ في كل عصرٍ، فقال:

« ومن الفهم المعكوس أن يقال: إنَّ الاجتهاد لازمٌ في عصر الدعوة النَّبَويَّة والنصوص من الكتاب والسُّنَّة تتوارد، والسُّنَّة من أحاديث النَّبِي ﷺ حاضرة، وصاحبُ الدَّعوة أمام النَّاس يسألونه ويجيبهم، ثم ينقضي ذلك العهد فيحرَّم الاجتهاد، وهو الموئل الوحيد بين

(١) إعلام الموقعين (٣/١٦). (مرجع سابق). (٢) إعلام الموقعين (٣/١٧).
(٣) مسند أحمد (٥/٢٢٠).

أيديهم لفهم النُّصوص، وتصحيح العمل بالفرائض والأحكام، فهذا من الفهم المعكوس ولا مراء؛ لأنَّه يقضي بالاستغناء عن الاجتهاد عند الحاجة إليه.

والفهم الصحيح في هذه المسألة الجليلة: أنَّ ما صنعه النَّبيُّ ﷺ وتابَعه فيه الراشدون من خلفائه وأصحابه، وجب على المسلمين أن يصنعوا مثله، ولهم قدوةٌ حيةٌ مِنْ أَوْلى الناس أن يقتدوا بسيرته وعمله.

وشبيهٌ بهذا الفهم المعكوس أن يقال: إن الاجتهادَ يصحُّ حين تصح الذممُ، وتطهر الضمائر، وتَسلم العقائد، ويكثر الصَّالحون، ولكنه يبطل ولا يصح إذا عمَّ الفساد، وزاغت الضمائر، وضعف اليقين بالأعمال والنِّيات، فالواقع أنَّ عهد الفساد عهدٌ تكثر فيه الشُّبُهات التي ينبغي للحاكم أن يدرَأها عند إقامة الحدود، وتكثر فيه الضروراتُ التي يجب عليه أن يقدِّرَها بأقدارها عند توقيع العقاب..

ويتبين من تاريخ العالم الإسلاميِّ في جملته أنَّهُ على ما اعتراه من أدوار التَّأخُّرِ والجمود، لم يستمع طويلًا لآراء القائلين بمنع الاجتهاد في أيِّ صورةٍ من صُوَره، فإذا غلب التقليد في بلد من بلاده - أي العالم الإسلامي - لم يَخْلُ سائر البلدان من أئمةٍ يقولون بالاجتهاد، ويعملون به في كل باب من أبوابه، وهي كثيرةٌ تدلُّ كثرتُها على كثرةِ البحث فيها، وكثرة العاملين بها » [1].

• لقد ران الجمودُ والتقليدُ في بعض الفترات كثيرًا من أنحاء العالم الإسلاميِّ حيث كان العلماء مقتصرين على ترديد أقوال القدماء، والوقوف عند حد كتب بعينها يرجعون إليها في الفتوى ولا يتجاوزونها إلى غيرها ..، ولهذا نجد في القرون المتأخرة علماءَ ليس لهم إلا شرحُ متونٍ، أو تقييد حواشٍ على شروح ..، ويلقِّنونها لطلابهم دون نظر ولا مناقشة ولا استدراك.

وفي العصر الحاضر نشأت مجامع فقهيَّةٌ تضم علماء المسلمين، وتجتهد في الاستنباط والبحث؛ لتحقيق مقاصد الشَّريعة الغرَّاء.. ومنها: المجمع الفقهيُّ التابع لمنظمة المؤتمر الإسلاميِّ، والمجمع الفقهيُّ التابع لرابطة العالم الإسلاميِّ، ومَجْمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر، ولجان الفتوى التي يشترك العلماءُ في إصدارها، ولا ينفرد بها شخصٌ بعينه، مما يدل على حركةٍ اجتهاديةٍ واسعةٍ لا تقتصر على فقه المذاهب الأربعة، ولا تقف عند

---

(١) التفكير فريضة إسلامية للعقاد (ص ١٠٠، ١٠١) مرجع سابق.

القضايا القديمة، بل تتناول ما يستجد في حياة الناس في هذا العصر، كالمعاملات الاقتصادية ونقل الأعضاء من الموتى إلى الأحياء وغير ذلك مما يشغل الأذهان..

* * *

وهكذا تجد حُرِّيَّة الرَّأْي مجالها في الجانب الفقهيِّ مضبوطةً بضوابط الشَّريعة، وليست منطلقةً من الأهواء والنَّظَرات الذَّاتية، بمعزل عن فقه النُّصوص، والأخذ بالقواعد الشَّرعية. بل لابدَّ فيها من تحقيق الاجتهاد بقواعده الشَّرعية التي تحقِّق اليسر والسعة وتنفي الحرجَ والضَّرر.

* * *

رفض الاجتراء:

هذا وليس من حُرِّيَّة الرَّأْي ولا من الاجتهاد المقبول الجرأةُ على الفتوى بغير علم بحجَّةِ أنَّ هذا اجتهادٌ وحُرِّيَّةُ رأيٍ ينبغي أن تُتاح للجميع..

ذلك لأنَّ الاجتهاد من حقِّ من يملك أدواتِ الاجتهاد، ويستكمل شرائطَه المقرَّرةَ، كالعلم باللغة، ومعرفة أسباب النُّزول ومعرفة العام والخاص، والمجمل والمفصل، والمطلق والمقيَّد، ومعرفة السُّنَّة والتَّمييز بين الحديث الصحيح والضعيف والموضوع، ومعرفة القواعد الفقهية عند علماء أصول الفقه.. وتتفاوت درجات الاجتهاد ما بين مجتهد في مذهب من المذاهب الأربعة، أو مجتهد مطلق لا يتقيَّد بمذهبٍ، وفي كل الأحوال ليس من حقٍّ من فقد هذه الشروطَ أن يقتحم مجالَ الفتوى متذرعًا بحُرِّيَّة الرَّأْي وحق الاجتهاد.

وقد روى البخاريُّ في صحيحه بسنده عن عبد اللَّه بن عمرو ﷺ أنَّهُ سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إِنَّ اللَّه لَا يَنْـزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِم فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّون** »[(١)].

وفي باب الاعتصام عقد البخاريُّ بابًا بعنوان: باب ما كان النَّبي ﷺ يُسْأل مما لم ينـزَّل عليه الوحي فيقول: لا أدري، أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي ولم يقل برأيٍ ولا بقياس لقوله تعالى: ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ وقال ابن مسعود: سُئل النَّبي ﷺ عن الروح

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس (٢٦٢/٤) بشرح السندي.

فسكت حتى نزلت [١].

وروي في هذا الباب حديثٌ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: مرضتُ فجاءني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان، فأتاني وقد أغمي عليَّ، فتوضَّأ رسول الله ﷺ، ثم صبَّ وَضُوءه عليَّ، فأفقتُ فقلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي كيف أصنع في مالي؟ قال: فما أجابني بشيءٍ حتى نزلت آية الميراث [٢].

وليس هذا نهيًا عن الاجتهاد ولا سدًّا لبابه، ولكنه دعوةٌ إلى وفور الحظِّ من العلم ومعرفة مصادر الفتوى، فكلا الأمرين اللَّذَين ورد فيهما هذان الحديثان ليس فيهما مجال للاجتهاد. فمعرفة حقيقة الروح لا تُدركُ بالاجتهاد، ولهذا قال الحق سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

فلم يبين القرآن حقيقة الروح، لأنها فوق إدراك البشر وسر من أسرار الله في خلقه، فكيف يتأتى الاجتهاد في معرفة حقيقتها. وكذلك سؤال جابر ﷺ: كيف يصنع في ماله ولم تكن آية المواريث التي هي حكم الله بين عباده، قد نزلتْ بعدُ فكيف يطلب الاجتهاد في هذا الحكم؟!

ولكن المغزى في ذلك أنه لا يجوز التذرُّع بحُرِّيَّة الرَّأْي في الهجوم على الفتوى أو النظر في الأحكام الشَّرعيةِ بغير علمٍ ولا بيِّنةٍ، ولا قصد صالح ..

فقد كثر المجترئون على أحكام الشَّريعة الإسلاميَّةِ في هذا العصر كثرةً ظاهرةً، فمنهم من يطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة في الميراث بحجَّةِ مراعاة التَّطور، ولا يَعْلَمُ كثير من هؤلاء أن المرأةَ تأخذ أكثر من الرجل في خمس عشرةَ حالة قررها العلماء، ونكتفي منها بحالة واحدة ظاهرة جاء بها محكم القرآن تتضمَّن زيادةَ المرأةِ على الرِّجال كما تتضمن المساواةَ بينهما. وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾ [النساء: ١١].

فقد تضمنت هذه الآيةُ أنَّ البنتَ إذا انفردت، ولم يكن لها إخوةٌ ولا أخوات تأخذ نصفَ التَّرِكَة، بينما يأخذ « أبواه » أي: الجدّ والجدَّة لهذه البنت لكلِ واحدٍ منهما السُّدُسُ.

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٦٣).

(٢) المرجع السابق.

فالبنت في هذه الحالة تأخذ أكثرَ من أب المتوفَّى - وهو رجل - فتأخذ هي النِّصْفَ ويأخذ هو السدس!

كما تضمنت هذه الآيةُ مساواةَ هذا الأب لزوجته، أم المتوفَّى، حيث يأخذ كل منهما السُّدسَ، دون تفريقٍ بين الذكر والأنثى.

وقد عُقبت آيةُ الميراث بقول الحق سبحانه: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١].

وقد تعب الدعاة في بيان أن حصول الذكَر على ضعف نصيب الأنثى في حالة الإخوة والأخوات، ليس محاباة للذكر ولا حرمانا للأنثى، ولكن لأن الذكر يتحمل من الأعباء المادية والاجتماعية أضعاف ما تتحمله الأنثى، مما هو واقع مشاهد خلال العصور ..

ولكن المجادلين بالباطل لا يكفون عن المطالبة بتغيير الحكم الشرعي ومساواة الأنثى للذكر في الميراث في حالة الميت الذي يترك أولادًا ذكورًا وإناثًا، ويغفلون عن الحالات التي تتساوى فيها المرأة بالرجل أو تزيد عليه.

• ومنهم من يطالب تحت شعار الاجتهاد بتحريم تعدُّد الزَّوجات، وينسى أنَّ القرآن قد أباح هذا التعدد ولم يفرضه، وهو حلٌّ لكثير من المشكلات الاجتماعيَّة .. وإن كان المجتمع الغربي لا يبيح تعدد الزوجات، إلا أن واقعه المشاهد يسمح بتعدد العشيقات والصديقات حتى ليبلغ عددهن للفرد الواحد مئات دون نكير ولا اعتراض!

ولو ذهبنا نتتبع « الاجتهادات الخاطئة » والفتاوى الضالة المضلة ممن ليسوا أهلًا للفتوى لاحتجنا إلى مئات الصفحات، مما يخرج هذا البحث عن مجاله: فمِنْ مُنْكر للحدود الشَّرعية زاعمٌ أنَّها كانت تصلح للبيئة البدويَّة، ولا تصلح الآن في عصر الحضارة، وهذا كذبٌ صراح، وكفر مُخْرِج عن الملَّة إن لم يتب عنه قائله، ولنضرب المثل بحد القصاص الذي قال اللَّه فيه: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فقد زعم بعض الكتاب في المجتمعات الغربيَّةِ أنَّ هذا الحد لا يناسب الحضارة واستبدلوا به عقوبة السجن مدى الحياة .. ثم راع هذه المجتمعات التي ألغت عقوبةَ القصاص ما تفشَّى فيها من عدوان على الأنفس والأعراض والأموال دون رادع ولا خوف من العقاب ..، فما لبثت الولاياتُ المتَّحدةُ الأمريكيَّة أن أعادت عقوبة الإعدام للقاتل حتى تحمي الأنفس من الإزهاق بغير حق.

وفي المملكة المتَّحدة عاد التفكير إلى إعادة عقوبة الإعدام بعد أن تعرضت رئيسة الوزراء البريطانيَّة لمحاولة اغتيال بشعة، وبعد أن كثرت حوادث القتل والاغتصاب.

وإذا كان القوم في الغرب يراجعون أنظمتهم السياسيَّة والقانونيَّة؛ ليمدوا إليها يد التعديل كل حين.. كما يقول المؤرخ الإنجليزي « ويلز »: « إن مستحدثاتَنا السياسيَّة شأن مستحدثاتنا المنزليَّة والآلية بالضَّبط في حاجة إلى أن تمتدَ إليها يدُ التَّعديل المتواصل كلما نما العرفان والفهم » [1].

فإن الأمة الإسلاميَّةَ قد أكرمها اللّٰه سبحانه بشريعة مُحْكمة لا تحتاج إلى تعديل أو تصويب؛ لأنها حكم الحكيم الخبير: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

• فلا ينبغي اتخاذ حُرِّيَّة الرَّأْي في الاجتهاد ذريعة إلى الطعن في الدين والتشكيك في أحكام الشريعة.. لأنَّ من شروط الاجتهاد المقبول أن يكون وراءه إخلاصٌ للدين ومحبةٌ للخير وبحثٌ عن الحقيقة ..، لا أن يكون ستارًا لإثارة الشُّبهات وبثِّ السُّموم ..

ومن هنا قال الشاطبيُّ في كتاب الموافقات:

الاجتهاد الواقع في الشَّريعة ضربان: **أحدهما**: الاجتهاد المعتبر شرعًا، وهو الصادر عن أهله الذين اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر إليه الاجتهاد .. **والثاني**: غير المعتبر وهو الصَّادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه؛ لأن حقيقته: أنه رأيٌ بمجرد التشهِّي والأغراض وخبط في عماية واتِّباع للهوى، فكل رأي صدر على هذا الوجه فلا مِرْية في عدم اعتباره؛ لأنه ضد الحق الذي أنزل اللّٰه ... [2]

إنَّ حُرِّيَّة الرَّأْي تتجاوز حدودها إن هي أصبحت أداةً لتحقيق الأهواء والأغراض، أو صارت أداةً للهدم والفوضى والاضطراب.

* * *

(١) معالم تاريخ الإنسانية (ص ١١٧٧)، الطبعة الثالثة القاهرة (١٩٦٥م) مرجع سابق .

(٢) الموافقات للشاطبي (٩٣/٤). ط دار إحياء الكتب العربية، القاهرة بدون تاريخ.

الرأي في مجال الشورى

الشُّورى ساحةٌ لتبادل الآراء وتجاذب الأفكار والحوار البنَّاء الذي يهدف إلى جلاء الحقيقة والوصول إلى القرار الصحيح ..

وقد نصَّ القرآن على الشُّورى، وأمر بها رسولَ اللَّه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. كما وصف الحقُّ سبحانه المجتمع المسلم بأنه مجتمع الشُّورى، فقال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقد سُمِّيت السورةُ التي وردت فيها هذه الآية سورة الشُّورى.

بل إنَّ الشُّورى تأتي في علاقات الأسرة، كما جاء في قول الحقِّ سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. والفصال هو فطام الرضيع.

وقال البخاريُّ في كتاب الاعتصام من صحيحه: « باب قول اللَّه تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ وأن المشاورةَ قبل العزم والتَّبين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التَّقدم على اللَّه ورسوله. وشاور النَّبيُّ ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأْمته وعزم قالوا: أَقِمْ. فلم يَمِلْ إليهم بعد العزم وقال: « **لا ينبغي لنبيٍّ يلبس لأمته فيضَعُها حتى يحكم اللَّه** » وشاور عليًا وأسامة فيما رمى أهل الإفك عائشة فسمع منهما حتى نزل القرآن، فجلد الرَّامين ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكنْ حكم بما أمره اللَّه.

وكانت الأئمةُ بعد النَّبي ﷺ يستشيرون الأمناءَ من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وَضُح الكتاب أو السُّنَّة لم يتعدَّوه إلى غيره اقتداء بالنَّبي ﷺ. ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة فقال عمر: كيف تقاتل وقد قال رسول اللَّه ﷺ: « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، فَإِذَا قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا** » فقال أبو بكر: واللَّه لأقاتلن من فرقَ بين ما جَمع رسولُ اللَّه ﷺ، ثم تابعه بَعْدُ عمر، فلم يلتَفت أبو بكر إلى مشورة إِذْ كان عنده حكم رسول اللَّه ﷺ في الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، قال النَّبيُّ ﷺ: « **مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوه** ».

وكان القُرَّاء أصحاب مشورة عمر، كهولًا كانوا أو شبانًا، وكان وقَّافًا عند كتاب الله ﷿(١).

هكذا جمع الإمام البخاريُّ ﵀ في هذه الترجمة بين الأمر القرآني بالتزام الشُّورى وبين التطبيق العمليِّ في سنَّة رسول اللَّه ﷺ وسيرة صاحبيه أبي بكر وعمر ﵄.

وما دامت الشُّورى في قضية لها علاقة بالدِّين، فلابد أن يكون أهل الشُّورى هم « القُرَّاء » أي: حفظةُ القرآن، وأهل الفقه في الدِّين.

وإذا كانت في قضية من قضايا الحياة ومصالح النَّاس، فلا بد فيها من الرجوع إلى أهل الخبرة والتخصص.

ومن هنا شاور النَّبيُّ ﷺ في أمور الحرب، ففي غزوة بدر قال: « **أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ** » (٢).

قال ابن إسحق: فحدِّثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحُباب بن منذر ابن الجموح قال: يا رسول اللَّه: أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه اللَّه ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخر عنه، أمْ هو الرَّأي والحربُ والمكيدةُ؟ قال: « **بل هو الرَّأْيُ والحرب والمكيدة** » قال: يا رسول اللَّه فإن هذا ليس بمنزل، فامضِ بالناس حتى نأتيَ أدنى ماء من القوم منزلة، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ** » (٣).

وفي أمر الأسرى في بدر كان هناك اختلاف بين الصَّحابة وتشاور.

قال ابن كثير: وقد اختلف الصَّحابة في الأسرى أيقتلون أو يُفَادون على قولين: كما قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس وذكر رجلًا عن الحسن قال: استشار رسول اللَّه ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: « **إِنَّ اللَّه قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ** » قال: فقام عمر فقال: يا رسول اللَّه اضربْ أعناقهم. قال: فأعرض عنه النَّبي ﷺ قال: ثم عاد رسول اللَّه ﷺ فقال: « **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّه قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالأَمْسِ** » قال: فقام عمر فقال: يا رسول اللَّه اضربْ أعناقهم، فأعرض عنه النَّبي ﷺ ثم عاد النَّبيُّ، فقال

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام باب قول اللَّه تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢٧٢/٤) بحاشية السندي.

(٢) السيرة النَّبويَّة لابن كثير (٣٣٩/٢)، الطبعة الثانية ط مكتب القدس. القاهرة (١٤٢٨هـ).

(٣) المصدر السابق (٣٤٨/٢).

للناس مثلَ ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمّ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداءَ.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٨] الآية انفرد به أحمد (١).

وفي رواية لأحمد عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: « **مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الأَسْرَى** »؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستأنِ بهم لعلَّ الله أن يتوب عليهم، قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قرِّبهم فاضربْ أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرِمْه عليهم نارًا. قال: فقال العباس: قطعت رحمك!

قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئًا، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. قال: فخرج عليهم فقال: « **إِنَّ اللهَ لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللهَ لَيشدّ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وإن مَثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]. وإن مَثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]. وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]. أَنْتُمْ عَالَةٌ فَلَا يَنْفَلِتَنَّ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ** ».

قال عبد الله - ابن مسعود -: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام. قال: فسكت. قال: فما رأيتني في يومٍ أخوف أن تقع علي حجارةٌ من السماء من ذلك اليوم حتى قال: « إلا سهيل بن بيضاء » قال: فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

---

(١) السيرة النّبويّة لابن كثير (٢/٣٩٧) مرجع سابق.

وهكذا رواه الترمذيُّ والحاكم من حديث أبي معاوية وقال الحاكم: صحيح الإسناد [(١)].

ومغزى هذه الأحاديث أن النَّبِيَّ ﷺ قد شاور أصحابه في شأن الأسرى ولم ينفرد برأيه، ويا لها من كلمة رائعة!: « أَشِيروا عليَّ » تفتح المجال للرأي الصائب والتفكير الرشيد؛ لتصبح الشُّورى سمةَ الأمةِ الإسلاميَّةِ في كل عصورها، كما قال الحقُّ سبحانه ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ وهذا الأمر يأتي مطلقًا دون تقييد بقيد، فيشمل أمور الدِّين التي فيها مجال للاجتهاد وأمور الدُّنيا ومصالحها المشروعة.

• إن الإسلام يكره الاستبدادَ بالرَّأْي، ويجعل الشُّورى حِصنًا للمجتمع يستمع فيها إلى كل رأي وينتفع بكل فكر، حتى تصل الأمةُ إلى القرار الصحيح.

وفي غزوة الأحزاب كان هناك مجال للرأي في الشُّورى، فقد رُوِيَ أنَّ حفر الخندق كان رأيَ سلمان الفارسيِّ ﷺ، بعد أن استشار النَّبي ﷺ الناس، وكانت هذه مكيدةً لم تكن العرب تعرفها [(٢)].

وفي هذه الغزوة نفسها كانت مشاورة النَّبي ﷺ لبعض أصحابه، فقد قال ابن إسحق: فلما اشتدَّ على الناس البلاءُ، بعث رسول اللَّه ﷺ .. إلى عُيينة بن حصن والحارث بن عوف المُرِّي وهما قائدا غطفان وربيعة، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فيجري بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشَّهادة ولا عزيمة الصُّلح إلَّا المراوضة، فلما أراد رسول اللَّه ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السَّعدين، فذكر لهما ذلك فاستشارهما فيه.

فقالا: يا رسول اللَّه أمْرًا تحبه فنصنعه، أمْ شيئًا أمرك اللَّه به لابدَّ لنا من العمل به، أمْ شيئًا تصنعُه لنا؟.

فقال: « **بَلْ شَيءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إلَّا لِأَنِّي رَأَيتُ الْعَرَبَ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسرَ عَنْكُمْ مِنْ شوكَتِهِم إِلَى أمْرٍ ما** ».

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول اللَّه، قد كنا وهؤلاء على الشرك باللَّه وعبادة الأوثان لا نعبد اللَّهَ ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قِرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا اللَّه بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من

---

(١) السيرة النَّبويَّة لابن كثير (٣٩٩/٢) مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق (١٧٠/٣).

حاجة والله لا نعطيهم إلا السَّيف حتى يحكم اللَّهُ بيننا وبينهم.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: « **أنت وذاك** »، فتناول سعدٌ الصَّحيفةَ، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليَجْهدوا علينا! (١).

فقد كان للشُّورى في هذا الموقف الخطير أثرُها في صمود المسلمين أمام أعدائهم وصبرهم على الجوع والحصار..

ومع أن النَّبي ﷺ كان يرى كسر شوكة الأعداء بهذا الاتفاق الذي يخفِّفُ الحصار على المسلمين المجَهَدين في غزوة الخندق.. إلَّا أنه وافق سعدَ بن معاذ ﷺ على رأيه واستصوبه وعمل به.

وكان ذلك كله تمارين على حُرِّيَّة الرَّأْي في مجال الشورى وتقاليد يضعها المجتمع المسلم لكل عصوره؛ ليعلن أنَّ المجال مفتوحٌ أمام كل رأيٍ سديدٍ..

ولهذا كان اهتمام الإسلام أن يكون الرسول ﷺ قدوةً لأصحابه، بل قدوة لكل من يلي شيئًا من أمر هذه الأمة، فكان الرسول ﷺ كثيرَ المشاورة لأصحابه، وكان حريصًا على أن يستمعَ إلى الآراء، وأن يسمح لكل مؤمن أن يقول كلمته، بحثًا عن الحق وابتغاءً للرَّشاد.

• وفي غزوة الحديبية شاور النَّبي ﷺ أصحابه. فقد روى البخاريُّ في صحيحه بسنده عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يزيد أحدهما على صاحبه قال: خرج النَّبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحُلَيفة قَلَّد الهَدْي، وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعةٍ. وسار النَّبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيشَ، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت ومانعوك. فقال النَّبي ﷺ: « **أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَونَ أَنِ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِم وَذَرَارِي هَؤلَاءِ الَّذينَ يَصُدُّونَنَا عَنِ الْبَيتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّه ﷻ قَدْ قَطَعَ عَينًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ؟** ». فقال أبو بكر: يا رسول الله قد خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتلَ أحدٍ ولا حَرْب أحدٍ، فتوجَّه له، فمن صدَّنا قاتلناه. قال: « **امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّه** » (٢).

---

(١) السيرة النَّبويَّة لابن كثير (١٨٧/٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية (٢٣٨/٢) ط الأميرية.

فلا يبقى شكٌّ في أنَّ الإسلام يفتح مجال الشُّورى للرأي السَّديد والفكر الرَّشيد فينتفع بالطَّاقات والمواهب ولا يحرِم المجتمعُ من نفعها!

الشورى في عهد الخلفاء:

وقد حرص الخلفاء الرَّاشدون - رضوان اللَّه عليهم - على التَّمسك بالشُّورى فقد روى ابن القيم عن التابعيِّ الجليل ميمون بن مهران أنه قال:

« كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكمٌ نظر في كتاب اللَّه تعالى، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به .. وإن لم يجد في كتاب اللَّه نظر في سنَّة رسول اللَّه ﷺ فإن وجد ما يقضي به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل النَّاسَ: هل علمتم أنَّ رسول اللَّه ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربَّما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا .. فإن لم يجدْ سُنَّة سنَّها رسولُ اللَّه جمع رؤساء الناسِ فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به، وكان عمر يفعل ذلك » [١].

وهذه صورةٌ من صور الشُّورى في حياة الأمةِ الإسلاميةِ بعد وفاة النَّبي ﷺ، وذلك في اختيار عثمان بن عفان ﷺ خليفة على المسلمين بعد استشهاد عمر بن الخطاب.

فقد روى البخاريُّ في صحيحه - في كتاب الأحكام بسنده عن الزُّهْريِّ أن حميد ابن عبد الرحمن أخبره أن المِسْور بن مَخْرمة أخبره أن الرَّهْط الذين ولَّاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا قال لهم عبد الرحمن بن عوف - لستُ بالذي أنافسكم على هذا الأمر ولكنكم إن شئتم اخترتُ لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما ولَّوْا عبد الرحمن أمرهم، فمال الناسُ على عبد الرحمن حتى ما أرى أحدًا من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه، ومال الناسُ على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي، حتى إذا كانت الليلةُ التي أصبحنا منها فبايعْنا عثمان، قال المِسْور: طرقني عبدُ الرحمن بعد هَجْع من اللَّيل فضرب البابَ حتى استيقظت، فقال: أراك نائمًا فواللَّه ما اكتحلتُ هذه الليلة بكبير نوم، انطلقْ فادعُ الزُّبير وسعْدًا فدعوتهما له، فشاورهما، ثم دعاني فقال: ادْعُ عليًا فدعوته فناجاه حتى ابهرَّ الليل [٢]، ثم قام عليٌّ من عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من عليٍّ شيئًا، ثم قال: ادعُ لي عثمان فدعوته فناجاه حتى فرَّق بَيْنهما المؤذن بالصبح، فلما صلَّى الناسُ الصبح واجتمع أولئك الرهطُ عند المنبر،

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٥١/١). (٢) إبهار الليل: انتصف.

فأرسل إلى مَنْ كان حاضرًا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد وكانوا وافوْا تلك الحجّة مع عمر، فلما اجتمعوا تَشهَّد عبدُ الرحمن ثم قال:

أما بعدُ! يا عليّ إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يَعْدلون بعثمان فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلًا. فقال: أبايعك على سُنَّة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناسُ المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون (١).

هكذا كانت الشُّورى وسيلةً فعَّالةً في كبار الأمور في حياة المجتمع المسلم.

يقول الشيخ محمد الغزاليّ - يرحمه الله -:

« وكان الشأن العام في عهد أبي بكر وعمر: التحرِّي الشديد فيما يُرْوَى عن النَّبِي ﷺ، والنزوع في الشئون العامة إلى استشارة كبار الصَّحابة المقيمين في دار الخلافة والمعروفين بدقة الرَّأي وعمق النظر في إدراك المصالح وحسن الفهم لروح الشَّريعة وجودة التطبيق على القواعد العامة. وكانوا إذا أجمعوا على رأيٍ وجب تنفيذه .. وبذلك كان أخذ الرَّأْي بطريق الشُّورى مصدرًا جديدًا ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نصَّ فيه من كتاب أو سنَّة، أو فيما فيه نصٌّ محتمل .. » (٢).

ويقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر سابقًا - يرحمه الله -:

وإذا كان الحاكم وكيلًا عن الأمة .. كان لزامًا عليه أن يستعينَ بذوي الرَّأْي ممن تعرفهم الأمة بآثارهم وتمنحهم ثقتها وتنيبهم عنها في نظمها والهيمنة على حياتها وسياسة أمورها التي لم يردْ فيها نصٌّ قاطع .. وهؤلاء هم أهل « الإجماع » الذين يكون اتفاقهم حجَّةً يَجب النزول عليها والعمل بمقتضاها ما دام الشأنُ هو الشأن والمصلحة هي المصلحة، فإذا تغيَّر وَجْه المصلحة بتغير المقتضيات كان عليهم أو على من يَخْلفهم إعادة النظر على ضوء ما حدث من أمور، وحلَّ الاتفاق اللاحقُ محلَّ الاتِّفاق السَّابق.

ومعرفة رأي أولئك الذين اختارتهم الأمةُ والسَّير على هداه أصلٌ من الأصول التي تقوم عليها الدولةُ الإسلاميَّةُ وهو المسمى بالشُّورى ..، وهي أساس الحكم الصالح وهي السبيل إلى تبين الحق ومعرفة الآراء النَّاضجة، وقد جعلها القرآنُ عنصرًا من العناصر التي تقوم عليها الدولة الإسلاميَّةُ ..

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام باب كيف يبايع الإمام الناس (٢٤٦/٤) بحاشية السندي.

(٢) مائة سؤال عن الإسلام للشيخ محمد الغزالي (٢٩٢/١). الطبعة الثالثة دار ثابت القاهرة (١٤٠٧هـ).

وفي كتاب اللّٰه سورةٌ عُرِفَت باسم « سورة الشُّورى »؛ لأنها تقرر أنَّ الشُّورى عنصرٌ من عناصر الشَّخصية الإيمانيَّة الحقَّة وحسن التضامن بالشورى والإنفاق في سبيل اللّٰه، سبيل الانتصار على البغي والعدوان، وذلك كما في قوله تعالى في تلك السورة: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨، ٣٩].

وقد أمر اللّٰه نبيَّه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما يطرأ من شئونٍ، رَبْطًا للقلوب وتقريرًا لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من حسن التضامن في سياسة الأمور، وذلك في قوله من سورة آل عمران: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وإن الرسولَ ﷺ كان كثيرًا ما يشاور أصحابه فيما لم ينزل عليه فيه الوحيُ، وكان في بعض الأحيان يَعْدل عن رأيه ويأخذ برأي الصَّحابة، ومِنْ بَعْد الرسول ﷺ خلفاؤه رضوان اللّٰه عليهم، فإنهم أخذوا بمبدأ الشورى؛ لإيمانهم بأنها أصل في إدارة الجماعة الإسلامية، وتحرِّي الحق الموافق للمصلحة من ألزم الواجبات على صاحب الأمر، وإنَّ عمر كان يجمع كبار الصحابة لأخذ رأيهم، بل كان يمنعهم من الخروج من المدينة لمكان حاجته إلى استشارتهم.

على أن الشُّورى لم يضع لها الإسلام نظامًا خاصًّا، وإنما هو النظام الفطريُّ وذلك لأنها من الشئون التي تتغير فيها وجهةُ النظر بتغيُّر الأجيال والتَّقدم البشريِّ، فلو وُضِع نظامٌ خاصٌّ في عهد الرسول ﷺ لأصبح أصلًا لا يحيد عنه أحدٌ، وفي ذلك من الحرج والضِّيق ما فيه، فالشُّورى من الأمور التي تُركت نُظُمُها دون تحديد، رحمةً بالناس غير نسيان، توسعة عليهم وتمكينًا لهم من اختيار ما يُتاح للعقول وتدركه البشريةُ الناضجةُ ..

على أنَّ من مقومات الشورى: الحُرِّيَّة التامة في إبداء الرَّأْي، ما لم تمسّ أصلًا من أصول العقيدة أو العبادة ... [(١)].

بين الشورى والديمقراطية:

يحلو لبعض الكتَّاب أن يؤكدَ أنَّ الشُّورى التي جاء بها الإسلام هي « الديمقراطية » التي يتبناها المجتمع الغربيُّ ..

مع أن الفارق كبيرٌ بين الشُّورى الإسلاميةُ والديمقراطية ذاتُ الأصل اليونانيّ والتي

---

(١) الشورى في الإسلام للشيخ محمود شلتوت – مجلة الأزهر، عدد صفر (١٣٨٠هـ)، يوليه سنة (١٩٦٠م)، المجلد الثاني والثلاثون، الجزء الثاني.

تبنّاها المجتمع الغربيّ خاصّة في هذا العصر.

ولو رجعنا إلى ما قاله الفيلسوف اليونانيّ « أفلاطون » في كتابه الشهير « الجمهورية » عن الديمقراطية وعيوبها ومآلها لعلمنا أنَّ هذه الديمقراطيةَ التي تسمى « حكم الشعب للشعب » ليست هي العلاج الحاسم الذي يؤدِّي إلى حلِّ المشكلات التي تعانيها الإنسانيةُ في كل زمان.

فأفلاطون في جمهوريته يرى أن الحكمَ الاستبداديَّ يأتي نتيجةً لتحول الديمقراطية، فالديمقراطية تنجب الحكم الاستبداديَّ، كما تنجب الأوليجاركيةُ [1] الديمقراطيةَ، فالأوليجاريكية اعتبرت الثروةَ الزائدةَ خيرًا أسمى ..، وهذا هو الذي هدمها .. والديمقراطيةُ يهدمها تعطُّشها الذي لا يرتوي للشيءِ الذي اعتبرته الخيرَ الأسمى، وهو الحُرِّيَّة .. ففي المدينة الديمقراطية يقال لك: إن الحُرِّيَّة أجملُ ممتلكاتها، وإنها المقام الوحيد المناسب للرجل الحر بطبعه، لهذا يحق أن أقول: إن التعطشَ الذي لا يرتوي لشيء واحد دون اعتبار لأي شيء آخر يحوِّل الديمقراطية، كما حوَّل « الأوليجاركية » ويمهِّد الطريق للحكم المستبد، كشيء مسلم به.

فحينما تكون المدينة الديمقراطيةُ المتعطِّشة للحُرِّيَّة تحت رئاسة جماعةٍ من الأشرار شاربي « الأنخاب » الذين يعبُّون نبيذ الحُرِّيَّة صرفًا، إلى أبعد من الحد المطلوب، فإنها تعد حكامها « أوليجاركيين » ملعونين وتطاردهم بناء على هذه الدعوى، ما لم يصبحوا جدَّ خاضعين لها ويزودوها بالحُرِّيَّة في جرعات سخيَّة ..

فالحُرِّيَّة الزائدةُ عن الحدِّ يحتمل أن لا تنتهي إلى شيء غير العبودية الزَّائدة في حالة الدول، كما هي في حالة الأفراد.

ففي جميع الاحتمالات إذن، تضع الديمقراطية، والديمقراطيةُ وحدها أساس الحكم المستبد، وبعبارة أخرى: الحُرِّيَّة الواسعةُ تضع الأساس لأثقل أنواع العبودية وأشدها شراسة [2].

• ويضرب أفلاطون أمثلةً لفساد الديمقراطية في سلوك الأفراد: « فالأب مثلًا يعتاد أن

---

(١) الأوليجاركية نظام مؤسس على خصائص التملك. يحكم فيه الأغنياء وليس فيه للفقراء نصيب. الجمهورية (ص ١٣٦).

(٢) جمهورية أفلاطون ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد (ص ١٤٥ - ١٤٧). الطبعة الثالثة - دار المعارف القاهرة (١٩٦٩م).

يسلك مسالك الأطفال، ويقف كاسفَ البال أمام أبنائه، ويسلك الابنُ مسلك الأب، ويكفُّ عن احترام والديه أو الخوف منهم؛ ليثبت حريته..

والمدرس في هذه الظروف يخشى طلَّابَه ويتملَّقُهم، وبصفة عامة يحاكي الصغار الكبار ويناقشونهم في القول والعمل، والكبار ينزلون على النكتة والدعابة تقليدًا للصغار؛ ليتفادوا بمحض اختيارهم تهمة العبوس والسيطرة، ويصل الشعب إلى الحد الأقصى من الحُرِّيَّة..، فإذا وضعنا كل هذه الأشياء معًا تكون النتيجة أن تصبح نفوسُ المواطنين حسَّاسةً، فتزورّ وتفقد صبرها لأقل أعراض العبودية وتنتهي بالاستخفاف بالقوانين ذاتها سواء كانت تشريعًا أو عرفًا، وتصبح السيادة مجرد ظل.. [1].

• هذا هو تأمل الفيلسوف اليونانيّ أفلاطون للنظام الديمقراطيّ، الذي هو أساسٌ صادر من الفكر اليونانيّ والممارسة اليونانيَّة.. فما بال الذين يلهجون بذكرِ الدِّيمقراطية صباح مساء، ويزعمون أن مهمتهم نشرها في العالم،.. بينما هم أبعد ما يكون عن الإيمان بالحُرِّيَّة أو قبول تبعاتها..

وهل يمكن أن تُنشر الديمقراطيةُ في العالم بالجيوش الجرَّارة والسِّلاح الرهيب والقسوة المطلقة في تعذيب من يقع في أيديهم، وهم يقتحمون بلاد الآخرين بجيوشهم دون أدنى حق لهم في ذلك؟!

أو ليس من قبيل السخريَّةِ أن توصف « إسرائيل » بأنها الدولة الديمقراطيةُ الوحيدة في الشرق الأوسط؟!

وهل من الديمقراطيةِ هدمُ البيوت وقتل النساء والأطفال واحتلال أراضي الغير وعدم الإذعان لأي قرار من قرارات الشرعيَّة الدوليَّة؟!

إن الدولَ المعاصرةَ التي تدعي الالتزام بحقوق الإنسان، ومنها: حقُّه في الحُرِّيَّة، هي أكثر الدول انتهاكًا لحقوق الإنسان وأشدها قسوة في التنكيل والعقاب!

إذن فليس مما يشرف الإسلام أن يقال إنه دين « ديمقراطي » مجاراة للموجة السائدة من أن الديمقراطية هي الحل السحري لكل مشكلات البشر!

إن المقولة الرئيسية في الديمقراطية: أنَّ الأمة مصدر السلطات وأنها تشرِّع لنفسها ما يتفق مع مصالحها.

---

(١) المرجع السابق (ص ١٤٦).

بينما المجتمع الإسلاميُّ يتَّبع شريعة مُحْكمة جاء بها القرآن وأوضحتها السُّنَّة ..

وينبغي ألا يكون هناك جدالٌ في أن التشريع الإسلاميَّ مردُّه إلى اللَّه سبحانه فيما جاء في كتابه وفيما صح عن سنة رسوله ﷺ بدليل قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]. وقوله سبحانه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

وقوله عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

وآيات الحكم في القرآن تقطع بأن مرجعه إلى اللَّه وحده، كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]. وقوله سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالشَّريعة هي حكم اللَّه لعباده فيما أوحاه إلى رسول اللَّه ﷺ وفيما بيّنه الرسول في سننه، أما الفقه في استنباط الأحكام فليس شرعًا بل هو اجتهاد قد يصيب وقد يخطئ.

فأيُّ حرج على المسلم أن يعتقد أن مردّ التشريع في المجتمع الإسلاميِّ إلى اللَّه سبحانه وحده؟! وأيُّ صلة بين هذا الاعتقاد وبين زعم « باباوات » أوربا في العصور الوسطى أنهم يحملون سلطة إلهيَّةً وأنَّهم يمثلون اللَّه - سبحانه - في الأرض كما يزعم بعض الذين يجادلون في هذه القضية الواضحة؟

نتائج الديمقراطية:

إن نتائج الديمقراطية التي تجعل التَّشريع للصفوة الممتازة المنتخبة في المجتمعات المتحضِّرة ليست بعيدةً عن التصور ولا خافية على التأمل، فهذه « دساتير » تعلن تضعها لجانٌ ثم تُلْغَى بعد حين .. وتنظيمات تتخذ ثم تعدل أو تمحى وتحوَّل من النقيض إلى النقيض.

وها هي نتائج الديمقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية مثلًا، وكيف تتم فيها لعبة « الأصوات » التي تتولاها منظماتٌ رأسماليةٌ متخصصةٌ، والتي قال عنها « ويلز » في كتابه « معالم تاريخ الإنسانية »: « وكانت نتيجة الطرائق الصُّلبة التي كانوا يستعملونها: أن أصبح نظامهم السياسي فريسةً محقَّقةً لأجهزة الحزب الكبير التي سلبتها الديمقراطيةُ الأمريكيةُ نصف حريتها ومعظم روحها السياسية وأصبحت السياسة حرْفة وضيعة جدًّا، وتحكُّم المسعى الخاص في كثير من الشئون العامة؛ لأنَّ الفساد السياسيَّ جعل المسعى

الجماعي أمرًا مستحيلًا »[١].

إن واقع الدِّيمقراطية الغربية يقر انتهاكَ الحرمات واستباحةَ الحقوق وقتل الشعوب واغتصاب الأوطان سواء بسواء.. الكل يدَّعى الديمقراطية ويتمسح بها، ويجعل الأمة مصدرًا للسلطات بزعمه، وما هي إلا الأهواء الجامحةُ والطغيان الذي يَلْبس مسوح الإصلاح ويتشدق بكلمات الحُرِّيَّة والعدل والمساواة وهو منها بعيد بعيد[٢].

• وهناك كاتب أوربيٌّ كشف خداع ادِّعاء الديمقراطية عن طريق الاقتراع وصناديق الانتخاب..بينما هي لعبةٌ رأسماليةٌ تحرِّكُها الأطماع والمنافع.

فقد نقل الدكتور محمد مندور في كتيبه المسمى « الديمقراطية السياسية » عن أحد أساتذة جامعة « السوربون » الفرنسية وهو: « البيريابيه » قوله في كتاب صغير رائع بعنوان: « تاريخ إعلان حقوق الإنسان »: إن رجال المال يضعون أيديهم على الصحف باسم حُرِّيَّة الصحافة، وذلك إما بشرائها، وإمَّا السيطرة عليها بمنحها الإعلانات التي لا تستطيع أن تعيش بدونها أو حرمانها منها، **وعندما يمتلكون هذا السِّلاح الخطيرَ تراهم يستعملونه بطرقٍ ثلاث:**

أولاها: أن ينظموا حملات سباب وتشهير ضد رجال السياسة الذين يرفضون طاعتهم وهناك وريقاتٌ خاصَّة « صحف » مخصصة لهذه الغاية.

وثانيها: اتِّخاذ التدابير اللازمة؛ لكي تفوز الحكوماتُ المطيعة، بتلك الثقة التي تنجح بفضلها في عقد القروض، وأمَّا الحكومات العاصية فمآلها إلى الاندحار أمام الذعر الاقتصاديِّ المنظَّم.

وأخيرًا تأتي الطريقة الثالثة وهي أخطرها جميعًا إذ نرى الصحافةَ الكبيرة المعدة إعدادًا فنيًّا قويًّا تبسط تأثيرها المباشر على الرَّأْي العام أي على الناخبين، وبفضل الأُخبار المغرضة أو الكاذبة تملي على جانب كبير من الرَّأْي العام اتجاهات تفكيره، وبذلك نرى الملايين المضلَّلين يخدمون على غير وعي منهم ألاعيب السيطرة المالية وهم يعتقدون في سذاجةٍ أنهم يخدمون المصلحة العامة.

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية لويلز، الجزء الرابع (ص ١٧٨) مرجع سابق.

(٢) يراجع كتاب الحقائق الغائبة عمن يرفضون تحكيم الشريعة للدكتور مصطفى عبد الواحد (ص ٣٦ – ٤٠) – نشر دار الصحوة – القاهرة (١٤١٤هـ – ١٩٩٤م).

وهكذا يتيقن البصر أن النظام الاقتصاديَّ الحالي يتضمن اعتداءً يوميًّا على وثيقة حقوق الإنسان .. وتنص وثيقةُ حقوق الإنسان على أنَّ الأمةَ هي مصدر كل سلطة وأنَّ أي هيئة أو فرد لا يستطيع أن يزاول سلطة لا تصدر عنها، ومع ذلك فإن سيادةَ الأمة تحيطها كل يوم قوةُ الاحتكار وسلطة رؤساء الاحتكار، ولا تصدر بأي نحو عن الأمة. كما تنص وثيقة حقوق الإنسان على أنَّ حُرِّيَّة التعبير عن الأفكار حقٌّ من أثمن حقوق الإنسان، وأنَّ كل مواطن يستطيع بناء على ذلك أن يتكلمَ ويكتب ويطبع في حُرِّيَّة، ومع ذلك فإنَّ الإقطاعيِّين الجددَ قد أخذوا - في الواقع - يضعون أيديهم على وسائل التعبير عن الأفكار [١].

* * *

وفي كتاب « الديمقراطيَّة الأمريكيَّة .. التاريخ والمرتكزات » وهو مجموعة دراسات بعنوان: « أوراق الديمقراطية » نشرتها وزارة الخارجية الأمريكية، حديثٌ عن تأثير رجال الأعمال في العملية السياسية والمجالس التشريعية تحت عنوان: « الأعمال »: يتفق معظم العلماء على أنَّ « الأعمال » تلعب دورًا أساسيًّا في مضمار السياسات الأمريكية، فإذا كانت معظمُ الشركات المساهمة تستمد اعتبارَها من أهمية الدور الذي تلعبه في الاقتصاد الأمريكي، فإن الموظفين الرسميين المنتخبين لإدارة اقتصاد الدولة يخشون في أحيان كثيرة أن تُلحقَ السياسات المعوقة للأعمال الضرر بأدائهم.

• من جهةٍ أخرى تُستخدم « الأعمال » كأدوات ضغط مباشرة لاكتساب النفوذ، فالشركاتُ متعددة الجنسيةِ توظِّف مواردَها الهائلة؛ لتحقيق أهدافها السياسية بحكم عضويَّتِها في جمعيات تجاريَّة متعددة، تعكس نظر القطاع الاقتصاديِّ الذي تمثله في العملية السياسيَّةِ، خاصَّة، وأنها تقوم بدعم مجموعة من الجمعيَّات التي ينضوي تحت لوائها عدد كبير من الهيئات الخِدْميّة مثل الجمعية القومية للمنتخبين، وغرفة التِّجارة الأمريكية التي تتحدث باسم مجتمع الأعمال بأكمله. أمَّا الشركات الفرديَّة فتؤثر مباشرة على أعضاء المجالس التشريعيَّة عن طريق مساهمتها في دفع ملايين الدولارات اللازمة؛ لتسديد نفقات حملات المرشحين (لهذه المجالس) الذين تؤيدهم [٢].

---

(١) الديمقراطية السياسية للدكتور محمد مندور (ص ٤٤ - ٥١). ط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (١٩٩٥م).

(٢) الديمقراطية الأمريكية ترجمة حسن عبد ربه المصري (ص ١٥٠) - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٥).

• وهكذا تتأكد سيطرة الاقتصادِ على السياسة، ويتَّضح أنَّ الديمقراطيةَ رهينةٌ بإرادة رجال الأعمال وأصحاب الشركات الضخمة، وكذلك الصحافة وحُرِّيَّة التعبير لا تستطيع أن تخرج عن إرادة هؤلاء الرأسماليين المتحكمين في الاقتصاد والسياسة على السواء..

وتزيد هذه الدراساتُ الأمريكيَّةُ الأمر وضوحًا، فتقول تحت عنوان: « مجموعة مصالح حكومات الولايات والحكومات المحلية »: « هناك فئةٌ أخرى من مجموعات أصحاب المصالح التي تمثل وحدات في حكومات الولايات والحكومات المحلية تسعى للتأثير على أعضاء الهيئة التشريعيةِ بغرض تحقيق ما تهدف إليه من مكاسب على المستوى القومي » (١).

فليس في الأمر حُرِّيَّة ولا ديمقراطيةٌ ولا تحقيقٌ لإرادة الشعب، بل هو سعي إلى تحقيق المصالح الخاصَّة للجمعيات والمجموعات المختلفة، سواء كانت اقتصاديَّةً أو سياسيَّةً..

• فلا ينبغي أن نخدع أنفسنا، أو نزهد في تراثنا ومقوِّمات وجودنا مجاراة لهؤلاء الذين خلت قلوبهم من الرحمة والشفقة على الإنسانيَّةِ ولا يبالون بضياع حقوقِ الشعوب ونصرة الباطل والعدوان على المقدسات، وهم مع ذلك يلهجون بالديمقراطيَّة ويرون أنهم حماتُها والدُّعاة إليها.

* * *

وقد تحدث كتابٌ كثيرون عن عيوب الديمقراطيةِ بتطبيقاتِها المشاهدة في هذا العصر فقال أحدهم: « لا تخلو الدِّيمقراطية حتى اليوم من عيوب أهمها: رياءُ المرشَّحين وخداعهم للنَّاخبين بوعود لا تُوفَّى، كما أن الأغلبية التي تقوم عليها الديمقراطية ليست بطبيعتها على صواب، فهي تعتمد على تصويت أغلب أعداد من الأفراد الذين هم غالبًا ليسوا على درايةٍ كافيةٍ أو عميقةٍ بطبيعة المشكلات وأولوياتها » (٢).

كل هذا الخداعِ والرِّياء باسم الديمقراطيَّة شيء، والشُّورى التي جاء بها الإسلام شيء آخر.. يقول صاحب كتاب « الشُّورى لا الديمقراطية »:

« وفرق هام آخر بين ميزان الشورى في الإسلام وميزان الديمقراطية هو النظرة إلى المسئول

---

(١) المرجع السابق (ص ١٥٢).

(٢) مشكلات القرن الحادي والعشرين. والعلاقات الدولية بقلم يوسف شرارة (ص ١٥٢). القاهرة مشروع الألف كتاب الثاني (١٩٩٦م).

والنظرة إلى المسئولية والنظرة إلى الصَّلاحيات والمسئوليات والموازنة بينها وأسس ذلك كله، ففي الديمقراطية تظل المسئولياتُ والصلاحياتُ أمرًا يقدِّره كلَّه الشعبُ أو من يدَّعي تمثيل الشعب. لا تنبع المسئوليات والصلاحيات إلا من جهدٍ بشريٍّ محض ومن تجربة بشرية فقط، معزولة كلَّ العزل عن الإيمان بالله واليوم الآخر منفصلة عن ذلك منبتَّة عنه.

أما في الإسلام فإن أساسَ الصَّلاحيات والمسئوليات وأساس الموازنة بينها ومنزلة المسئول وحدوده ومكانته تنبع كلُّها نَبْعًا خالصًا نقيًا من الإيمان بالله واليوم الآخر، من عقيدةٍ ودينٍ وإيمانٍ وإحسانٍ ومنهاجٍ ربَّاني متكامل، حقّ مفصَّل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إن هذا المنهاجَ الربانيَّ هو الذي يحدد قواعد وأسس المسئوليات والصلاحيات وأسس الموازنة بينها ومنزلة المسئول وحدوده » (١).

وفي رسالة موجزة بعنوان: نظرية الإسلام السياسيَّة « يقول كاتبها: » والأمور تقضي في هذا المجلس أي: مجلس الشورى بكثرة آراء أعضائه في عامَّة الأحوال، إلا أنَّ الإسلام لا يجعل كثرة العدد ميزانًا للحق والباطل: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

فإنه من الممكن في نظر الإسلام أن يكون الرجلُ الفرْد أصْوبَ رأيًا وأحدَّ بصرًا في مسألةٍ من سائر أعضاء المجلس، فإذا كان الأمرُ كذلك، فليس من الحقِّ أن يُرْمى برأيه؛ لأنه لا يؤيده جمٌّ غفير، فالأمير له الحقُّ أن يوافق الأقلية أو الأغلبية في رأيها، وكذلك له أن يخالف أعضاءَ المجلس كلهم ويقضي برأيه ..

ولا ينتخب للإمارة أو لعضوية مجلس الشُّورى أو لأيِّ منصب من مناصب المسئولية من يرشِّح نفسه له أو يسعى فيه سعيًا ما، فإنَّ النَّبي ﷺ قال: « **إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي هَذَا الْعَمَل أَحَدًا سَأَلَهُ أَو حَرِصَ عَلَيهِ** » (٢). وإنه ليس في حدود الإسلام محل للترشيح للمناصب والدعايات الانتخابية أصلًا. ومما يمجُّه الذوقُ الإسلاميُّ وتأباه العقليةُ الإسلاميةُ أن يقوم لمنصب واحد اثنان أو ثلاثة أو أربعة من طلابه، فَينْشُرون كلٌّ واحد منهم خلاف الآخر نشراتٍ تبكي لها المروءةُ ويندى لها جبينُ الشَّرف الإنسانيِّ، ويعقدون حفلاتٍ لمدح

---

(١) الشورى لا الديمقراطية للدكتور عدنان رضا النحوي (ص ٥٥). دار الصحوة – القاهرة – الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م).

(٢) متفق عليه.

أنفسهم والطعن فيمن سواهم، يستخدمون الصُّحف والجرائد للدعاية استخدامًا، ويغرُّون أصحاب الأصوات بأنواع من الحيل المخجلة، ويطمعونهم في المال، وتجرى سياراتهم ليل نهار؛ لتسفيه الناس، ثم ينجح منهم من كان أكثرهم كذبًا ومَيْنًا [1]، وأدْهاهم تلفيقًا وتزويقًا ومن كان أشدهم إسرافًا في المال..

وفي مجلس الشورى الإسلامي لا يمكن أن ينقسم أهله جماعات وأحزابًا، بل يُبْدي كلُّ واحد منهم رأيه بالحق بصفته الفردية، فإنَّ الإسلام يأبى أن يتحزَّب أهل المشورة ويكونوا مع أحزابهم، سواء كانوا على حقٍّ أو باطلٍ، وإنَّ الرُّوحَ الإسلاميَّ لا يدعهم يَجْرون في تيار العصبية الحزبية، بل يطلب منهم أن يدوروا مع الحقِّ حيثما كان، ولا يذهبوا إلى غير الحق أبدًا، وإن وجدوا اليوم رأيَ واحدٍ منهم حقًّا وصوابًا فليكونوا معه، وإن وجدوا رأيَ ذلك الرجل نفسه في مسألةٍ أخرى في الغد خلافًا للحقِّ فليعارضوه [2].

● وقد يتصوَّر البعضُ أن تكوين الأحزاب هو طريق الديمقراطيةِ، على نحو ما يرون في الأنظمة السياسية الغربيَّة التي تتصارع فيها الأحزابُ للوصول إلى الحكم، فتارةً يغلب هذا الحزب وتارةً يغلب ذاك.. ففي بريطانيا حزب العمَّال وحزب المحافظين وحزب الأحرار، وفي أمريكا الحزب الديمقراطيُّ والحزب الجمهوريُّ.

وهذا أمرٌ لا يغضُّ من قيمة الشُّورى الإسلاميَّةِ التي تعتمد على العلم والخبرة وعمق التَّفكير.. وليست على الأحزاب والتَّكتُّلات. يقول صاحب كتاب « مشكلات القرن الحادي والعشرين »: « بداية نقول: إننا لا نعتبر تعددَ الأحزاب في حد ذاته دليلًا على وجود الديمقراطية وممارستها. حتى إذا لم توجد القوانين التي تحدُّ من الحُرِّيَّة في تكوينها. كذلك فنحن لا نعتبر قيام منابر مختلفة أو صحف أو كتاب مختلفي الفكر والاتجاه دليلًا على الديمقراطية ..، فتعدد الأحزاب وتعدد الكتابات أمرٌ طبيعي لتعدد الأفراد تكوينًا وفكرًا، وليس السماح بظهور ذلك بأيِّ قدر يعتبر ممارسة للديمقراطية، ولا يتجاوز هذان الأمران: (الأحزاب وحُرِّيَّة النشر) مجرد كونهما مظهرًا للديمقراطية » [3].

---

(١) المين: الباطل والكذب.

(٢) نظرية الإسلام السياسية لأبي الأعلى المودودي (ص ٤٥ – ٤٧) القاهرة – مكتبة اقرأ – (٢٠٠٣م).

(٣) مشكلات القرن الحادي والعشرين (ص ١٥١) مرجع سابق.

قضية الأحزاب:

وهناك بحثٌ علميٌ وجيزٌ بعنوان: « الأحزاب السياسية في الإسلام » للشيخ صفيٌ الرحمن المباركفوري، فيه استعراضٌ لآراء الذين جوّزوا قيام أحزابٍ في المجتمع الإسلامي تعبيرًا عن الاختلاف في الرَّأي، والذين منعوا ذلك لما فيه من فُرْقة وتنازعٍ واختلافٍ .. والحقُّ أن تكوين الأحزابِ إنَّما هو نتاج العقلية الغربية والممارسة الخاطئة للديمقراطية ..، فإن انقسام المجتمع إلى أحزاب يعارض بعضها بعضًا ويصارع بعضها بعضًا، ويسعى كل منها إلى الغلبة والفوز والوصول إلى الحكم باعتباره مغنمًا .: أمرٌ يُضْعف المجتمعَ ويعصفُ بكيانه ويجعل الانتماء إلى الحزب أقوى من الانتماء للوطن..

• ولا يجوز للمجتمع الإسلاميِّ أن يمضيَ في تقليد الآخرين إلى هذا المدى ..؛ لأنَّ وحدة الأمة أغلى وأعزُّ من أن تضيع في غمار هذا التنازع والخلاف والصراع.

• ومن هنا يظهر أن الإسلامَ ربط المسلمين برابطة لا يمكن لأيِّ تنظيم وضعيٍّ مهما حصل عليه من القوَّة والدِّقة أن يصل إلى مثلها، وأنَّ العلاقة أو الأخوة الإسلاميَّة هي أساسُ الولاء والبراء في الإسلام، فالمسلم وليُّ المسلم، سواء عرفه أو لم يعرفه، بل ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب، وهذا يعني أنَّ الإسلام لا يتحمل في داخله تنظيمًا آخر، بحيث تكون أسسُ ذلك التنظيم وقواعده أساسًا للولاء والبراء؛ لأن هذا النوع من التنظيم يقتضي أنَّ من انتظم فيه يستحق العونَ والنصرة والإخاء وغيرها من الحقوق، ومن لم ينتظم فيه لا يستحق تلك الحقوقَ، مع أنَّ الإسلام أعطى المسلم جميع هذه الحقوق لمجرد كونه مسلمًا لا لسببٍ آخر.

• ومن هنا يتبينُّ معنى قوله ﷺ: « **لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً** » (١)؛ وذلك؛ لأنَّ الإسلام لما قضى على جميع المواد التي كانت أساس الولاء والبراء في الجاهلية، وجعل الإسلام نفسه مادةً الولاءِ والبراء، وجعل جميع المسلمين سواسيةً في الحقوق، لم يبق عنده مجالٌ لتعدد الجماعات والكتلات المتفرّقة بحيث لا يكون لإحداهما حقوق وعلاقات بالأخرى حتى يحتاج إلى عقد التَّحالف بينهما (٢).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه.

(٢) الأحزاب السياسية في الإسلام لصفي الدين المباركفوري (ص ٤٥، ٤٦) دار الصحوة - القاهرة (١٤٠٧هـ).

وإذن تبقى الشُّورى في الإسلام مجالًا رحبًا للرأي السَّديد الذي يبتغي نصرةَ الدين، وقوة المجتمع ولا حظٌّ فيه لشهوات النفوس أو ابتغاء المغانم ..

* * *

الرأي في مجال البحث العلمي

دعا الإسلام إلى العلم ورغَّب فيه وجعله سبيلًا لخشية اللّٰه سبحانه: كما قال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وهذه الجملة جاءت بعد إشارةٍ إلى علومٍ كونيةٍ وحيويةٍ ينبغي تأمُّلها واستخراج دلالتها على قدرة الخالق سبحانه وهي قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وقد وردت لفظة العلم في القرآن أكثر من مائة مرة..

ويجعل القرآن أولي العلم في مرتبة عالية فهم يشهدون بحقيقة التوحيد وبأنَّ الدين الحق هو الإسلام مع اللّٰه سبحانه ومع الملائكة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

ويعلي القرآن أيضًا درجةَ « الراسخين في العلم » فهم الذين يقولون عندما يسمعون المتشابه من القرآن: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾ [آل عمران: ٧].

وهم الذين يؤمنون بالحقِّ منطلقين من علمهم الراسخ - أي: الثابت المستقر - كما في قوله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

وهؤلاء هم الشُّهداء على صحَّة رسالة محمد ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

وقد امتن اللّٰه سبحانه على بني آدم بنعمة التعليم الإلهيِّ لهم كما قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

وقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]. والبيان تعليم من اللّٰه سبحانه لبني الإنسان: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

والكتابة تعليمٌ من اللّٰه سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهكذا يشمل التعليم الإلهيُّ الذي هيَّأه اللّٰه لعباده العلمَ والكتابةَ والبيانَ وأمور الدين كما قال سبحانه: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

حتى عندما يعلِّم الإنسانُ الحيوان فذلك ثمرة التعليم الإلهيِّ للإنسان، فتدريب كلاب الصيد على اقتناص الفريسة هو من العلوم التي ألهمها اللّٰه سبحانه للإنسان كما قال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤].

والنَّبيُّ ﷺ جاء معلمًا لأمته ومربيًا وداعيًا. قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

بل إنَّ المؤمنين ليزدادون علمًا كلما ازدادوا تقوى وإنابة.

قال سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

من هنا رغَّب الإسلام في التَّزود بالعلم النافع، كما جاء في الدعاء الذي علمه اللّٰه سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

إن هذا العلم لا يقتصر على مجال دون آخر، فهو علمٌ عام شامل بالكون والحياة والإنسان وبالدين والدنيا.. فلا حجرَ في الإسلام ولا تقييد..

ومن هنا قامت النَّهضة الإسلاميَّة على أساس العلم المتين وبدأت منذ فجر الإسلام، فقد كان أمامهم بعد توجيهاتِ القرآن توجيهات النَّبي ﷺ التي ترغب في العلم وتحثُّ على التزود منه بأوفى نصيب. قال البخاريُّ في صحيحه: باب العلمُ قبل القول والعمل لقول اللّٰه تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]. فبدأ بالعلم وأنَّ العلماءَ هم ورثة الأنبياء ورثوا العلمَ، من أخذه أخذ بحظٍّ وافر، ومن سلك طريقًا يطلب به علمًا سهل اللّٰه له طريقًا إلى الجنة وقال جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]. وقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال النَّبي ﷺ: « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بالتَعلُّم » (١) ..

وروى مسلمٌ في صحيحه في حديث جابر الطويل عن عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت ﷺ قال: « خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيِّ من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أولُ من لقينا أبا اليسر صاحب رسول اللَّه ﷺ ومعه غلام له معه ضُمامةٌ من صُحُف.. » (٢).

وما أروعَه من مشهد باهر يُعَدُّ وثيقةً من وثائق الوعي الذي بثَّه الإسلامُ في العرب، بعد أن انقشع ظلام الجاهليةِ الدامس: أبٌ وابنه يخرجان معًا لطلب العلم، ويبحثان عن مصادره ويخافان ضياعه، لا يستنكف الأبُ أن يتعلم مع ابنه، فقد علمهم الإسلام أنَّ العلم هو الضياء وهو مفتاح العمل وهو البصيرة لمن أراد السلوك ..، فهذا صحابيٌّ ومعه خادمه، لا يحمل له متاعًا ولا طعامًا، بل يحمل له ضُمامةً من صحف مكتوبٌ فيها علمٌ، .. فهذه ثمرةُ التَّوجيه الإسلاميِّ الراشد إلى العلم والقراءة.

وقد ظهرت الكتابة في هذا الوقت المبكر في تاريخ الإسلام، فأخذ المسلمون يقرأون ويكتبون، وينتفعون بما يكتبون وما يقرأون، ممَّا يدل على أن النهضةَ العلميَّةَ التي حدثت في حياة العرب إنما كانت بفضل الإسلامِ، لا بفضل الاتِّصال بالحضارات، ففي تلك المرحلة المبكرة لم يكن قد حدث شيءٌ من هذا الاتصال ..

وفي الحديث الشريف يقول النَّبِيُّ ﷺ: « سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا » (٣).

وفيه أيضًا: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا » (٤).

وهذا هو مقياس العلم الذي يرضى عنه الإسلام ..، وهو العلم الذي يبني ولا يدمر، وينفع ولا يضر، ومن هنا لا يرضى الإسلام عن أبحاث أسلحة الدَّمار الشامل بأنواعها المختلفة، فهذا علمٌ الجهلُ به أنفعُ ..

* * *

(١) صحيح البخاري كتاب العلم (١٦/١) ط الخيرية.

(٢) صحيح مسلم، باب حديث جابر الطويل (٦٠٠/٢) ط الحلبي.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب رقم (٣).

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة، باب رقم (٣٢)، ومسند أحمد (٢٩٤/٦).

وإذا كان الإنسان مطالَبًا بالنظر في آفاق السماوات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

فإن هذا النظر يستدعي إعمالَ الفكر ودوام البحث والحُرِّيَّة في إبداء الرَّأْي العلمي دون خروج عن آداب العلم وقواعد البحث، وأول سمات المنهج العلميّ في الإسلام: ابتغاء الحقائق الثابتة والبحث عن المعرفة اليقينية، ورفض الظنّ والوهم، وتجنُّب التَّقليد والاتباع الأعمى دون دليل، فقد جاءت كلمة « حق » في القرآن في مائتين وسبع وعشرين آية، ومن هنا رفض الإسلام الظنَّ والتخرُّص والتَّوهُّم؛ لأنه لا يوصل إلى حق ولا يقين، كما قال الحق سبحانه: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

ومن سنن الله في الكون أن يصارع الحقُّ الباطل فيصرعه، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ [الشورى: ٢٤].

أما الظنُّ فهو كما قال الحق سبحانه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧]. فالظن قرين الجهل كما تدل على ذلك الآية.

أما تجنُّب التَّقليد والاتِّباع الأعمى دون دليل، فقد اتَّضح في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. كذلك حذَّر القرآن من اتباع الهوى في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

- إنَّ الإسلام يتطلب من البشر البحثَ عن اليقين عن طريق النظر في الكون، وتأمُّل دلائل القدرة القاهرة فيه.

- وطريق الإنسان للمعرفة كما يتضح في القرآن هو التفكر والتأمل والانتفاع

بمعطيات الحواس والقدرة على الإدراك الصحيح.

ومن هنا انطلقت بحوثُ المسلمين للتَّعرف إلى حقائق الكون..، وكان اندفاعُ المسلمين إلى التَّزود بالعلوم المختلفة، واستجلاء حقائقها استجابةً لدعوة القرآن إلى معرفة ما أنزل اللّه من الوحي المتلوّ على نبيّه ﷺ، ثُمَّ معرفة ما أودع اللّه في هذا الكون الرائع من العجائب الباهرة.

إنَّ العلمَ في الإسلام يتَّسع ويحيط بكل المعارف، فلا يضِيقُ بمذهب ولا يَفْرقُ من رأي، ولا يفرض قيودًا على النَّظر والاستدلال..

وتاريخ العلم في الإسلام شهيدٌ على ذلك..

فقد اتَّسع المجتمع الإسلاميّ لدراسة كل فكر ومذهب وعقيدة ورأي، وثار النِّقاش في أرجائه، واستفاضت المذاهبُ واتَّسعت الخلافاتُ، ولم يكن في ذلك حرجٌ على العقيدة الإسلامية، ولا بأس على المجتمع.

واستطاع المجتمع الإسلاميّ أن يحتفظ بمشعل الثَّقافة الإنسانيةِ، وأن يرفع لواءها حتى أفادت منها الحضارة الحديثة، ولولا ذلك لاندثر العلمُ، وتاهت الثَّقافة في زحام الحياة الرهيب، وتقطعت حلقات السلسلة في مسير التاريخ..

وكل فرد في المجتمع الإسلاميّ له الحقُّ في أن يختار من أنواع الثَّقافة ما يريد، وأن يفكِّر في جوانب العلم كما يشاء.. ما دام علمًا نافعًا لا يصادم حقائقَ الإيمان..

وليس الإسلامُ بالذي يحجر على البحث والفكر، ففي ظلال الإسلام ازدهر البحثُ ونما العلم، واهتدى العلماء المسلمون إلى نتائج باهرة انتفع بها العالم كلُّه، بينما كانت المجتمعاتُ الغربيةُ في العصور الوسطى تحرق العلماءَ، وتحجر على الباحثين خوفًا على الموروثات وحفاظًا على هيبة رجال الدين.

أمَّا في الإسلام فإنَّ الأمر كما يقول الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه: « **الْكَلِمَةُ الحِكْمةُ ضَالَّةُ المُؤمِن فحيث وَجَدَهَا فَهُوَ أَحقُّ بِهَا** » (١).

وليس وراء ذلك حُرِّيَّةٌ في البحث ولا سعةٌ في ساحة التفكير والنظر.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب العلم، باب رقم (١٩)، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب رقم (١٥).

خصائص المنهج الإسلامي:

وقد أدرك المؤرخون الأوربيُّون المنصفون خصائصَ المنهج العلميِّ الإسلاميِّ القائم على حُرِّيَّة البحث وسعة الأفق، ومنهم « جوستاف لوبون » في كتابه حضارة العرب، فقد قال تحت عنوان: مناهج العرب العلمية - وهو يريد بالعرب المسلمين - : لم يلبث العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان أن أدركوا أنَّ التجربةَ والترصّد خيرٌ من أفضل الكتب وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة، جدَّ علماءُ القرون الوسطى في أوربا ألف سنة قبل أن يعلموها.

ويُعزَى إلى « بيكون » على العموم أنَّه أولُ من أقام التَّجربةَ والتَّرصدَ اللَّذَين هما ركنا المناهج العلميةِ الحديثةِ مقام الأستاذ، ولكنَّه يجب أن يُعترف اليوم بأنَّ ذلك كله من عمل العرب وحدهم، وقد أبدى هذا الرَّأيَ جميعُ العلماء الذين درسوا مؤلفاتِ العرب.

ولا سيما « هنبولد »، فبعد أن ذكر هذا العالمُ الشهيرُ أنَّ ما قام على التجربة والترصد هو أرفعُ درجةٍ في العلوم قال: « إن العربَ ارتقوا في علومهم إلى هذه الدَّرجة التي كان يجهلُها القدماءُ تقريبًا ».

وقال مسيو « سيديّو »: « إن أهم ما اتصفت به مدرسةُ بغداد في البداءة هو: روحُها العلمية الصحيحة التي كانت سائدةً لأعمالها، وكان استخراجُ المجهول من العلوم والتدقيقُ في الحوادث تدقيقًا مؤديًا إلى استنباط العِلل من المعلولات، وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادئُ قال بها أساتذةٌ من العرب. وكان العرب في القرن التَّاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهاج المجْدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات » [1].

ثم قال « جوستاف لوبون »: قام منهاجُ العرب على التجربة والزمن، وسارت أوربا في القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار على تكرارِ رأي المعلم، والفرق بين المنهجين أساسيٌّ، ولا يمكن تحقيقُ قيمةِ العرب العلميَّة إلّا بتحقيق أهمية هذا المنهاج في العالم وظلُّوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلًا.

قال « دُولَنْبري » في كتاب « تاريخ علم الفلك »: « تعُدُّ راصدَيْن أو ثلاثة بين الأغارقة، وتعُدُّ عددًا كبيرًا من الراصدين بين العرب يُعَدون بالمئات. ومنح اعتمادُ العرب على التجربة

---

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون (ص ٤٣٥، ٤٣٦)، مرجع سابق.

مؤلفاتِهم دقةً وإبداعًا لا يُنْتظر مثلهما من رجل تعوَّد دَرْس الحوادث في الكتب .. ونشأ عن منهاج العرب التجريبيِّ وصولُهم إلى اكتشافاتٍ مهمةٍ، وسَترى من مباحثنا في أعمالِ العربِ العلميةِ أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حقَّقَه الأغارقةُ في زمن أطول من ذلك كثيرًا. وكان تراث اليونان العلميّ قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل، ولما آل إلى العربِ حوّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقَّاه ورثتُهم مخلوقًا خلقًا آخر ».

ويمضي هذا المؤرخ المنْصف قائلًا: ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألَّفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربا من هذه الناحية. وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير: أنَّ العرب وحدَهم كانوا أساتذةَ الأمم النَّصرانية عدة قرون، وأنَّنا لم نطَّلع على علوم قدماء اليونان والرُّومان إلا بفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نُقل إلى لغاتِنا من مؤلَّفات العرب إلا في الأزمنة الحاضرة [١].

ويقول الكاتب الإنجليزيُّ المعاصر « ج.ج كراوثر » في كتاب « قصة العلم » عن نشأة العلم الإسلاميِّ التجريبيِّ: وفي الوقت الذي انشغل فيه الأوربيون بإعادة نظامهم الاجتماعيِّ الجديد كان المسلمون منصرفين لقطف ثمراتِ انتصاراتهم، فمشكلاتهم الرُّوحية وجدت حلًّا في الدين الجديد، ولم تعد الأسئلةُ الكثيرةُ التي كانت تُحيِّرهم مصدرًا لقلقهم، بعد أن وجدوا إجاباتِها جاهزةً في متناول أيديهم، وهكذا كان من الطبيعيِّ بعد أن اطمأنُّوا على قوَّتِهم العسكريَّةِ ومعتقداتهم الإيمانيَّة أن يتَّجهوا لتشييد المدن الرائعة ودراسة ثقافة الحضارات التي دانت لهم.

لقد كان العرب المسلمون أمةً جديدةً بلا معرفةٍ أو تراثٍ سابقٍ، فقرأوا التُّراثَ الفكريَّ للقدماء بعقول متفتحة، بلا خلفياتٍ تعوقُهم، ولذلك وقفت الثَّقافات الإغريقيَّة واللَّاتينية والهنديَّة والصِّينية جميعها بالنسبة لهم على قدمِ المساواة، وكان من نتاج هذه العقلية المتعطِّشة للمعرفة عند المسلمين: أنَّهم أصبحوا بالفعل المؤسِّسين الحقيقيين لمفهوم العالمية في المعرفة، أو وحدة المعرفة الإنسانية، وهي إحدى السمات بالغة الأهميةِ بالنسبة للعلم، وكانوا باحثين جادِّين يتَّصفون بالذِّهن الحاد والذَّكاء الشَّديد والملاحظة المرهفة،

---

(١) المرجع السابق.

وبرزوا كموسوعيين نقديين، وتفوَّق منهم كثيرون أشهرهم ابنُ سينا [١].

إلى أن يقول: « والواقع أنَّ اللغةَ العربيةَ ذات البنية والخصائص المتميزة كانت من العوامل المشجِّعة لنقد المسلمين لعلوم السابقين، فاللغةُ العربيةُ هي لغةُ التَّفكير التحليليِّ، وقد أدَّى هذا النَّقدُ إلى تأسيس كثيرٍ من المفاهيم والتَّصورات الخاصة باللغة الفلسفيَّةِ الدَّقيقة والتي ساعدت بدورها على الوصف الدقيق للظواهر، فضلًا عن مساعدتها في ظهور المنطق الرياضي الحديث عند « ليبتنز » وخلفائه بعد.

ويمكننا القول بأن النقدَ التحليليَّ الذي قام به نصير الدين الطوسيُّ لهندسة إقليدس كان هو نقطة البدايةِ الحقيقيةِ لأول محاولة لبناء هندسة لا إقليدية عام (١٧٣٣م) على يد « ساكشيري » (١٦٦٧ - ١٧٧٣م) [٢].

ثم يقول: ومن مآثر المسلمين التي يذكرها لهم التاريخ والتي تركت أثرًا باقيًا في الفكر الإنساني حتى اليوم: ذلك التقدمُ العلميُّ، وكذلك في الفنون التطبيقيةِ الذي أنجزوه في الأندلس فقد جلبوا إلى قرطبةَ نسخًا من ترجماتهم للرياضيين والعلماء الإغريق، بالإضافة إلى ما أضافوه من نقدٍ وإبداعاتٍ ذاتيةٍ، وجعلوا من قرطبة أعظمَ مركزٍ ثقافيٍّ متطور في أوربا حينذاك، وعن طريق قرطبة وجنوبيِّ الأندلس أخذ المجتمع الإقطاعيُّ الجديد في أوربا ينهل من ينابيع العلم الإغريقيِّ.

وكان ما استفادته أوربا من هذا المنفذ يفوق بما لا يقبل المقارنةَ كلَّ ما أخذوه عن طريق الحروب الصليبية في الشرق الأوربي [٣].

هكذا كان المنهج العلميُّ الإسلاميُّ ذا ثمراتٍ مباركة للإنسانية جميعًا ..، وما ذاك إلا لأن الإسلام يطلق حُرِّيَّةَ البحث في مجال العلم النَّافع، ولا يحرم من العلوم إلا ما فيه أذى للإنسان وتدمير للحياة، أو ما فيه دخول مُغْرق في الظنون والأوهام والأساطير كالسحر والتنجيم وأشباهها.

وما عدا ذلك فلا حظر ولا تقييد ولا محاكمة ولا عقاب على الرَّأْي والتفكير.

ويقرر الباحث الأمريكي « توبي هفّ » في كتابه « فجر العلم الحديث: » الإسلام -

(١) قصة العلم، ج.ج كراوثر (ص ٥٦، ٥٧)، ترجمة د. يمني طريف الخولي، ود. بدوي عبد الفتاح - الطبعة الأولى، القاهرة (١٩٨٨م) - المجلس الأعلى للثقافة.

(٢) المرجع السابق (ص ٥٩).

(٣) المرجع السابق (ص ٦٠).

الصين – الغرب: أن التراثَ العلميَّ العربيَّ كان أغنى بالأساليب التجريبية من أيِّ تراثٍ آخر، سواء كان أوربيًّا أم آسيويًّا. وقد شملت هذه الأساليبُ ثلاثةَ تقاليد تجريبية منفصلة: في البصريات والفلك والطب.

ففي البصريات لابدَّ أن نعتبر تطويرَ ابن الهيثم لفكرة التَّجريب، واستعماله لها واحدًا من أهم التطورات في تاريخ العلم كله، ويتَّضح ذلك من الأثر الهائلَ الذي تركه كتاب « البصريات » على الغرب. وعلى رغم تأخير انتشاره بعد تأليفه بين سنتي (١٠٢٨هـ – ١٠٣٨م) فإنه ظل واسعَ الانتشار والأثر في الغرب حتى القرن السادس عشر.

وفي هذا العمل أخذ ابن الهيثم على عاتقه مهمةَ البدء بدراسة البصريات من جديد بشكل يختلف عن كل من سبقه من الكتاب، فبدلًا من تلخيص المعرفة المتراكمة التي توصل إليها السَّابقون حول الموضوع أخذ ابن الهيثم وجهةً جديدةً تسعى في كل الأحوال الممكنة إلى إدخال الرياضيات والبرهنة إلى دراسة خواص الضوء والبصر.

وقد استعمل في ذلك عددًا من الأجهزةِ التجريبيةِ منها بشكل خاص الغرف المظلمة المرتبة ترتيبًا خاصًّا وفتحات مصممة خصِّيصًا لإدخال قدر معلوم من الضوء، كما تنضم أنابيبٌ للنظر وما إلى ذلك، ولذا فإنَّ مفهوم التجربة أو الاعتبار يتبين بوصفه وسيلةً صريحةً قابلةً للتعريف المنهجيِّ تتضمن التَّحكم في آلات بُنِيت اصطناعيًّا.

وقد تُرْجِم هذا الكتابُ إلى اللغة اللاتينية، وكان معروفًا للكُتَّاب الغربيين مع حلول العَقْدين السادس والسابع من القرن الثالث عشر الميلادي، وأثَّر هذا الكتاب أولَ ما أثَّر في الغرب اللاتيني في « روجر بيكون » (١٢٢٠ – ١٢٩٢م) ثم في الكتَّاب الذين كتبوا في البصريات [١].

وقد تطوَّر نمطٌ مشابهٌ من التجريب في الطِّب، كما يقول مؤلف كتاب « فجر العلم الحديث » فقد وصف الرازيَّ المتوفَّى سنة ٩٢٥م بأنه طبيبٌ عُرِف عنه رفضه لقبول أقوالٍ لم تثبت بالتَّجربة، وفهمه للتجارب القياسية، وتقييده للملاحظات السَّريرية، ونقده للمراجع المعتمدة مثل « جالينوس » وعلى رغم أنَّ ابنَ سينا المتوفى سنة (١٠٣٧م) قد تعرض للنقد بسبب استهانته بأعمال الرازيِّ، فإن كتاب ابن سينا الطبي العظيم

(١) فجر العلم الحديث (ص ٢٣٢، ٣٣٣). تأليف « توبي أ.هَفّ » ترجمة د. محمد عصفور – الطبعة الثانية سلسلة عالم المعرفة بالكويت العدد رقم (٢٦٠) – جمادى الأولى سنة (١٤٢١هـ)، أغسطس (٢٠٠٠م).

« القانون » يعتبر بحق عملًا هائلًا ظل سائدًا في حقل الطِّب في أوربا حتى أواسط القرن السابع عشر.

وقد أشار « كرومبي » إلى أن كتاب القانون يضم مجموعة من القواعد التي وضعت الشروط الضرورية لإخضاع الأدوية للتجريب والاختبار، وكانت هذه القواعد في واقع الأمر دليلًا دقيقًا للتجريب العلمي خاصَّةً في عملية اكتشاف المواد الدوائية وإثبات فعاليتها.

وخلاصة القول - كما يقول هذا الباحث المنصف - أن عالَمَ العلم في الإسلام كان غنيًا بالأفكار التجريبية، وهي أفكارٌ استُخْدِمت فعلًا في البصريات والفلك والطب.

• هذه بعض ثمراتِ المنهج العلميِّ الإسلاميِّ الحر الذي لا يَحْظُر على البحث، ولا يُحَرِّم التجربة والتفكير، ولا يقيِّد الباحثَ بقيود تعوقه على الانطلاق في المجال الذي يبحث فيه.

إنه المنهجُ الذي يعول عن الحقائق والتجارب، وينفر من الظُّنون والأوهام والخرافات والأساطير، ويقوم على الحجَّة والدَّليل، اتباعًا للمنهج القرآنيِّ في مثل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]. وقوله سبحانه: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ [القصص: ٧٥].

ولو أن المسلمين في أجيالهم المتأخرة ثبتوا عند هذا المستوى العلميِّ الرائع الذي يفتح المجال أمام العقول ولا يضيق بأيِّ بحثٍ أو تجريبٍ نافعٍ، ولم يحيدوا عن تلك القواعد، لكانوا قادةَ العلم الحديث وأصحاب الاختراعات المذهلة.

ولكن المؤسف أن العالم العربيَّ قد تخلَّى عن ريادته العلميةِ، بعد أن نسي المنهجَ العلميَّ الإسلامي، واكتفى العلماء بحفظ ما قاله السابقون، فخمدت حاسةُ النقدِ والتأمل، وجمدوا على كُتُبٍ بعينها، وشاعت الخرافاتُ والأساطير والعجائب، واقتصر أهل العلم على ما سمَّوه « العلوم الشَّرعية » وأهملوا علوم الكون التي برع فيها أسلافهم، وكانوا فيها أساتذة العالم، فتراجع المسلمون في مجالاتِ الحياة، وضعفت قوتُهم العسكريةُ والاقتصاديةُ والاجتماعيةُ والعلمية، فكان ما كان مما سجله تاريخ الزمان.

هذه ثمراتُ الأخذ بالمنهج الإسلاميِّ العلميِّ الأصيل، وعواقب النُّكوص عنه، ولا تزال الفرصة سانحةً أمام الأمَّة الإسلاميةِ لاستعادة مواقعها في مجال العلم والبحث والتَّجريب؛ ليستغني المسلمون عن غيرهم، وليحقِّقوا الكفايةَ لأنفسهم، ثم لينفعوا الإنسانية من ورائهم ..

إن مجال العلم التجريبيّ هو المجال الذي يحتاج للعناية والحُرِّيَّة في مجال البحث، .. وكذلك العلم النظريّ القابل للنّقاش - عدا علم العقيدة وعلم الشّريعة - فهناك قضايا اجتماعيةٌ واقتصاديةٌ وتربويةٌ تحتاج لإعمال الفكر، ومعاودة النظر والإخلاص في البحث والتّحري للحقائق.

إن البحث العلميّ لا ينمو ولا يتطور إلا بإتاحة الحُرِّيَّة في النظر والتفكير ..، وهذا ما يؤكّده الإسلام، ويدعو إليه منذ أن ظهر نوره وأشرقت شمسُه على العالم ..

مقارنة لازمة:

ولا تكتمل الصورة إلا بمقارنة موقف الإسلام من حُرِّيَّة البحث وترك المجال مفتوحًا للعقول لتفكر وتخترع .. بموقف أوربا في العصور الوسطى من قضية البحث العلميّ ..

فقد كانت الكنيسةُ ممثلة في بابا روما تمارس وصايتها على الباحثين والمفكرين، بل كانت تحاكمهم وتحاصرهم إن هم خرجوا عن الخطِّ المرسوم الذي يحدده البابا .. وتصدر بحقهم أحكامًا بالسجن أو ما هو فوقه.

• ونضرب المثل بعالم الفلك « كوبرنيكوس » وهو بولنديٌّ عاش ما بين عامي (١٤٧٣ - ١٥٤٣م)، وقد قام بأول تحليل واضحٍ لحركات الأجرام السماويَّة، وأبان أنَّ الأرض تدور حول الشمس.

• يقول صاحب كتاب « قصة العلم »: « وأهدى كوبر نيكوس بحثه إلى البابا بول الثالث الذي استأنف أمر محكمة التفتيش [1]، على أن التساؤل بشأن هرطقة نظريته لم يثر بجدية لما يقرب من خمسين عامًا لاحقة، وفي البداية كانت معارضةُ البروتستانتيين لهذا أحَدَّ وأعنف كثيرًا؛ إذ أشار « لوثر » إلى كوبرنيكوس بوصفه منجمًا جديدًا أراد إثبات أن الأرضَ تتحرك وتدور ..، إنها الرغباتُ الحمقاءُ لقلب الفلك بأسره رأسًا على عقب » [2].

وجاء من بعده « جاليليو جاليلي » الذي عاش ما بين عامي (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) وهو مؤسس علم الديناميكا.

---

(١) الصادر بحق كوبر نيكوس لمنعه من البحث في قضية دوران الأرض حول الشمس.

(٢) قصة العلم (ص ٨٣)، مرجع سابق.

يقول المؤرخ الإنجليزيُّ « ويلز » في كتابه « معالم تاريخ الإنسانية »: وأنشأ « جاليليو » ما يكاد يكون أولَ مرصاد « تلسكوب » وكذلك طوَّر آراء « كوبرنيكوس » الفلكية، ولكن الكنيسة قرَّرت - وهي تكافح النور بشجاعةٍ - أنَّ الاعتقادَ في أنَّ الأرضَ أصغرُ من الشمس، وأدنى منها مرتبةً لا يجعل للإنسان والمسيحية وزنًا، ولذا حُمل جاليليو على التراجع عن هذا الرَّأْي، وعلى إرجاع الأرض إلى مكانها الأول كَمركَز ثابت للكون لا يتحرك، وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسِّجن مدة من الزمان، وأُمِر بتلاوة مزامير النَّدم السبعة مرة كل أسبوع طوال سنوات ثلاث (١).

وهناك إيطاليٌّ أُحْرِق في روما سنة (١٦٠٠م) بسبب آرائه الدينيةِ والعلميةِ التي لم ترض عنها الكنيسةُ، وهو « برونو » الإيطاليُّ الذي ولد سنة (١٤٤٨م): وكان برونو قد أخذ يدرسُ الفلك ويجاهر بتأييده لنظريات « كوبرنيكوس »، وكوبرنيكوس هذا من رجال النهضة الذين جحدوا فلك القدماء...، وعلى ذلك كان كُفْرُ « برونو » مزدوجًا: بالإنجيل وبالقدماء، فما هو أن يمَّم شَطْر البندقية وهدأ بها أيامًا حتى كبسه رجال محكمة التفتيش، وحملوه إلى رومية حيث بقي أكثر من ست سنوات يعاني مرارة السجن وآلامه، وفي ختام هذه الأيام أشعلت النار جمهور من أهل رومية يطوف به وهو يمشي إليها بقدم ثابتة (٢).

وكذلك قال هذا الكاتب عن « جاليليو »:

ولد جاليليو سنة (١٥٦٤م) ومات سنة (١٦٤٢م)، وحياته كفاحٌ متصلٌ مع القدماء الذين أخذ على عاتقه هدمهم، ومع الكهنة الذين أوشكوا أن يجعلوا خاتمةَ حياته مثل خاتمة حياة « برونو » ولكنه توقى هذه الخاتمة بأن رضي بأن ينكرَ ما قاله.

كان « جاليليو » إيطاليًا نشأ في أسرة شريفة، وتربَّى التربية العالية التي كان يحصل عليها أبناءُ الأشراف في إيطاليا، وقد أبدى من الذكاء والميل إلى الدرس ما جعله أستاذًا في جامعات إيطاليا في الرِّياضة والميكانيكيات.

وحدث في سنة (١٦٠٩م) أنه سمع بأن أحد البلجيكيين قد اخترع زجاجةً إذا نظر من خلالها جعلت الشيء البعيد قريبًا، فأكبَّ على درس هذا الاختراع واخترع « التلسكوب »

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية (١٠٠٨/٣)، مرجع سابق.

(٢) حرية الفكر لسلامة موسى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة (١٩٩٣م).

وأخذ في درس الفلك ..، ونزع « جاليليو » نزعةً علميةً قائمةً على التجربة، فاستعمل « تلسكوبه » الجديد في كشف السماء، فعرف بذلك من النجوم نحو عشرة أضعاف ما كان منها معروفًا بالعين المجردة ..، وأظهره « تلسكوبه » أيضًا على القمر فأخذ يرصده ووجد أن وجهه يشبه جدًّا سطح الأرض فيه السهل والجبل..

ووقفه « تلسكوبه » أيضًا على بقع الشمس التي لا نزال نحن حائرين في ماهيتها، وكانت كل هذه الأبحاث تقوده إلى ما يقوله الآن علماءُ الفلك، وهو أنَّ الكواكب والقمر قد تكون مأهولةً بالناس مثل الأرض. وهنا بدأ الكفاح بينه وبين الكهنة.

وبلغ محكمة التفتيش في إيطاليا هذه « الهرطقة » الجديدة سنة (١٦١٦م)، فكتبت إلى « الكادرينال بلارمين » تأمره أن ينهى جاليليو عن هذه الآراء، وفي حالة رفضه يؤمر بالكف عن تعليم هذه الآراء أو الدفاع عنها أو حتى البحث فيها، وفي حالة مخالفته يسجن، وسكت جاليليو؛ فإن شبح النار التي أُوْقِدت « لبرونو » سنة (١٦٠٠م) كان لا يزال قريبًا، ولم يكن جاليليو يستمرئُ نارَ الكنيسة، فلما كانت سنة (١٦٣٠م) ألَّف كتابًا في الفلك وذهب إلى البابا يستأذنه في نشره، وكان موضوع الكتاب المهم: هو تعليلُ حركة المدِّ والجزر بازدواج حركة الأرض، أي بدورتها حول نفسها، وأيضًا بدورتها حول الشمس، فأذن له « البابا » بنشر الكتاب بعد أن اشترط عليه جملة شروط، كان من أهمها أن يكتب في ختام الكتاب هذه العبارة: « اللَّه قادرٌ على كل شيء، وكل شيءٍ ممكنٌ لديه، وعلى ذلك فليس يمكن أن يقال: إن المد والجزر برهانٌ ضروريٌّ للحركة المزدوجة للأرض بدون تحديد قدرته على كل شيءٍ ».

وقبل « جاليليو » هذه الشروط، ونشر الكتاب سنة (١٦٣٢م)، ولكن في السَّنة عَيْنها هاج رجال الدين، ومنعوا نشر الكتاب حتى مع وجود هذه الخاتمة التي يكذب فيها « جاليليو » نفسه. وانعقدت محكمة التفتيش سنة (١٦٣٢م) وحكمت عليه بالسجن ثلاثَ سنوات، وأن يتلو « المزامير » السبعة مرة كل أسبوع وأن ينكر كل ما قال [١].

وقال الفيلسوف الإنجليزيُّ المعاصر « برتراندرسل » في كتابه « الدين والعلم »:

« تتمثل أول معركة حامية الوطيس، بل أبرز جميع المعارك من بعض النواحي بين اللاهوت والعلم في النزاع الفلكيِّ الذي احتدم حول صحَّة القول: بأن الشمس مركز

---

(١) المرجع السابق (ص ١٤٦ – ١٤٨).

ما نسميه الآن المجموعة الشمسية »، فقد كانت النظريةُ البطليموسية هي النظرية الأصيلة والراسخة، وطبقًا لهذه النظرية فإن الأرض تستقر في مركز الكون، في حين أن الشمسَ والقمر والكواكب ونظام النجوم الثابتة تدور حولها، كلٌّ في فلكه الخاص به.

وطبقًا لنظرية « كوبرنيكوس » الجديدة فإن الأرض غير ثابتة في مكانها، ولها حركتان، فهي تتحرك حول محورها مرة كل يوم، كما أنها تدور حول الشمس مرة كل عام.

وبالنظر إلى أن « كوبرنيكوس » نفسه كان واحدًا من رجال « الأكليروس »، فقد أهدى كتابه إلى « البابا » وقام ناشره بإضافة تصدير إلى الكتاب قال فيه: « إن نظرية دوران الأرض هي مجردُ افتراض وغير مؤكّد كحقيقة إيجابية ». وهذه حيلةٌ ظلت كافيةً لتحاشي المشاكل حتى أظهر « جاليليو » تحديًا وجرأةً أكبر، قامت الكنيسة على إثرهما بتوجيه إدانة رسمية بأثر رجعيٍّ إلى « كوبر نيكوس » [1].

ثم قال « راسل »: « كان جاليليو جاليلي » (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) أبرز شخصية علمية في عصره، بسبب اكتشافاته من ناحية وصراعه مع محاكم التفتيش من ناحية أخرى ..

ولهذا قام البابا باستدعاء « جاليليو » للمثول أمام محاكم التفتيش التي أمرته بنبذ أخطائه، ففعل هذا في ١٦ فبراير سنة (١٦١٦م). وفي جدِّية ووقار قطع جاليليو على نفسه عهدًا بالتّخلي عن نظرية « كوبر نيكوس » والامتناع عن تدريسها شفاهةً أو كتابةً، ولم يكن قد مرَّ على حرق « برونو » غير ستة عشر عامًا.

وبناءً على تعليمات « البابا » قامت الكنيسة بحظر كلِّ الكتب المناديةِ بدوران الأرض. عندئذ ولأول مرة تمت إدانة مؤلفات « كوبر نيكوس » نفسه، وانسحب « جاليليو » إلى فرنسا؛ ليعيش فيها لفترةٍ قصيرةٍ عيشة هادئة متجنبًا إغضابَ أعدائه المنتصرين عليه.

وبدأ « جاليليو » في تأليف كتابه « حوارات حول أعظم نظامين فلكيين في العالم » الذي انتهى من تأليفه عام (١٦٣٠م) ونشره عام (١٦٣٢م)..

ومرةً أخرى تم استدعاء « جاليليو » إلى روما للمثول أمام محاكمِ التفتيش التي

---

(١) الدين والعلم لبرتراند رسل (ص ١٤ - ١٦)، ترجمة رمسيس عوض، نشر كتاب الهلال، العدد (٥٥٤) فبراير (١٩٩٧م).

أصبحت في حالة مزاجية متشدِّدة عمَّا كانت عليه عام (١٦١٦م) بسبب شعورها بأنَّها عجزت خلال التَّحقيق مع « جاليليو » أن تأخذ منه حقًّا أو باطلًا .. وعندما وصل « جاليليو » إلى روما تم الزجُّ به في سجون محاكم التفتيش، حيث هدَّدوا بتعذيبه إذا لم يتراجع عن آرائه.

وأصدرت محكمة التفتيش قرارًا بعدم تطبيق العقوبات الخاصة بالهرطقة عليه، بشرط أن يَنبذ ويَلْعن ويشهر مَقْته بقلبٍ خالصٍ وإيمانٍ لا ريب فيه، لما هو منسوب إليه من أخطاء وهرطقات.

وبالرغم من تراجع « جاليليو » عن آرائه، فقد أمر « البابا » بإدانته والاحتفاظ به في السِّجن التابع « لقداسته » لفترة يقوم البابا بتجديدها وفقًا لما يراه مناسبًا.

وأمره « البابا » من باب الاستغفار المفيد أن يقوم في خلال السَّنوات الثلاث التالية بتلاوة السبعة مزامير الخاصة بالتَّوبة.

وكان هذا الحكم « المخفف » مشروطًا بتراجعه عن آرائه.

وبناء عليه تلا « جاليليو » أمام الملأ وهو جاثٍ على ركبتيه صيغة مطولة أعدتها محكمة التفتيش جاء فيها:

« إني أنبذُ وألعنُ وأمقت الأخطاءَ والهرطقات المنسوبة إليّ ..، وأقسم أنَّني في المستقبل لن أقول أو أؤكد أبدًا شفاهة أو كتابة أيَّ شيء يدعو إلى إثارة الشُّكوك حول شخصي ». واستطرد « جاليليو » ليقطع على نفسه وعدًا بالاستنكار وتبليغ محاكم التفتيش عن كل « المهرطقين » الذين قد يجد في المستقبل أنَّهم لا يزالون يؤمنون بدوران الأرض، وأن يقسم على الكتاب المقدَّس أنه نبذَ هذا الرَّأي بالفعل ..

واقتناعًا من جانب محاكم التفتيش بأنَّها أدَّت خدمة جليلة للحفاظ على الدين والأخلاق، بإرغام أعظم رجل في عصره على النطق بشهادة زور، سمحت له هذه المحاكم بقضاء بقية حياته في عزلة وسكوت ورغم أنها لم تلقِ به في غياهب السجن، فإنَّها راقبت كل تحركاته ومنعته من زيارة أهله وأصدقائه.

وفي عام (١٦٣٧م) أصيب بالعمى، ومات عام (١٦٤٢م) [١].

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٤ - ٢٦)

• إن الكنيسةَ في تلك العصور قامت بمصادرة البحث العلميِّ القائم على التجربة والترصد، وأجبرت العلماءُ على النُّكوص عن آرائهم وإنكار نتائج أبحاثهم .. بحجَّة الحفاظ على الدين وتقرير هيبة رجال الدين وهيمنتهم على شئون الحياة ..، حتى العلم القائم على المعاينة والبحث عن الحقيقة.

وهذا ما برئَ منه المجتمع الإسلاميُّ في عصوره الزَّاهرة التي تركت المجال مفتوحًا أمام البحث والرَّأي والنظر، ولم تجعل للدِّين حكمًا في هذه المسائل العلمية، فهي داخلةٌ في قوله ﷺ لأصحابه: « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُم » [1]. وكفى بذلك حُرِّيَّةً للبحث وانفساحًا في مجال الرَّأي العلمي الذي يسعى لإثبات الحقيقة ..

ومن هنا قال مؤرخٌ أوربيٌّ: لا أدري كيف أعطانا الإسلامُ في مدة قرنين عددًا من الفلكيين يطول سرد أفراده، وأن الكنيسةَ تسلطت على العالم المسيحيِّ اثني عشر قرنًا في أوربا ولم تمنحنا فلكيًّا واحدًا [2].

ويقول مؤرخ آخر: « وليس في الأوربيين من درس التاريخَ وحكَّم العقل، ثم ينكر أن الفضل في إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم، وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر، وفي معرفتها أنَّ التجربة والمشاهدة هما: الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم، إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها إليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوبي إيطاليا وفرنسا عليهم » [3].

ويقول الفيلسوف الفرنسيُّ « جارودي » في كتابه « وعود الإسلام »: « إنَّ المسلمين قدموا بعقيدتهم أغنى مساهمة في الثقافة العالميةِ، إنَّ السبب الرئيسيَّ للرُّكود العلمي في أوربا النَّصرانية هو تحفُّظها تجاه الطبيعة، الذي لا يمكن إلا أن يُبعد عن اللَّه.

إنَّ هذا ثابتةُ هذه الثنائية التي أفسدت الرؤية النصرانية.

إن « إسكوبي دي كيساري » حَبْر الكنيسة وأسقف « قيسيارية » كان يقول لعلماء الإسكندرية وبرغام: « إننا نأبه قليلًا جدًّا لنشاطِكم الباطل، ونزدريه، ونصرف أذهاننا إلى اهتماماتٍ أسمى ».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الإسلام بين العلم والمدنية، للشيخ محمد عبده (ص ١٣٢)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة (١٩٩٣م).

(٣) المصدر السابق.

وبعده بعشرة قرون أيَّد « توما الأكويني » ذات الثُّنائية بقوله: « إن أقلَّ معرفةٍ يمكن أن نكتسبها من الأمور العليا مستحبةٌ لدينا أكثر من أيةِ معرفةٍ كبيرةٍ جدًّا في أمور الدنيا ».

ولذا فإننا لا ندهش إذا استمرت النَّصرانية بناء على هذا المفهوم عن العلاقات بين الإنسان والطبيعة والله في قتال مع العلوم متراجعة أمامها منذ ذلك التاريخ ..

إن هذا الموقفَ قد تكرر مع « محاكم التفتيش » التي تولَّت طردَ العرب من إسبانيا في القرن السادس عشر، وامتدت إلى ما وراء البحار.

إنَّ هذا التعصب أدَّى إلى ركود دام عدة قرون في أوربا، بينما عرف المسلمون المتصرون كيف يتمثلون الثقافات بدلًا من تدميرها، فازدهرت ثقافتُهم وشعَّت ثقافةٌ كانت في جميع جوانبها مستوحاةً من رؤية القرآن التوحيدية » (١).

• كل هذا؛ لأنَّ الإسلام لا يحظر على البحثِ العلميِّ الذي يبتغي نفع الإنسانية، ولا يمنع العقل أن يفكِّر، ولا يمنع النِّقاش والحوار والجدل بالتي هي أحسن، ومن هنا نما العلم في المجتمع الإسلاميِّ في عصوره الزاهرة، حتى جاءت عصورُ الضَّعف والتقليد، فوقفت عند كتبٍ بعينها، وقلدت أشخاصًا بأعيانهم.، فتأخر المسلمون وتقدم غيرهم حتى سبقوهم في مجال البحث والتجربة، مع أن علماء المسلمين هم الذين علَّموا علماء أوربا أصول البحث ووضعوا لهم قواعده ..

ولا تزال الفرصة سانحةً للنهضة والتقدم إذا ما رجع المسلمون إلى أصول دينهم الحنيف الذي يفتح أبوابَ المعرفة، ويحثُّ الإنسان على استجلاء حقائق الكون، والتَّعرف على قوانينه؛ من أجل خدْمة الإنسانيَّة، وتيسير سبلِ الحياة أمام جميع البشر.

* * *

لماذا أحرقوها؟

هذا وقد حافظ المسلمون على ثقافات الأمم الأخرى وتراثها، وانتفعوا بما وجدوه صحيحًا نافعًا عملًا بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]. وقوله ﷺ: « الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ أَنَّى وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا » (٢).

---

(١) وعود الإسلام لجارودي (ص ١١٣ - ١١٥).

(٢) سبق تخريجه.

ولهذا حافظوا على الكتب التي وجدوها للفرس أو الروم أو اليونان، وقاموا بشرحها وتصويبها ..، حتى انتقلت إلى أوربا في مرحلة نهضتها ..

ولكن التعصبَ الأعمى ضدَّ المسلمين جعل الأسبانَ يحرقون الكتب العربيةَ بعد طرد المسلمين منها ..

ولنستمعْ إلى مؤرخ أسبانيٍّ معاصر هو « خوليان روبيرا » حيث يشهد على قومه فيقول: « وقد عرفت أسبانيا المسيحيةُ لقرون عديدة حملاتٍ بالغة البهجة ذات طابع شعبي للغاية تحتفل فيها بإحراق المخطوطات العربية » (١).

ثم يقول: ولكن أشهر هذه الحرائق على الإطلاق، وبه بدأت أسبانيا المسيحيةُ حملة التدمير، تمَّت في ميدان « باب الرَّملة » في مدينة غرناطة بأمر من الكاردينال « تيستيروس » وفيها التهمت النيران آلافًا من المخطوطات العربية القيِّمة ذات الخطوط الجميلة والتجليد الفنِّي ..

ولم يكن هذا الحريقُ غير مجرد « نُقْل » لفتح الشَّهية، وأصبح من المعتاد فيما بعد أن يتم إحراقُ الكتب بأمر من الملكة « دونيا خوانا ».

ففي عام (١٥٥١م) أمرت « المورسكيين » أي بقايا المسلمين في الأندلس، بأن يقدِّموا إلى المسئولين كل ما في حوزتهم من الكتب العربية؛ لفحصها على أن تردَّ لهم كتب الفلسفة وكتب الطِّب والتاريخ، على أن تحرقَ كتبَ الفقه والتشريع وكانت أكثر ما يملكون ..

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت « محاكم التفتيش » الأسبانية مختصَّةً بالفعل في التبليغ عن الكتبِ العربيةِ، وتقوم هي بإحراقها وعقابِ من تُوجد في حوزته وأصحابها (٢).

حتى ليذكر هذا المؤرخُ الأسبانيُّ ..: أنهم خافوا من كتابٍ وجدوه وكان في قواعد النحو؛ خوفًا من أن يكون قرآنَ محمد (٣).

إلى هذا الحد كان الخوفُ من الكتب العربية، وكان الحقدُ عليها والعداءُ لها، وإحراقها حتى لا يطَّلعَ عليها أحدٌ قد يتأثَّر بما فيها ..

---

(١) التربية الإسلامية في الأندلس لخوليان ريبيرا، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي (ص ٢٤٣)، دار المعارف، القاهرة (١٩٨١م).

(٢) المرجع السابق (ص ١٥١، ١٥٢).

(٣) المرجع السابق (ص ١٥٤).

وهذا ما برئ منه المجتمعُ الإسلاميُّ، بفضل سماحة الإسلام وسعة أفقِه، وإتاحته الفرصة للرأي والبحث والتفكير..

* * *

الرأي في مجال الدعوة والإصلاح

أمر اللّٰه سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه وهو دينه الذي ارتضاه لعباده، فقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ ﴾ [الحج: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ ﴾ [القصص: ٨٧]. وقال سبحانه: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ ﴾ [الشورى: ١٥].

فقد أمرت الآية الأولى الرسول ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه وبينت له وسيلة تلك الدعوة « بالحكمة والموعظة الحسنة ».

أمّا الآية الثانية فقد أمرته أن يدعو « إلى ربه » وكذلك الآية الثالثة.

أمّا الآية الرابعة فقد أمرته بالدعوة « لذلك » واسم الإشارة، يعود إلى ما سبق هذه الآية من سورة الشُّورى، فقد سبقت بقوله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿ فَلِذَٰلِكَ ﴾ أي: لوحدة الدين الحق، وعدم التفرق فيه والاختلاف حوله ﴿ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ ﴾ أي: لا تنحرف في دعوتك ولا تتبع الهوى..

وعن الآية الأولى قال الزمخشريُّ: ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحقِّ المزيل للشبهة، ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحُهُم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها.

ويجوز أن يريد القرآنَ أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة. ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طرقِ المجادلة من غير فظاظةٍ ولا تعنيفٍ [١].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٥٠٢/٢)، ط المكتبة التجارية – القاهرة (١٣٧٣).

• وبهذا بيَّن القرآنُ هدفَ الدَّعوة وأسلوبها، وجعل لرأي الدَّاعي وفكره الراشد مجالًا واسعًا.

فالحكمة: هي وضعُ الشيءِ في موضعه، وفي القاموس: الحكمة: العدل والعلم والحلم. وهي أمورٌ عقليةٌ وعلميةٌ وخلقيةٌ يستخدمها الداعي إلى سبيل اللَّه؛ لتحقيق الأثر المطلوب.

فالدَّاعي إلى الحقِّ محتاجٌ إلى إعمال الفكر، وإجالة الرَّأْي في اختيار أحسن الأساليب الموصِّلة إلى النجاح في الدعوة والتأثير فيمن يدعوهم.

ولو نظرنا إلى الأساليب النَّبَويَّة في الدعوة منذ حمل أمانَتَها محمدٌ ﷺ حين تلقَّى الأمرَ الإلهيَّ العظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١، ٢]. وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. لرأينا تنويعَ الأساليب واختيار الطُرُقِ المشوِّقة للدعوة التي تناسب حال المخاطبين..، ولم تكن هناك صيغةٌ واحدةٌ يردِّدُها الدَّاعي إلى الحقِّ لا يغيِّرُها ولا يحيدُ عنها..

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما أنزل اللَّه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النَّبِي ﷺ الصَّفا، فصعد عليه ثم نادى: « يَا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسولَه، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي فِهْر يَا بَنِي كَعْبٍ أَرَأَيْتُمْ لَو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيكُمْ صَدَّقْتُمُونِي؟** » قالوا: نعم. قال: « **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَاب شَدِيد** ». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم! أمَا دعَوْتنا إلا لهذا؟! وأنزل اللَّه ﷻ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١][1].

وروى أحمد أيضًا بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول اللَّه ﷺ قريشًا فعمَّ وخص فقال: « **يَا مَعْشَرَ قُرَيشٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا معْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيئًا إِلَّا أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سأبلّها بِبلالها** ».

قال ابن كثير رحمه الله: « والمقصود أن رسول اللَّه ﷺ استمر يدعو إلى اللَّه تعالى ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا لا يصرفه عن ذلك صارفٌ، ولا يردُّه عن ذلك رادٌّ، ولا يصدُّه عن

---

(١) مسند أحمد (١/٢٨١ - ٣٠٧)، وصحيح البخاري، كتاب التفسير سورة المسد.

ذلك صادٌّ، يتبع الناسَ في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحجِّ.

يدعو مَنْ لَقِيه من حرٍّ وعبدٍ، وضعيفٍ وقويٍّ، وغنيٍّ وفقيرٍ، جميع الخلْق في ذلك عنده شَرعٌ سواء » (١).

• والناظر فيما صحَّ عنه ﷺ من الحديث يلاحظ الخاصيَّةَ التي تحدث عنها ﷺ في قوله: « **أُعْطِيتُ خَمسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي** » وذكر منها: « **وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** » (٢).

فأحاديثه ﷺ ذات أثرٍ بالغٍ في الإقناع والتعليم والتقويم والإرشاد.

وقد جمع ﷺ في بيانه بين الخبر والتصوير، والخطبة والقصة، والموعظة والمثل، واستخدم التشويق وتهيئة ذهن المخاطب؛ ليتلقى الحقيقةَ التي يُفْضي بها الحديث (٣).

ولا نستطيع هنا الاستفاضةَ في ضرب الأمثلة على ذلك من الحديث الشريف، فهذا أمرٌ يحوجُ إلى عشرات الكتب، وألوف الصفحاتِ..

ولكنا نضرب المثل بحديثين من أحاديث التربية والإصلاح في الحديث النبويِّ أحدهما: قوله ﷺ فيما رواه الترمذي وأحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ** ». قالوا: إنا لنستحيي من الله يا رسول الله والحمد لله. قال: « **لَيسَ ذَاكَ، مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ الْمَوتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الْأُولَى** » (٤).

فقد أراد النَّبِي ﷺ أن يلفت أنظارَ أصحابه إلى حقيقة الحياءِ وأن يعلِّمهم كيف يتصفون به عملًا وسلوكًا، لا أن يكون حظُّهم منه الادعاء، فبدأها بهذا الأمر الموجز: « **اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ** ».

وهو أمرٌ تعليميٌّ يهدف إلى إثارة الانتباه وإيقاظ الشُّعور بأنَّ هناك أمرًا يغيب عن أذهان المخاطبين.

ولذلك كان الجواب يتضمن طلب المزيد من المعرفة وإيضاح المقصود من هذا الأمر فقالوا: إنا لنستحيي من الله يا رسول الله والحمد لله، حسب علمنا بمعنى هذه الكلمة

(١) السيرة النَّبويَّة لابن كثير (٤٥٧/١)، والحديث في المسند (٢٣٣/٢).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد باب رقم (١٢٢).
(٣) يراجع كتاب البيان النبوي، للدكتور محمد رجب البيومي مرجع سابق.
(٤) سنن الترمذي في كتاب القيامة وأحمد في مسنده (٣٨٧/١).

وما نحيط به من دلالاتها.

وهنا يتهيَّأ الموقف للتعليم والإرشاد ولرسم حدود الحياء الكامل، وتوضيح حقيقته من كل جانب، فقال النَّبِي ﷺ: « لَيْسَ ذَاكَ » أي:ليس المقصود من الحياء هو ما تعلمونه عنه من معنى ضيِّقٍ، وهو: ترك الظهور بالمظهر القبيح، و التورع عن المجاهرة بالآثام، بل إن للحياء الكامل والجدير بلفظ الحياء عن حقيقة أفقًا أعلى من ذلك وأرحبُ. إن الحياء حق الحياء أن يراقب الإنسان ربه في السر والعلن، وألا يستتر عن الخلق ثم يجاهر بالمعاصي ربَّه، ومن هنا، فإن على المؤمن أن يحفظ كل جوارحه وأن يمتلك زمام كل غرائزه، وأن يجعل كل حواسه مقيدة بقيود الإيمان خاضعة لتوجيهه..

• والحديث الثاني هو ما رواه البخاريُّ في صحيحه بإسناده عن معاذ بن جبل ﷺ قال: بيْنا أنا رديف النَّبِي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحل فقال: « معاذ » قلت: لبيك يا رسول اللّه وسعديك ثم سار ساعة فقال: « يا معاذ » قلت: لبيك يا رسول اللّه وسعديك. قال: « هلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللّه عَلَى عِبَادِهِ؟ » قلت: اللّه ورسوله أعلم قال: « حَقُّ اللّه عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »، ثمَّ سار ساعةً، ثم قال: « يَا مُعَاذَ ابْنَ جَبَلٍ » قلت: لبيك رسول اللّه وسعديك، ثمَّ سار ساعة فقال: « يا معاذ »، قلت: لبيك يا رسول اللّه وسعديك. قال: « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟ » قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: « حق العباد على اللّه: أَلاَّ يُعَذِّبُهُم » (١).

فهذا الحديث الشريف نموذج للأسلوب التعليميِّ التَّوجيهي، فقد أراد النَّبِي ﷺ أن يعلم المؤمنين حقيقةً جامعةً للدين كله، تبين لهم ما يجب عليهم من حقوق اللّه سبحانه وما يستحقونه إن هم أحسنوا القيامَ بهذه الحقوق، فاختار للإفضاء بهذه الحقيقة ذلك الأسلوب المشوِّق الذي يشدُّ الانتباه، ويوقظ الوعيَ في نفس الإنسان، أسلوب السؤال والجواب، وكان السَّائل والمجيب هو الرَّسول ﷺ.

وقد علَّمنا ﷺ في هذا الحديث كيف تكون إثارةُ الانتباه، وكيف يتم إعداد المخاطب، وتهيئة ذهنه لتلقي الحقائق والمعلومات مما لا نستطيع تفصيله في هذا المجال.

والمهم أن نعلم أنَّ النَّبِي ﷺ قد استجاب لأمر ربه سبحانه إذ قال له: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقد أعانه على ذلك ما خصَّه اللّه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب « من جاهد نفسه في طاعة اللّه ».

به من جوامع الكلم أيْ الكلمات القليلة التي تحوي معاني واسعة ..، وما رزقه من سلامة الفطرة وكمال العقل والقدرة على التَّأثير والإقناع ..

طريق الدعوة:

وقد سلك أصحابه سبيله، فدعوا إلى اللَّه بكلماتهم النَّافعة وخاصة الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ رضوان اللَّه عليهم أجمعين، وكذلك الصحابة والتابعون.

وقد كانوا أيضًا يميلون إلى الإيجاز وجمال اللفظ وحسن إيحائه، وذلك واضح فيما نقل عنهم.

فمن كلام أبي بكر ﷺ ما رواه الأوزاعيُّ عن يحيى بن أبي كثير أن أبا بكر الصِّديق ﷺ كان يقول في خطبته:

« أين الوُضاة الحسنةُ وجوههم؟ أين المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصَّنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور، الوحا الوحا النَّجا النجا! » (١).

ومما رُوِيَ عن الصحابي الجليل ابن مسعود ﷺ أنه كان يقول: إنكم في ممرِّ الليل والنهار، في آجال منقوصةٍ وأعمال محفوظةٍ والموت يأتي بغتةً، فمن زرع خيرًا، فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًّا يوشكُ أن يحصد ندامة، ولكل زارع ما زرع (٢).

وكتب الإمام الأوزاعيُّ إلى أخ له: أمَّا بعد فإنه قد أحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر اللَّه والقيام بين يديه وأن يكون آخر عهدك به والسلام (٣).

وعن الفضيل بن عياض قال: بلغني أنَّ رجلًا كتب إلى داود الطائيِّ أن عِظْني بموعظة، قال: فكتب إليه: « أما بعد فاجعل الدُّنيا كيوم صُمته عن شهوتك، واجعل فطرك الموت فكأن قد. والسلام ».

قال: فكتب إليه: زدني: فكتب إليه:

« أما بعد فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك، كما رضي أقوام بالكثير مع

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (ص ٦٦٨)، ط القاهرة (١٣٨٠هـ).

(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر السابق (ص ٦٦٩).

ذهاب دينهم والسلام » [١].

• ولا يمكن هنا حشد المزيد من أقوال الصَّحابة والتابعين وتابعيهم في التَّزهيد في الدنيا والتَّرغيب في عمل الآخرة والحثِّ على الاستقامة على شعائر الإسلام، فقد جمعت هذه الأقوال في كتبٍ كثيرةٍ شهيرةٍ معروفةٍ.

ولكننا نلفت النظر هنا إلى كلام الحسن البصريِّ رحمه الله، الذي نفع اللَّه به المسلمين في عصره وبعده حتى يوم الناس هذا، فقد كان ذَوْب عاطفة وفيض شعور ممزوج بجمال اللفظ وإيجازه وحسن إيقاعه.

وقد أورد له الإمام أحمد رحمه الله في كتاب الزُّهد طرفًا واسعًا منه. نقتبس منه هنا بعض الأمثلة:

« إنَّ هذا الحق جَهَد الناسَ وحال بينهم وبين شهواتهم، وإنما صبر على هذا الحق مَنْ عرف فضله ورجا عاقبته، إنَّ من الناس ناسًا قرأوا القرآن لا يعملون سيئة، وإنما أحقُّ الناس بهذا القرآن من اتبعه بعمله وإن كان لا يقرؤه، إنَّك لتعرف الناس ما كانوا في عافية، فإذا نزل بلاء صار الناسُ إلى حقائقهم، صار المؤمن إلى إيمانه والمنافق إلى نفاقه » [٢].

وعن الحسن قال: « اقرأ القرآنَ ما نهاك، فإذا لم يَنْهك فلست تقرؤه، ربَّ حامل فقه غير فقيه، ومن لم ينفعه علمه ضرَّه جهله » [٣].

وقال: « إنَّ المؤمن في الدنيا غريب، لا يجزع لها، ولا ينافس أهلها في عزِّها، الناس منه في راحة ونفسه منه في شغل، فطوبى لعبد كسب طيبًا وقدَّم الفضل ليوم فقره وفاقته، وجِّهوا هذا الفضل حيث وجَّهه اللَّه، ولا تلقوها هاهنا فيما يضركم » [٤].

وقال: « يرحم اللَّه رجلًا لم يغره ما يرى من كثرة الناس، ابن آدم تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك، وتدخل القبر وحدك، ابن آدم أنت المعنيّ وإياك يراد » [٥].

وأحمد بن حنبل نفسه كانت له كلماتٌ موجزةٌ نافعة، عليها سيما الصِّدق، وحرارة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الزهد للإمام أحمد (ص ٢٨٧)، طبعة مصورة بدار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.

(٣) المرجع السابق (ص ٢٨٥).

(٤) المرجع السابق (ص ٢٧٣).

(٥) المرجع السابق (ص ٢٧١).

العاطفة. فقد رُوِيَ عنه أنه قال « عزيزٌ عليَّ أن تذيب الدُّنيا أكباد رجال وعتْ صدورهم القرآن » (١).

وقال ابنه عبد اللَّه: قلت لأبي يومًا: أوصني يا أبتِ فقال: « يا بنيَّ انْوِ الخير، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير » (٢).

وعن عليِّ بن المديني قال: ودعت أحمد بن حنبل فقلت له: توصيني بشيء؟ قال: نعم، اجعل التقوى نصبَ عينيك (٣).

وكلام الزُّهاد والعبَّاد أكثر من أن يحصر في مجال، فهو منتشرٌ في تراثنا الإسلاميِّ الزَّاهر..

وفي كل ذلك تنوعت الأساليبُ وظهرت الأفكارُ والآراء التي تدعو إلى الخير وتنهى عن الشر، ونورد هنا رسالة عبَّاد بن خوَّاص الشامي التي أثبتها الدارميُّ في سننه في كتاب العلم قال: « أما بعد. اعقلوا والعقل نعمةٌ، فربَّ ذي عقل قد شغل قلبه بالتعمق فيما هو عليه ضررٌ عن الانتفاع بما يحتاج إليه، حتى صار عن ذلك ساهيًا، ومن فضْل عقلِ المرء: ترك النَّظر فيما لا نظر فيه، حتى لا يكون فضل عقله وبالًا عليه في ترك مناقشة مَنْ هو دونه في الأعمال الصَّالحةِ أو رجل شغل قلبه ببدعة قلّد فيها في دينه رجالًا دون أصحاب رسول اللَّه ﷺ، أو اكتفى برأيه فيما لا يرى الهدى إلا فيها، ولا يرى الضَّلالة إلا تركها، بزعم أنه أخذها من القرآن وهو يدعو إلى فراقِ القرآن!

أفما كان للقرآن حَمَلة قبله وقبل أصحابه يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، وكانوا فيه على منارٍ أوضح الطريق، وكان القرآن إمامَ رسول اللَّه ﷺ، وكان رسول اللَّه ﷺ إمامًا لأصحابه، وكان أصحابه أئمةً لمن بعدهم، رجال معروفون منسوبون في البلدان، متفقون في الرد على أصحاب الأهواء مع ما كان بينهم من الاختلاف.

وتسكَّع أصحاب الأهواء برأيهم في سبل مختلفة جائرة عن القصد مفارقة للصراط المستقيم، فتوّهت بهم أدلاؤهم في مهامه مضلة، فأمعنوا فيها متعسفين في هيآتهم، كلما أحدث لهم الشَّيطان بدعةً في ضلالتهم انتقلوا فيها إلى غيرها؛ لأنهم لم يطلبوا أثرَ السالفين ولم يقتدوا بالمهاجرين.

(١ - ٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ٢٠٠)، دار الآفاق.

وقد ذُكر عن عمر ﷺ أنه قال لزياد: هل تدري ما يهدم الإسلام؟ زلة عالم، وجدال منافق، وأئمةٌ مضلُّون.

اتقوا اللَّه، وما حدث في قرائكم وأهل مساجدكم من الغيبة والنميمة والمشي بين الناس بوجهين ولسانين، وقد ذُكر أنه من كان ذا وجهين في الدنيا كان ذا وجهين في النار..

فيا لعباد اللَّه! أما في القوم من رشيدٍ ولا مُصلح به ويقمع هذا عن مكيدته ويرده عن عرض أخيه المسلم، بل عرف هواهم فيما مشى به إليهم فاستمكن منهم وأمكنوه من حاجته فأكل بدينه مع أديانهم.

فاللَّه اللَّه، ذُبُّوا عن حُرَم أعيانكم، وكُفُّوا ألسنتكم عنهم إلا من خير، وناصحُوا اللَّه في أئمتكم إذ كنتم حملة الكتاب والسُّنَّة، فإنَّ الكتاب لا يَنْطق حتى ينطق به، وإن السُّنَّة لا تعمل حتى يُعْمل بها.

فمتى يتعلم الجاهل إذا سكت العالم فلم ينكر ما ظهر، ولم يأمر بما ترك، وقد أخذ اللَّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيِّننه للناس ولا يكتمونه.

اتقوا اللَّه فإنكم في زمان رقَّ فيه الورع، وقلَّ فيه الخشوع، وحَمل العِلمَ مُفْسدوه، فأَحَبُّوا أن يُعرفوا بحمله وكرهوا أن يُعرفوا بإضاعته، فنطقوا فيه بالهوى بما أدخلوا فيه من الخطأ، وحرَّفوا الكلم عما تركوا من الحقِّ إلى ما عملوا به من باطل، فذُنوبهم ذُنوبٌ لا يستغفر منها، وتقصيرهم تقصيرٌ لا يعترف به، كيف يهتدي المستدلّ المسترشد إذا كان الدليل حائرًا، أحَبّوا الدنيا وكرهوا منزلة أهلها، فشاركوهم في العيش وزايَلُوهم بالقول، ودفعوا بالقول عن أنفسهم أن يُنسبوا إلى عملهم، فلم يتبرأوا مما انتفوْا منه، ولم يَدْخلوا فيما نسبوا إليه نفسهم لأنَّ العامل بالحق متكلمٌ وإن سكت.

وقد ذُكر أن اللَّه تعالى يقول: إني لستُ كلَّ كلام الحكيم أتقبل، ولكني أنظر إلى همه وهواه، فإنْ كان همُّه وهواه لي جعلت صَمْته حمدًا ووقارًا وإن لم يتكلم.

وقال اللَّه تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥] كتبا، أي لم يعملوا بها. وقال: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣]. قال: العمل بما فيه، ولا تكتفوا من السُّنَّة بانتحالها بالقول دون العمل بها، فإن انتحال السُّنَّة دون العمل بها كذبٌ بالقول مع إضاعة العلم [(١)].

---

(١) سنن الدارمي (١/١٦٠ – ١٦٢) مرجع سابق.

• ومضى عباد بن عباد الخواص في رسالته إلى أهل العلم قائلًا: « ولا تعيبوا البدعَ تزيُّنا بعيبها، فإن فساد أهل البدع ليس بزائد في صلاحكم، ولا تعيبوها بَغْيًا على أهلها، فإن البغي من فساد أنفسكم، وليس ينبغي للمُطِبِّب أن يداوي المرضى بما يبرئهم ويمرضه، فإنه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم، ولكن ينبغي أن يلتمس لنفسه الصِّحةَ؛ ليقوى بها على علاج المرضى.

فليكن أمرُكم فيما تنكرون على إخوانكم نظرًا منكم لأنفسكم ونصيحة منكم لربكم وشفقة منكم على إخوانكم، وأنْ تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعْنى منكم بعيوب غيركم وأن يستفطم بعضكم بعضًا النصيحة، وأن يَحظى عندكم من بذلها لكم. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: « رحم الله مَنْ أهدَى إليَّ عيوبي ».

تحبون أن تقولوا فيحتمل لكم، وإن قيل لكم مثل ذلك أفلا تحبون أن يؤخذ عليكم؟! اتهموا رأيَكم ورأيَ أهل زمانكم، وتثبَّتوا قبل أن تكلموا، وتعلّموا قبل أن تعملوا، فإنه يأتي زمان يشتبه فيه الحق والباطل، ويكون المعروف فيه منكرًا والمنكر فيه معروفًا، فمنكم مقتربٌ إلى الله بما يباعده، ومتحببٌ إليه بما يُبغضه عليه، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨]. الآية فعليكم بالوقوف عند الشُّبهات حتى يبرز لكم واضح الحق بالبينة، فإن الداخل فيما لا يعلم بغير علم آثم، ومن نظر لله نظر الله له.

عليكم بالقرآن فأْتمُّوا به وأُمُّوا به، وعليكم بطلبِ أثر الماضين فيه، ولو أن الأحبار والرُّهبان لم يتقوا زوال مراتبهم وفساد منزلتهم بإقامة الكتاب وتبيانه ما حرَّفوه ولا كتموه، ولكنهم لما خالفوا الكتاب بأعمالهم التمسوا أن يخدعوا قومهم عمَّا صنعوا؛ مخافةَ أن تفسد منازلُهم وأن يتبين للناس فسادهم، فحرَّفوا الكتاب بالتفسير وما لم يستطيعوا تحريفه كتموه، فسكتوا على صنيع أنفسهم؛ اتقاء ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه، بل مالوا عليه ورفقوا لهم فيه » [١].

• إنَّ هذه الرسالةَ الرائعةَ أثرٌ من آثار حُرِّيَّة الرَّأي في الإسلام، ففيها نقد هادف مخلصٌ لأهل العلم والمشتغلين بالدعوة والفتوى والتوجيه ..، وفيها نهيٌ عن التباهي بذم البدع والعيب على أهلها دون محاولة للإصلاح ..، وفيها نهي عن الرِّياء والتَّظاهر

(١) سنن الدارمي (١/١٦٢، ١٦٣).

ومناقضة الأقوال للأفعال ..

والناظر في آثار العلماء الذين اشتغلوا بالدعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يرى أنهم لم يتركوا خللًا إلا نبهوا إليه، ولا اعوجاجًا إلَّا اشتغلوا بتقويمه ..

فإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو طريق الإصلاح في المجتمع المسلم. وقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فقد جمعت هذه الآيةُ بين الدَّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيَّنت أنَّ هذا هو طريق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

المهمة الكبرى:

وهذه هي المهمةُ الكبرى في المجتمع الإسلاميِّ التي يشارك فيها كل أفراده رجالًا ونساء، كما قال الحق سبحانه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن هنا قال ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما: « **ليس منا من لم يوقِّر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف، وينْـه عن المنكر** » (١).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النَّبِي ﷺ قال: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنهونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيكُمْ عِقَابًا مِن عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبَ لَكُمْ** » (٢).

وهذا يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةً على كل مسلم ومسلمة بحسب الاستطاعة والقدرة.

والأداةُ الأساسيةُ في الأمر بالمعروف: هي الدعوة والإقناع والتلطُّف في الأساليب التي تحقق الاستجابة. أما تغيير المنكر فله مراتب: أولُّها باليد لمن له قدرةٌ على ذلك من أصحاب

---

(١) سنن الترمذي، كتاب البر، باب رقم (١٥)، ومسند أحمد (٢٥٧/١).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب رقم (١٧)، وسنن الترمذي، كتاب الفتن، باب رقم (٩)، ومسند أحمد (٣٨٨/٥).

المسئولية والقرار في المجتمع، ثم باللسان لمن لا يملك إلا الكلمةَ، ثم بالقلب والكراهية للمنكر عندما يكون التَّغيير باللسان غَيْرَ ممكن..

كما جاء في الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري أن النَّبِي ﷺ قال: « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ** »[1].

وقد قام الأئمةُ والمصلحون في تاريخ الإسلام بهذا الواجب عن طريق الدعوة القوليةِ والقدوة العمليةِ، وعن طريق الكتابة والتأليف.

فالإمام أبو العباس ابن تيمية قام بواجبه نحو الدين والأمة ورفع لواء الإصلاح ونقد كل انحراف في العقيدة أو الفكر أو السُّلوك. **وقد لخَّص الشيخ أبو الحسن الندوي – يرحمه الله – اتجاه ابن تيمية في جوانب الدعوة والإصلاح فجعله في أركان أربعة:**

١ – تجديد عقيدة التوحيد وإبطال العقائد والتَّقاليد الشِّركية.

٢ – نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وترجيح منهج الكتاب والسُّنَّة وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب.

٣ – الرَّدُّ على الفرق والملل غير الإسلاميَّةِ، ومقاومة عقائِدِها وتقاليدها وتأثيرها.

٤ – تجديد العلوم الشرعيَّة وبعث الفكر الإسلاميِّ [2].

وتحت عنوان: مهمته الإصلاحيَّة ومعارضته للعقائد المشركة يقول: رفع ابن تيمية لواءَ الجهاد والتجديد محاربًا لهذه الأعمال والأفكار والتقاليد المشركة الرائجة، لا يبالي في ذلك بسخط العامة وغضب الخاصة وعتابهم، وضرب على جذور تلك العقائد والآراء التي كانت أساس هذه الأعمال والتقاليد المشركة والذي دفع العامة من الناس إلى زيارة هذه القبور وممارستهم لهذه الأعمال والتقاليد المشركة، هو أنَّهم إنما كانوا يدعون أصحابها؛ لتحقيق أغراضهم ومآربهم، فكانوا يستغيثون ويستعيذون بهم.

وقد صرَّح ابن تيمية في مؤلفاته أن دعاء غير اللَّه لا يجوز البتة، وهو شرك جلي دخل

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم (٧٨)، وسنن الترمذي، كتاب الفتن، باب رقم (١١)، ومسند أحمد (٣/٢٠).

(٢) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ أبي الحسن الندوي، تعريب سعيد الندوي، الطبعة الرابعة، دار القلم بالكويت (١٤٠٧هـ).

فيهم بجهالتهم واختلاطهم بغير المسلمين [١].

* * *

ولو ذهبنا نتتبع آثارَ ابن تيمية العلميةَ وآراءه النّقدية للفكر والسُّلوك لطال بنا الأمر وما استطعنا الحصر والإحصاء..، فهذه فتاواه التي تزيد أجزاؤها على ثلاثين جزءًا وهذه كتبه الضَّخمة مثل « درء تعارض العقل والنقل » - و « منهاج السُّنَّة » - و « الرد الصحيح على من بدَّل دين المسيح »، ورسائله العديدة التي تتناول العقيدة والفكر والسلوك، ولا تزال هذه الكتب موردًا عذبًا ومنهلًا سائغًا وضياءً كاشفًا لمن أراد معرفة حقيقة الإسلام ومنهجه في إصلاح الفرد والمجتمع..

وقد تسلَّح ابن تيمية رحمه الله بمعرفةٍ واسعةٍ وعلم محيط بالأصول والفروع.. كما أعانه أسلوبه الأدبيُّ المشرق الذي لا تعوقه قيودٌ ولا تثقله زخارفٌ لفظية.

● وكان الرَّأي المحمود هو أداةُ الإقناع والدعوة إلى الإصلاح مما كان له أثره البالغ في عصره وما بعده.

ولا ننسى جهودَ شمس الدين ابن القيم تلميذ ابن تيمية ورفيقه في الدعوة والإصلاح الذي سار على درب أستاذه وكان له استقلاله في أسلوبه ومنهجه، مما تجلى في مئات الكتب التي صنفها والقضايا التي عالجها، وكان له أسلوب أدبي مشرق جميل وكانت له طريقة في الإقناع والاستدلال ولا يتسع المجال هنا لاستعراض مصنفاته وتجلية آرائه ومناقشاته.. فتراثه بحمد اللَّه محفوظ ميسر لمن أراد.

جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

لقد اقتفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب المولود في العيينة بنجد عام (١١١٥هـ) أثر الإمام ابن تيمية، في الدَّعوة إلى صفاء عقيدة التوحيد والبعد عن آثار الجاهليَّة وسمات الوثنية.. وكتب في ذلك كتبًا ورسائل طارت إلى الآفاق، إلى جوار التدريس والدعوة شفاهة. وجاهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - يرحمه اللَّه - جهادًا عنيفًا في نشر الدعوة وإقامة الحجة والدعوة إلى إصلاح الغقيدة والعودة إلى المنابع الصَّافية من الكتاب والسُّنَّة وما كان عليه سلف الأمة.

---

(١) المرجع السابق (ص ١٥١).

وأعظم آثار إصلاح الإمام ابن عبد الوهاب هو إيقاظ العقليَّة الإسلاميَّة بعد سُبَاتها، وأعظم ما أفاده العقل العربي المسلم والعقل الإسلاميّ من دعوته ومن فكرته في الإصلاح: تفتح العقل وتحريره من ربقة الخرافات والبدع، وإيمانه بأن العبادة للّه وحده لا لمَلَكٍ مقرَّب ولا لنبيٍّ مرسل ولا لولي صالح، ولا لقبرٍ أو ضريحٍ، وصفاء العقيدة بعد أن كدَّرتها الخرافات والبدع والشِّركيات والوثنيات (١).

ويقول الدكتور محمد البهيّ عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب وحركته الإصلاحية: « وهي تعتبر قنطرة لآراء ابن تيمية، مرَّت عليها إلى الأجيال القادمة، وتعضيد السلطات الرسمية السعودية أعطاها قوة البقاء والاستمرار.

وآراء ابن تيمية، وإن تمسَّك في الفقه بمذهب الإمام أحمد بن حنبل تضمنت أو قامت على النَّقد العلميّ للمذاهب الإسلاميَّة الأخرى، وإن لم يبلغ هذا النقد درجةً عليا في الحَيْدة وعدم التَّأثر بالجانب الشخصيّ فيه (٢).

ولهذا تعتبر « الحركةُ الوهابيةُ » (٣) بعده: الحركة الإسلامية التي حوتْ بذور النقد بصفة عامة وقدمتها إلى الحركات الإسلامية الأخرى في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

ومن أجل ذلك تعتبر تمهيدًا لهذه الحركات، كما تعتبر نوعًا من « التقدمية » بالقياس إلى عصور التبعية المطلقة؛ لأنَّ طابعَ النَّقد صاحبها (٤).

وقد كتب الأستاذ أحمد أمين فصلًا ضافيًا في كتابه « زعماء الإصلاح » عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته وأثرها في إصلاح العقيدة، والكف عن التَّقليد والدَّعوة إلى إعمال العقل والرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة وما كان عليه السلف.

كما عُقِدت مؤتمراتٌ علميةٌ عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجوانبها العلمية والدعوة وآثارها في العالم الإسلاميّ. ولا يتسع المجال هُنا لاستعراض هذه البحوث والإشارة إلى عناصرها وأفكارها ..

---

(١) محمد عبد الوهاب للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار (ص ١٢٤) - الطبعة الرابعة (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م)، مكتبة العرفان - بيروت.

(٢) هذا هو رأي الكاتب، وهناك علماء كثيرون شهدوا لابن تيمية بالحيدة والتجرد العلمي.

(٣) هكذا يسميها بعض الباحثين والأولى أن يقال: « دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب ».

(٤) الفكر الإسلامي في تطوره للدكتور محمد البهي (ص ٨٠) - الطبعة الثانية (١٤٠١هـ - ١٩٨٦م)، مكتبة وهبة، القاهرة.

• والذي يعنينا أن ميدان الدَّعوة إلى الإصلاح واسعٌ فسيحٌ يحتاج إلى الرَّأي المحمود الصَّائب، والشَّجاعة في الحقِّ وعدم التعصُّب للمذاهب، وعدم الجمود على المواقف، بل ينبغي أن يكون الحوار وسيلةً التفاهم، وأن يكون البحث عن الصَّواب هو هدف البحث والمناظرة.

وها هي مئات الكتب، بل ألوفها حافلةٌ بالدعوة إلى الإصلاح واضحةٌ في إنكار المنكر ورد الانحراف، مما يعد ثروةً فكريةً عظيمةً ورثتها أمة الإسلام، وعليها الحفاظ عليها والانتفاع بما فيها.

لقد أدرك الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب أنَّ سبب انحرافِ المسلمين عن إسلامهم الصحيح هو انشغالُهم بكتب المتأخرين عن النَّظر في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبَوِيَّة. وكان ذلك راجعًا إلى اعتقاد الناس استحالةَ وصولِهم إلى مرتبة الاجتهاد.

ولهذا آمن الشيخ وعلماء دعوته بأنه لا سبيلَ إلى إصلاح الأمة إلا تحطيم قيود التقليد والعودة إلى النظر في القرآن والسُّنَّة.

وليس القرآن بِعَصِيِّ المعنى وليست السُّنَّة مستعصيةً على طالبي فهمها ..، ولا يقال إن تأثر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية وتلميذه ابن القيم تقليد لهما، وإنما هو موافقةُ الحقِّ للحقِّ.

• إنَّ معنى التقليد أن تؤخذ قضايا الأولين مسلَّمةً من غير نظرٍ في الأدلة، وأما الإيمان بها عن دلَيل وإقناع فلا يسمى ذلك تقليدًا. لذلك فالشيخ وعلماء الدَّعوة لا ينكرون على أحد اتِّباعه أحد المذاهب الأربعة دون غيرهم؛ لعدم ضبط المذاهب الأخرى، وهم يرون أنه لا يوجد أحدٌ يستحق مرتبةَ الاجتهاد المطلق.

أما الاجتهاد في بعض المسائل فلا مانع عندهم. لذلك نجد للشيخ وبعض علماء الدعوة اجتهاداتٍ في بعض المسائل مع مخالفتها لمذهب الحنابلة ..

ولهذا يقرِّر كثيرٌ من الباحثين أنَّ من أبرز معطيات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب العودة بعلماء المسلمين إلى الاجتهاد في الفروع، بعد أن كان ذلك معدومًا أو شبه معدوم [1].

---

(١) رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور محمد بن عبد الله السلمان، إصدار نادي القصيم ببريدة، سنة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

لقد كانت الدعوةُ إلى الاجتهاد وسيلةً من وسائل الإصلاح التي تبنَّاها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب؛ لكسر جمود التقليد، وإزالة قيود التعصُّب الأعمى للمذاهب والشخصيات وبهذا ينفسح المجال أمام الرَّأْي العلمي النزيه والفكر الإصلاحيِّ الصائب.

• وممن سار على درب الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب في الدعوة والإصلاح الشيخ محمد رشيد رضا منشئ مجلة « المنار » الذي كان داعيةً من مناصري هذه الدعوة والملتزمين بآفاقها، وكانت له اجتهاداتٌ خاصَّةٌ ومراسلاتٌ مع بعض علمائها، وكان لبعضهم ملاحظاتٌ على منهج مجلة المنار، وكان الشيخُ يرد عليها في المنار كذلك [(١)].

ولم يتوقف ركبُ الدعوة إلى الإصلاح ونقد أحوال المجتمع الإسلاميِّ خلال العصور .. ونشير هنا إلى جهود الدَّاعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي - يرحمه اللَّه - الذي وقف جهده على الدعوة إلى تدارك الخلل وإزالة العيوب والاستقامة على المنهج الإسلاميِّ الكريم ..

ومن بين كتبه العديدة التي تزيد على أربعين نقف أمام كتابه « هموم داعية » الذي يقول في مقدمته:

« إننا عشنا لنرى دكَّ مدن عظام، وتمزيقَ أمَّةٍ كبيرةٍ، وغيبوبة الوعي الإسلاميِّ بإزاء آلام تحرِّك الرواسي!

ومع النشاط الهائل الذي يسود جبهة الأعداء، فقد رأيت بني قومي لا يزالون يمضغون خلافاتٍ جوفاء، وتسيطر عليهم أفكارٌ ضحلةٌ، وتسيِّرهم أهواءٌ قاتلةٌ وشهواتٌ غبيةٌ!

ومن حقِّي وأنا أحد المشتغلين بالدعوة الإسلاميةِ أن أصرِّح بأشجاني وأن أبثَّ همومي، إنه هَمٌّ، وثانٍ، وثالث!.

وفي عالم يبحث عن الحُرِّيَّة نصور الإسلام كأنه دين استبداد، وفي عالم يحترم التجربة ويتبع البرهان تنتشر فينا غيبياتٌ مستوردةٌ من عالم الجن وتهاويل مبتوتة الصلة بعالم الشهادة، وفي عالم تقارب فيه المتباعدون؛ ليحققوا هدفًا مشتركًا، فلا بأس أن يتناسوا أمورًا ليست ذات بال، في هذا الوقت نرى ناسًا من الدعاة يجترُّون أفكارًا بشريةً باعدت بين المسلمين من ألف عام؛ ليشُقُّوا بها الصفَّ ويمزقوا بها الشمل!

---

(١) يراجع كتاب رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق.

إنَّ الثقافة الإسلاميةَ المعروضة تحتاج إلى تنقيةٍ شاملةٍ، وإنَّ الدعاةَ العاملين في الميدان التقليديِّ يجب أن يُغَربلوا؛ لتتجنب السَّقط وتنفي الغلط » [(١)].

• وقد دعا الشيخ الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب إلى ترك المناوشات في الفروع، وبذل الجهد في سبيل تحقيق الغايات الكبرى التي جاء بها الإسلام، وترك التنطع والتعصب، واحترام الرَّأي والبحث عن الدليل.

ويطول بنا القول إذا حاولنا استقصاءَ جهود الدُّعاة إلى الإصلاح الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، خلال الأجيال الإسلاميَّةِ المتعاقبة ..، فإنهم لا يُحصون كثرة .. وإن آثارَهم لا يمكن أن تُحْصَر في نطاق ..

إن التراث الإسلاميَّ حافلٌ بالرَّوائع التي تكشف عن المجال الصحيح للرَّأي الصائب في مجال الدَّعوة والإصلاح، وإن كان كلام السَّلف في مجموعه أنفع من كلام المعاصرين!

* * *

(١) هموم داعية للشيخ محمد الغزالي (ص ١٢، ١٣)، طبع إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

الرأي في مجال المناقشة والجدل والحوار

هذه الأمةُ الإسلاميةُ أمةُ الحوار والمناقشة والجدل بالتي هي أحسن.

وقد ابتُلِيت خلال تاريخها بالفرق المختلفة والآراء المتعددة مما استوجب بذلَ الجهد العظيم في الإقناع والمناقشة وإقامة الدليل.

ومن العجيب أن أعداءَ هذا الدِّين والحاقدين على هذه الأمَّة، يزعمون أنَّ الإسلام بطبيعته يقمع الحرياتِ، ولا يتيح للإنسان التعبيرَ عن رأيه، وأنه يفرض مناطقَ حَظْر على الفكر والبحث ولا يتيح للعقل المجال الذي ينطلق فيه.

وهذا محضُ افتراءٍ لا سند له من الحقيقة ولا دليل عليه من شواهد التاريخ، بل هو على الضد تمامًا من حقيقة الإسلام وموقفه من حُرِّيَّة الرَّأي، ومن الحوار والجدل بالتي هي أحسن.

فالقرآن هو الذي جاء؛ لإيقاظ العقل من سُبَاته، وحثِّ الإنسان على التَّفكر والتَّدبر والوعي والبحث عن الحجة والدليل.

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ إلى حد أنه لا يمكن استقصاؤُها، أو جمعها في هذا المجال. ويكفي أن نقرأ قوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]. وقوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

فإذا تفكَّر الإنسانُ واهتدى إلى الحقيقة، فلابد له من أن يعبر عنها ويقيم الدليل عليها، وذلك هو البيان الذي امتن اللَّه سبحانه على الإنسان بتعليمه إياه، كما سبقت الإشارة إليه عند حديثنا عن البيان [1].

فالبيان هو الإبانة عما في النَّفس ونقل الأفكار بالكلمات؛ لتُحْدث أثرها في نفس من يسمعها، وتلك هي مسئوليةُ الإنسان عن الكلمة التي ينطق بها..

وقد بين القرآن أنَّ هناك كلمةً طيبةً وأخرى خبيثةً ..، وعلى الإنسان العاقل أن يتحرَّى الكلمةَ الطيبةَ، وأن يحذر الكلمة الخبيثة لما لها من أثر مدمر لنفسه وللآخرين.

---

(١) (ص ٦٢) وما بعدها من هذا البحث.

ويزعم المفترون أن الإسلام يضيق بالرَّأْي الآخر ولا يسمح بتعدد الآراء، وأنه يحجر على الفكر أن ينطلق في آفاقه الرحيبة، ويزعمون أن العالم قد عرف حُرِّيَّة الفكر والرَّأْي في عصر التنوير وبعد قيام الثورة الفرنسية.

وهذا خطأٌ جسيمٌ، وتجاهلٌ صارخٌ لأثر الإسلام في تحرير العقيدة والفكر والرَّأْي في هذا العالم.

• فانظر إلى موقف القرآن الكريم من الأديان الأخرى، وكيف دعا إلى الحوار وحثَّ على البحث عن الأدلة وابتغاء الحق الذي تقوم به الحجة: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

بل إنَّ القرآن يعلِّمنا أسلوبَ إنصاف الخصم وافتراض صدقه فيما يقول: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقد حكى القرآن مقولاتِ المشركين والأمم الغابرة..، كما حكى أقاويلَ فرعون الطاغية والشبهات التي كان يثيرها أمام دعوة موسى عليه السلام، كما ذكر مفتريات اليهود على اللَّه سبحانه وعلى أنبيائه ورسله، وأقوال المنافقين وغيرهم من طوائف الضالين، ثم رد عليها بالحجة وأقام البراهين على تناقضها وافترائها.

كقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨].

الحوار مع أهل الكتاب:

وقد دعا الإسلامُ إلى الحوار مع أهل الكتاب، وأرشد إلى أن يكون الجدل معهم بالتي هي أحسن، كما قال سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

كما دعا القرآن أهلَ الكتاب إلى الالتقاء على ﴿ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ بينها سبحانه بقوله:

﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ اشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفي السيرة النَّبَويَّة أن وفدًا من نصارى نجران قدموا على رسول اللَّه ﷺ بالمدينة فاستقبلهم في مسجده الشَّريف وأحسن وفادتَهم، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا وناقشهم في أمور العقيدة ..، ثم عادوا إلى بلادهم سالمين.

وقد جاء ذكر هذه المجادلة في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١].

كما جاء ذكرها في صحيح السُّنَّة في الحديث الذي رواه البخاريُّ بسنده عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيِّد صاحبا نجران إلى رسول اللَّه ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدُهما لصاحبه: لا تفعل فواللَّه لئن كان نبيًّا فلاعنَّاه لا نُفلح نحن ولا عَقِبنا من بعدنا.

فقالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا رجلًا أمينًا، فقال: « **لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ** » فاستشرف لها أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقال: « **قُمْ يا أبا عبيدة بن الجراح** » فلما قام قال رسول اللَّه ﷺ: « **هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ** » (١).

• واستمرَّ الحوار مع أهل الكتاب في أجيالٍ متعاقبةٍ عن طريق الكلمة والكتابة والتأليف فالجاحظ في القرن الثاني يؤلف رسالة في « الرَّد على النَّصارى » يناقش فيها مقولاتهم بالحجة والمنطق. وابن تيمية يؤلف كتابًا حافلًا يسميه « الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح » ومن قبله ألف الغزاليُّ رسالةً سمَّاها: « الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل » (٢).

• وفي مقدمته يقول:

« فإني رأيت مباحث النَّصارى المتعلقة بعقائدهم ضعيفةَ المباني، واهيةَ القُوى، وَعرةَ

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٨/٢) (ط الخيرية)، وقد جاءت قصة هذا الوفد في سيرة ابن هشام ودلائل النبوة للبيهقي (٣٨٢/٥ - ٣٨٩).

(٢) حققه وقدم له وعلق عليه الأستاذ عبد العزيز عبد الحق ونشره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

المسالك، يَقْضي المتأمل من عقول جنحتْ إليها عَجَبه، ولا يقف منْ تعقيدها على اليسير مِنْ أربه، ولا يعوِّلون فيها إلا على التَّقليد المحْض، عاضِّين بالنواجذ على ظواهر أطلقها الأولون، ولم ينهض بإيضاح مُشكلها لقصورهم الآخرون، ظانِّين بأن ذلك هو الشّرْع الذي شرعه لهم عيسى ﷺ، معتذرين عن اعتقادهم بما ورد من نصوص يعتقدون أنها قاهرة للفِكْر غير قابلة للتأويل وأن صَرْفها عن ظواهرها عسيرٌ » (١).

وبعد ذكر بعض المقدمات ووصف أنواع النَّصارى، ومواقفهم من كتابهم الذي يقدِّسونه ومن قضايا الفلسفة.

يقول الإمام الغزاليُّ: « إذا تقرر ذلك فلنشرع الآن في ذكر النصوص الدَّالة على التَّجوز في إطلاقه أي عيسى ابن مريم ﷺ ما يوهم الألوهيةَ على نفسه، والنصوص الدَّالة على التجوّز في مسألة الاتحاد كقوله: « أنا والآب واحد » و « من رآني فقد رأى الآب، وأنا في الآب والآب فيَّ »، ثم نتبع ذلك بذكر النصوص الدالة على إنسانيتهِ المحضة، ونجمع بينها وبين النصوص المثيرة لهم شُبَهًا نكصَتْ أفهامهم لقصورها عن تأويلها، فعموا بها وضلُّوا، بالغين في إيضاحها وكشف الغطاء عن مشكلاتها مبلغًا يرجع معه الحقُّ باهر الرواء ظاهر السَّناء » (٢).

• ولا تجد في هذه الرسالة التي سماها الغزاليُّ: « الرد الجميل » إلا حجةً صائبة ومنطقًا واضحًا ودعوة للحوار والمناقشة، دون تعصُّب ولا تقليد، فما أفسد الأديانَ إلا التعصُّب بغير نظرٍ، والتقليد الأعمى لمن سلف دون بحثٍ عن الأدلة.

إنه ردٌّ جميلٌ حقًّا ليس فيه سبابٌ ولا تهديدٌ، ولا وعيد ولا إكراه؛ لأن هدف الحوار أن يصبح الحقُّ باهر الرواء ظاهر السَّناء.

مما يدل على أنَّ المسلمين قد فتحوا باب الحوار على مصراعيه ولم يضِيقوا ذرعًا بالآراء المخالفة، وإنما بادروا إلى تمحيصها وبيان حظِّها من الثبوت أو البطلان.

وإلا فلماذا كلَّف الغزاليُّ نفسه قراءةَ ترجمات التَّوراة والإنجيل التي كانت في عصره، واستخراج الأدلة الصريحة من الإنجيل نفسه على نفي ألوهية عيسى ﷺ، ومناقشته لأفهام النَّصارى في النُّصوص المشكلة في إنجيلهم التي توهم ألوهية عيسى ﷺ.

---

(١) الرد الجميل (ص ٢٣٥).

(٢) الرد الجميل (ص ٢٤٣).

• لقد قام علماء المسلمين خلال العصور بواجبهم خيرَ قيامٍ في الحوار والمناقشة والدعوة إلى الحوار والجدال بالتي هي أحسن دون تعصُّبٍ ولا تجريحٍ ولا استهزاءٍ.

• وفي الأندلس في القرن الخامس الهجريِّ كتب الفقيه المالكيُّ أبو الوليد الباجي رسالةً في الرَّد على « راهب فرنسا » الذي تجرَّأ وعرض على أمير سرقسطة أبو جعفر أحمد الملقب « المقتدر بالله » وهو أحد ملوك الطوائف بالأندلس الدخول في النَّصرانية والارتداد عن الإسلام، فأحال المقتدر بالله رسالةَ الرَّاهب إلى أبي الوليد الباجي للرَّد العلميِّ عليها.

وقد تُرْجِمت هاتان الرسالتان إلى عدةٍ لغات أوربية، وقد ترجمها إلى اللغة الإنجليزية المستشرق « دنلوب » في العصر الحديث وكتب عنها دراسةً وجيزةً في مجلة الأندلس عام (١٩٥٢م)، وقد ركَّز هذا المستشرق في دراسته على الاحتكاك الثَّقافيِّ بين أوربا الغربيَّة والمسلمين وأنَّ هذه المراسلاتِ نماذج أو وثائق تعبر عنها (١).

والعجيب أن يتجرَّأ راهب فرنسا المجهول الاسم والوصف - على توجيه رسالةٍ لحاكم مسلم يطلب منه فيها تركَ دينه، والدخول في دين النَّصارى، وينكر نبوةَ محمَّد ﷺ، ولا يكتفي بذلك، بل يوفد إلى المقتدر بالله مبعوثين يشرحون له عقيدةَ النَّصارى ويقنعونه بها، كما جاء في رسالته إذ يقول: ولهذا الأمر أشخصنا إليك من إخواننا من يورد عليك كلامًا إلهيًا على ما يوفقهم الله إليه، ويشرحون لديك حقيقةَ دين النَّصارى ويقرِّرون عندك معرفةَ المسيح سيدنا الذي لا ينبغي لنا الإيمانُ بأحد سواه، ولا نرتجي النجاةَ إلا به، فهو الإله الذي اتخذ حجابًا على صورتنا؛ لينقذنا بدمه الطاهر من هلكة إبليس (٢).

• فانظر إلى هذه اللَّهجة الهجوميَّة وهذا « التبشير » الذي مارسه هذا الراهب قبل أن تظهر بعثاتُ التبشير بعدة قرون.

ثم انظر إلى تصرُّف المقتدر بالله حاكم « سرقسطة » الحسن حين استقبل هذا الوفد الفرنسيَّ وأكرمه، ولم يأمر بسجنهم أو قتلهم، بل تسلَّم رسالةَ الراهب منهم وأحالها إلى الفقيه المالكيِّ أبي الوليد الباجي؛ ليتولى الرَّد العلميَّ الهادئَ عليها، ثم يرسلها إلى هذا

---

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين، تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي (ص ٣٣)، دار الصحوة، القاهرة (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

(٢) المرجع السابق (ص ٥٠).

الراهب؛ لتصير حجةً عليه ودعوة صريحةً إلى الرجوع إلى الحقِّ وهو دين الإسلام.

• أمَّا أبو الوليد الباجيُّ، فقد افتتح رسالته إلى الراهب بقوله: « تصفحتُ أيها الراهب الكتابَ الواردَ مِن قِبَلِك، وما متَّ به من مودتك، وأظهرته من نصيحتك وأبديته من طويَّتِك، فقبلنا مودَّتك لما بلغنا من مكانتك عند أهل ملَّتك واتصل بنا من جميل إرادتك، ونبَّهتَنا – لَعَمْر اللَّه – بنصيحتك على ما يلزمنا من ذلك لك، ولولا ما كنا نعتقد منه بُعْد مُسْتقرك وتعذُّر وصول كتابنا إليك، لكنا أحرياءَ أن نأتي من ذلك ما يلزم ونسلك من السبيل الأوجب » (١).

ثم يخاطبه قائلًا: ومن أغرب ما تأتون به قولُكم: إنَّه أي عيسى ابن مريم بذل دمه في خلاص العباد، وكيف يكون للربِّ دم، والدَّم من الأجسام المحدثة المخلوقة؟!، ولو حددتم الكلام لزعمتم أنه دمُ « الناسوت » دون « اللاهوت » وللَزمكم أن تقولوا: إنَّ المصلوب هو « الناسوت » دون ابن اللَّه تعالى، لكنكم حققتم أن إلَهكم صُلِبَ ومات، وهذه صفةٌ لا تصح إلا على مُحْدَث مخلوق؛ لأن الحياة القديمة لا يصح عدمُها، ولئن جاز هذا عليه، ليجوزَنَّ على أبيه بزعمكم؛ لأنه على صفة ابنه، بل هو هو عند جماعة منكم، فكيف يكون إلهًا قديمًا حيًّا لم يزَلْ من يجوز عليه الموتُ، وعُدمت حياته، وكيف لم يَذُبَّ عن نفسه الموتَ، ولم يَقْدر على دفعه عنها .. وإن جاز أن يموت ويكون مع ذلك إلهًا، فما نمنع على هذا أن يكون كل من رأيناه أو سمعنا خبره قديمًا لم يزالوا آلهةً وإن كان لهم أبٌ، أو ماتوا وفنيت حياتهم وعُدمت؟!.

• وهل يصح أن يبلغ من الجهل الواضح وتجويز قلب الحقائق ودعوى المحال إلا من سقطت مقالتُه، واستحكمت جهالتُه وعَمِيَتْ بصيرتُه؟!، فكيف يكون من هذه حاله يدعو إلى ما هو عليه ويَنْدب إليه؟! (٢).

• ثم انتقل الباجيُّ في رسالته إلى إثبات نبوة محمَّد ﷺ في مواجهة ادِّعاء الرَّاهب أنَّ الشَّيطان قد لبَّس على بني إسماعيل وصرفهم عن عبادة المسيح الذي يزعمون أنه ابن اللَّه – تعالى اللَّه – وإن كان الرَّاهب لم يذكر في رسالته إلى المقتدر باللَّه اسم محمد ﷺ ولم يتعرضْ له بسوء، بل اكتفى بالحديث عن « بني إسماعيل » ..

---

(١) المرجع السابق (ص ٦٣).

(٢) المرجع السابق (ص ٨٠، ٨١).

وقد لخص الباجيُّ حقائق الإسلام وعقائده وميزاته، ومنها: الحثُّ على العلم فقال: « وحضَّنا على تعلم العلم، وأوجبه علينا وندبنا إليه، وإلى الارتحال في طلبه، والتَّتبع لدقيقه والاجتهاد في طلب صحيحه، وتمييزه من سقيمه، والنظر في أدلته ووضعها مواضعها، ودَفْع الشُّبه المعترضة عليها والمعارضة لها، وأعلمنا أن ذلك من أرفع أبواب شريعتنا وأفضل ما يَصْرف إليه همتهم أولوا الفضل منا » (١).

وأخيرًا يخاطب الباجيُّ الراهب بقوله: فإنْ قبلت نصحي وسمعت موعظتي، أخرجناك - بعون اللَّه - من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن حَيْرة الشكِّ إلى تيقُّن الحقِّ، وأريناك منْ طرق الاستدلال وتمييز البراهين والأمثال ما يشرح صدرك، وينوِّر قلبك وتعلم به الحقائق ومعاني الألفاظ التي أنت بها مُعجَب ومخطئ في إيرادها على غير وجهها وتتيقَّن أنَّها من أقل أبواب الكلام وأضعف ما يتمسك به ذوو الأحلام (٢).

● والحقُّ أنَّ أبا الوليد الباجيَّ في رسالته التي ردَّ بها على رسالة راهب فرنسا لم يترك شبهةً إلا أزالَها، ولا ادعاء إلا محَّصه وبين الحق فيه، كل هذا مع تلطُّفٍ في الخطاب وأدب في الجواب، وبعد عن المخاشنة والمخاصمة وتغليظ الكلام.

● وفي القرن الخامس الهجريِّ في بلاد الأندلس في عصر ملوك الطَّوائف أيضًا اجترأ يهوديٌّ يقال له: ابن لنَّغرلة على الطعن في دين الإسلام، وألَّف في ذلك رسائلَ، وكان هذا اليهوديُّ قد تولى منصب الوزارة في عهد « باديس » في غرناطة، فتصدَّى له ابن حزم الظاهريُّ وألف رسالة عنوانها: « الرد على ابن النغرلة ». دحض بها شبهاته ورد فيها على مطاعنه.

فاعجَبْ لأمةٍ يبلغ فيها التسامحُ أن تولِّي منصب « الوزارة » يهوديًّا ثم لا يكفيه ذلك حتى يطعن في دين الإسلام في بلاد المسلمين!

ويبدو أن ضعفَ دول ملوك الطوائف قد أغرى الكارهين للإسلام بالخروج عليه .. فهذا « راهب فرنسا » يدعو ملك « سرقسطة » إلى الخروج من الإسلام - ومعه قومه - والدخول في النَّصرانية ..

وهذا ابن « النَّغْرلَّة » الذي تولَّى الوزارة في غرناطة في عهد « باديس » لا يكفيه أنه يقبض على زمام أقوات المسلمين ومصالحهم .. حتى يتجه إلى الطَّعن في دينهم، وقد

(١) المرجع السابق (ص ٩٤، ٩٥).
(٢) المرجع السابق (ص ٩٩).

عبر عن هذه الكارثة الشاعر الفقيه « أبو إسحق التجيبيّ الإلبيري » المتوفى سنة (٤٦٠هـ) في قصيدته التي انتقد فيها تعيين هذا اليهوديّ وزيرًا وأشار فيها إلى سخريَّته من دين الإسلام في قوله:

أَلَا قُلْ لِصِنْهَاجَةٍ أَجْمَعِينَ   بُدور النَّديِّ وَأُسْدِ الْعَرِينْ
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً   أَقَرَّ بِهَا أَعينَ الشَّامِتِينْ
تَخَيَّرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا   وَلَو شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينْ
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخوا   وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينْ
وَيَضْحَكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَا   فَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُونْ (١)

• المهم أن نستيقن بأن الحوار العلميّ كان هو الأداة المفضلة لدى علماء المسلمين في مواجهة الشبُّهات والافتراءات التي تطعن في دينهم، وكان هذا جهادًا مبرورًا، كما أشار إلى ذلك الإمام ابن تيمية في فتاواه، إذ بين أن رد الشبهاتِ والمطاعن والانحراف في مجال العقيدة والشريعة من أعظم ألوان الجهاد، إذ به سلامةُ الدين، وصحة العقيدة.

ونضرب المثل للجهاد العلميّ في ردِّ الشُّبهات والضَّلالات بما ألَّفه الإمام أبو العباس أحمد ابن تيمية الذي عاش في القرنين السابع والثامن الهجريّ وترك عشراتِ المؤلَّفات ومئات الألوف من الصَّفحات في التَّصدي لكل خروج عن دين الإسلام وكل طعن فيه، ويتمثل ذلك في فتاويه التي زادت على الثلاثين مجلدًا، وفي كتبه المؤلفة وخاصة كتابي « الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح » وكتابه الآخر: « منهاج السُّنَّة » الذي ردَّ فيه على مطاعن الرَّافضة التي تناولت الخلفاءَ الثلاثة وعددًا كبيرًا من الصَّحابة رضوان اللَّه عليهم.

ولم يكن تأليفه لكتاب « الجواب الصحيح » الذي يقع في أربع مجلَّدات مجرد نقد لمقولات النَّصارى من غير تعرضٍ منهم لدين الإسلام، بل كان ذلك ردًّا على كتاب من كتب النَّصارى ظهر في عصره.

يقول أبو الحسن الندويُّ يرحمه اللَّه:

كانت المناظرةُ بين علماء المسيحيَّة والقسِّيسين، وبين المسلمين تدور بين حين وآخر،

---

(١) ديوان الإلبيري تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية (ص ٩٦)، نشر مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى سنة (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).

وكان علماء المسلمين يردون على إيراداتهم ويفضحون مواضع الضَّعف في الديانة المسيحيَّة، ولكن الذي استرعى انتباه ابن تيمية إلى هذا الموضوع وجعله موضع اهتمامه الخاص هو أن مؤلَّفًا جديدًا للمسيحيين في المناظرة وصل من قبرص إلى الشام، حاول فيه مؤلفه إثبات المسيحية، وإثبات عقائدها من طريق العقل والنقل، كما أنه بذل قصارى جهده في إثبات أنَّ بعثة الرسول ﷺ لم تكن عامةً، وإنما كانت تخص العربَ وحدهم، ولذلك فإنَّ المسيحيين - في نظره - لم يكلفوا الإيمان به، ويبدو أنَّ هذا الكتاب نال أهميةً كبرى في أوساط الشَّام العلميةِ والدينيةِ.

إن أصلح رجلٍ للرَّد على هذا الكتاب هو الذي يتمتع بنظرٍ عميقٍ واسع في الفلسفة وعلم الكلام والعقائد والفرق في جانب، وفي جانب آخر يكون مطَّلعًا على صحف العهد القديم والعهد الجديد، وعلى تاريخ المسيحية اطلاعًا كاملًا، فبالنسبة إلى هذه الناحية لم يكن هناك أيُّ عالم أصلح من ابن تيمية لهذا العمل في ذلك العصر، فتصدَّى للكتابة في هذا الموضوع وألَّف كتابًا باسم « الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح » في أربعة مجلدات، لا يتميز في هذا الموضوع فحسب، بل إنَّه يحتل مكانةً ممتازةً بين سائر مؤلفات ابن تيمية، ويدل هذا الكتاب على سعة نظره، وتنوع دراسته واطلاعه الواسع العميق على تاريخ الديانات والصُّحف السابقة [1].

ولا نستطيع هنا تتبُّع القضايا التي ناقشها ابن تيمية في ردِّه على من بدلوا دين المسيح عليه السلام، ولا استعراض الأدلة التي ساقها فهذا أمرٌ استغرق من ابن تيمية يرحمه اللَّه كتابًا في أربعة مجلدات فليرجع إليه من أراد الاطِّلاع، ولكننا نشير إلى أن هذا الرجل المجاهد بقلمه قد سارع إلى الرَّد على الشُّبهِ التي وردت في الكتاب النَّصراني الذي جاء من قبرص إلى بلاد الشام؛ حماية للعقيدة، وإحقاقًا للحق وإعمالًا للمبدأ القرآنيِّ في قوله سبحانه: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن هذا الجهاد بالحوار والإقناع ما كتبه الإمام ابن تيمية يرحمه اللَّه إلى ملك قبرص المعروف بالرِّسالة القبرصية، من أجل الدعوة إلى إحسان هذا الملك إلى أسارى المسلمين في قبرص، لكنَّ الإمام وجدها فرصةً للتذكير بأصل القضية، وبيان حقيقة دين عيسى، وأنه عبدُ اللَّه ورسوله وليس إلهًا ولا ابن إله ..، واسترجع الإمام في رسالته إلى ملك

(١) رجال الدعوة والفكر في الإسلام، الجزء الثاني، لأبي الحسن الندوي (ص ١٩٥)، مرجع سابق.

قبرص منشأ الحوار بين أهل الإسلام والنَّصارى فقال:

« وأنا ناصحٌ للملك وأصحابه، واللّه الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراةَ والإنجيل والفرقان، ويعلم الملك أن وفد نجران وكانوا نصارى كلهم فيهم الأسقف وغيره، لمّا قدموا على النَّبِي ﷺ ودعاهم إلى اللّه ورسوله وإلى الإسلام، خاطبوه في أمر المسيح وناظرُوه، فلما قامت عليهم الحجَّةُ جعلوا يراوغون، فأمر اللّه نبيَّه أن يدعوهم إلى المباهلة كما قال: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

فلما ذكر النَّبِي ﷺ ذلك اشتوروا بينهم فقالوا: تعلمون أنه نبيٌّ، وأنه ما باهل أحدٌ نبيًا فأفلح، فأدَّوا إليه الجزية ودخلوا في الذمَّة، واستعفوا من المباهلة.

وكذلك بعث النَّبِي ﷺ كتابه إلى قيصر الذي كان ملك النَّصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية وغيرها وكان ملكًا فاضلًا، فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته عرف أنه النَّبِي الذي بشَّر به المسيح، وهو الذي كان وعدَ اللّهُ إبراهيم في ابنه إسماعيل، وجعل يدعو قومه النَّصارى إلى متابعته وأكرم كتابه وقبَّله ووضعه على عينيه وقال: وددت أني أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه، ولولا ما أنا فيه من المُلْك لذهبت إليه.

وأما النجاشيُّ ملك الحبشة النصرانيُّ، فإنه لما بلغه خبر النَّبِي ﷺ من أصحابه الذين هاجروا إليه آمن به وصدَّقه وبعث إليه ابنه وأصحابه مهاجرين، وصلى النَّبِي ﷺ عليه لما مات، ولما سمع سورة « كهيعص » بكى، ولما أخبروه عما يقولون في المسيح قال: واللّه ما يزيد عيسى على مثل هذا العود، وقال: إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرُجُ من مشكاةٍ واحدةٍ.

وكانت سيرة النَّبِي ﷺ أن مَنْ آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله من النَّصارى صار من أمته، له مالهم وعليه ما عليهم، وكان له أجران: أجرٌ على إيمانه بالمسيح، وأجر على إيمانه بمحمد »[1].

• ومع هذا التَّرفق والتَّجمل في الخطاب لا يتحرَّج ابن تيمية من مواجهة ملك قبرص بالحكم الفصل الذي لا مجال فيه لكتمان فيقول:

« فمن كان لا يؤمن باللّه، بل يسبُّ اللّه ويقول أنه ثالثُ ثلاثة وأنه صُلب، ولا يؤمن

---

(١) الرسالة القبرصية لابن تيمية ضمن مجموعة فتاويه (٦١٩/٢٨، ٦٢٠) (مرجع سابق).

برسله يزعم أنَّ الذي حُمِل ووُلد وكان يأكل ويشرب ويتغوَّط وينام هو اللّٰه وابن اللّٰه، وأن اللّٰه أو ابنه حلَّ فيه وتدرَّعه، ويجحد ما جاء به خاتم المرسلين، ويحرِّف نصوص التوراة والإنجيل، فإن في الأناجيل الأربعة من التَّناقض بين ما أمر اللّٰه به وأوجبه من عبادته وطاعته، ولا يحرم ما حرم اللّٰه ورسوله من الدَّم والميتة ولحم الخنزير الذي ما زال حرامًا من لدن آدم إلى محمد ﷺ، ما أباحه نبيٌّ قط، بل علماء النَّصارى يعلمون أنه محرمٌ، وما يمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة، وبعضهم يمنعه العناد والعادة ونحو ذلك.. فمَنْ هذا حاله، فقد أمر اللّٰه رسوله بجهاده حتى يدخل في دين اللّٰه، أو يؤدي الجزية، وهذا دين محمد ﷺ » (1).

وبعدها يخاطب ابن تيمية ملك قبرص قائلًا:

« فيا أيها الملك كيف تستحلُّ سفكَ الدماء، وسَبْي الحريم، وأخْذ الأموال بغير حجَّةٍ من اللّٰه ورسوله؟!

ثم أمَا يعلم الملك أن بديارِنا من النَّصارى أهل الذمَّة والأمان ما لا يحصى عددُهم إلا اللّٰه، ومعاملتنا فيهم معروفةٌ، فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة ولا ذو دين؟! لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا إخوته، فإنَّ أبا العباس (2) شاكرٌ للملك ولأهل بيته كثيرًا معترفٌ بما فعلوه معه من الخير، وإنما أقول عن عموم الرعية، أليس الأسرى في رعية الملك؟

أليست عهودُ المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والإحسان؟ فأين ذلك؟!

ثم إن كثيرًا منهم إنما أُخِذوا غدرًا، والغدرُ حرامٌ في جميع الملل والشَّرائع والسياسات، فكيف تستحلُّون أن تستولوا على من أخذ غدرًا؟! أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا وتكونون مغدورين؟! واللّٰه ناصرهم ومعينهم، لا سيَّما في هذه الأوقات، والأمة قد امتدت للجهاد واستعدت للجلَاد، ورغب الصَّالحون وأولياء الرَّحمن في طاعته، وقد تولى الثغور السَّاحليةَ أمراءٌ ذوو بأسٍ شديدٍ، وقد ظهر بعض أثرهم وهم في ازدياد » (3).

• وفي هذه الرسالة الفريدة التي كتبها عالمٌ فقيهٌ إلى ملك روميٍّ مسيحيٍّ يستنقذ فيها

---

(1) المرجع السابق (ص ٦٢١).

(2) هو أحد الأسرى من المسلمين وكان تلميذًا للإمام.

(3) المرجع السابق (ص ٦٢١، ٦٢٢).

أسرى المسلمين في جزيرة قبرص، تظهر سمات عقلية ابن تيمية السياسية الواعية، فهو يزاوج في رسالته إلى ملك قبرص بين التَّرغيب والتَّرهيب، وبين اللين والشدة، ويظهر أصول التفاوض في المعاملة بالمثل، وتخويف ملك قبرص من أن يعامِلَ المسلمون مَنْ عندهم من أهل الذمَّة بمثل المعاملة التي يعامِلُ بها هؤلاء النَّصارى أسرى المسلمين، هذا مع التَّذكير بالحقائق وعدم المداهنة في العقائد ليَهْلِك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة.

وفي كل ذلك مجالٌ واسعٌ لحُرِّيَّة الرَّأْي وسعة المناقشة، وإعمال العقل والفكر لبيان الحقيقة.

● أمَّا كتاب « منهاج السُّنَّة لابن تيمية » في أربعة مجلدات، فقد ألَّفه الإمام ردًّا على كتاب للشيعة الروافض، هو كتاب « منهاج الكرامة في معرفة الإمامة » لابن المطهَّر الحِلِّي الذي ألفه تقربًا للملك « التَّاري » « أوليجاخدا بنده خان ».

وقد وصل هذا الكتاب إلى الشَّام، حيث اطَّلع عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وكان الشِّيعةُ الروافض يعتزون بهذا الكتاب، ويظنون أنَّ الردَّ عليه مستحيلٌ، ومعظم ما كان هذا الكتاب يحتويه هو إثباتُ الإمامة لعليِّ بن أبي طالب ﷺ وعصمة أهل البيت، وردُّ خلافةِ الخلفاء الثلاثة الأُول، والطَّعن عليهم وعلى الصَّحابة الكرام – رضوان اللَّه عليهم – ومن هنا وجد ابن تيمية أنَّ هناك خطرًا يتهدَّد العقيدةَ والحقيقة والتاريخ .. وأن اللَّه سبحانه قد هيَّأ له الأداةَ التي تمكِّنه من ردِّ دعاوى « ابن المطهر » في كتابه « منهاج الكرامة » فقد رَزَقَ ابنَ تيمية معرفةً واسعةً بالحديث الشريف، وطُرُقِه ورجاله، ومعرفة الصحيح والضعيف والموضوع، كما رزقه فقهًا للتاريخ وإدراكًا لحقيقة الأحداث، ومن هنا انتدب نفسَه لتأليف كتاب « منهاج السُّنَّة »؛ لردِّ المطاعن التي وجَّهها « ابن المطهر » للخلفاء الثلاثة وللصحابة الكرام – رضوان اللَّه عليهم أجمعين – ..

وقد بين الحافز له على تأليف هذا الكتاب الواسع، وهو الدِّفاع عن الصَّحابة، فلو أن هذا الرجلَ الجائر المتعدي حدودَ الأخلاق والحشمة لم يتناول الصحابةَ الكرامَ بالنقد اللَّاذع، أولئك الذين هم الرَّعيل الأول لأولياء اللَّه وأئمَّةُ أهل الأرض، وأفضل الخلق بعد الأنبياء ولولا أن انتقاده سبَّب الفتنة في الدين ووفر الحجَّة للكفار والمنافقين، وأحدث الشكوكَ في قلوب كثير من المؤمنين، لم تكن هناك حاجةٌ إلى كشف القناع عن نقد هذا الرَّجل الذي لا حظَّ له من العلم الصحيح.

يقول ابن تيمية عن آراء الرَّافضة كما تمثلت في كتاب ابن المطهر: « فإنهم عمدوا إلى خيار أهل الأرض من الأولين والآخرين بعد النَّبيين والمرسلين، وإلى خيار خير أمة أخرجت للناس فجعلوهم شرارَ الناس، وافتروا عليهم العظائمَ، وجعلوا حسناتهم سيئات » [١].

وقد اعتمد ابن تيمية في هذا الكتاب الحافل منهجَ الرَّدِّ العلميِّ المؤيد بالأدلة القاطعة، مما يورث الاطمئنانَ لدى قارئه ويحمله على الثقة به.

• واستمر هذا المنهج العلميُّ الحواريُّ على امتداد التاريخ الإسلاميِّ يعتمد عليه العلماء والدُّعاة في ردِّ الشُّبهات، ومقاومة انحراف الفكر وفساد الرَّأْي ..

ومن هذا القبيل رسائلُ الشيخ محمد بن عبد الوهاب - يرحمه اللَّه - التي كان يرد بها على أنصار البدع والخرافات والأساطير التي تفسد العقيدة، وكان يبعث بها إلى الآفاق [٢].

ومن هذا الباب أيضًا ما كتبه الشيخ محمد عبده مفتي الدِّيار المصريَّة في الرَّد على الشُّبهات التي أثارها « هنوتو » وزير خارجية فرنسا، وادعائه أنَّ المسلمين تأخَّروا بسبب تمسُّكِهم بالإسلام وخاصة عقيدة القضاء والقدر.

وهذه الردودُ مثبتةٌ في كتابٍ للشيخ محمد عبده بعنوان « الإسلام بين العلم والمدنية » [٣]. ولا نستطيع هنا تفصيل تلك الردودِ، ولا بيان مهارة الشيخ محمد عبده في الاستدلال ولا تعمُّقه في التاريخ والحضارة على مر العصور، فليرجع إليها من شاء.

• وكذلك الرُّدود التي ووجِه بها الشيخ علي عبد الرازق - القاضي الشرعيّ في مصر - حين أصدر كتيبه المسمى « الإسلام وأصول الحكم » سنة (١٩٢٥م)، الذي أعلن فيه: أنَّ الإسلام دينٌ لا دولة، وأنه لا صلة له بنظام الحكم، بل يترك الناسَ أحرارًا يقرِّرون ما يشاءون. وقد لجأ الكاتب إلى التَّأويل غير السَّائغ لكثيرٍ من الآيات والأَحاديث، والتحريف لحقائق التاريخ.

وقد قامت هيئةُ كبار العلماء بالأزهر بإعداد تقرير مفصل، يبلغ ثلاثًا وأربعين صفحة للرَّدِّ على هذه المزاعم إجمالًا، ثم قام الشيخ محمد بخيت المطيعيُّ مفتي الديار المصرية

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٤٠)، المطبعة الأميرية، القاهرة.

(٢) انظر كتاب محمد بن عبد الوهاب للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار مرجع سابق.

(٣) الإسلام بين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (١٩٩٣م).

بكتابة ردٍّ مفصل على هذا الكتاب نشر أثر صدوره، وكذلك السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، والشَّيخ العلَّامة محمد الخضر حسين التونسيُّ، الذي جاء إلى مصر هربًا من ملاحقة الاستعمار الفرنسيِّ لبلاده الذي أصدر عليه حكمًا بالإعدام، وكذلك الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في المغرب، ومقالات للشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر والشيخ يوسف الدجوي نشرت في الصحف اليومية.

• وقد أدت تلك الوقفة العلمية الشَّجاعة إلى تراجع الشَّيخ علي عبد الرازق عن آرائه، فقد رفض طول حياته أن يعيد نشر هذا الكتاب رغم إلحاح بعض الصَّحفيين المتظاهرين بالحرص على حُرِّيَّة الفكر، كما أنه نشر قبل موته ببضع سنوات تعقيبًا على مقال للدكتور أحمد أمين في مجلة « رسالة الإسلام » في عدد شهر رمضان سنة (١٣٨٠هـ) يوليه سنة (١٩٥٩م). قال فيه: « قرأت بحثًا قيِّمًا لحضرة صاحب العزَّة الأستاذ الدكتور أحمد أمين جاء في صدره: أنه كان يتجادل معي فقلت: إنَّ دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديمًا من أن رسالة الإسلام روحانيةٌ فقط، ولنا الحقُّ فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل.

وقد وقفَتْ أمام نظري كلمة « رسالة روحانية » ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قديمةً لهذه الكلمة معي، فقد زعم الباحثون أنَّني في ذلك البحث قد جعلتُ الشَّريعة الإسلامية شريعةً روحانيةً محضةً، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسُهم أن يفعلوا.

أما أنا فقد ردَدْتُ عليهم بأنني لم أقل ذلك مطلقًا، لا في هذا الكتاب ولا في غيره، ولا قلت شيئًا يشبه هذا الرَّأي أو يدانيه.

أسوق هذا الحديث؛ ليذكر الأستاذ الكبير أن فكرةَ روحانيةِ الإسلام لم تكن لي رأيًا، يوم نشرت البحث المشار إليه، إني رفضت يومئذ رفضًا باتًّا أن يكون هذا رأيي ».

ويعلق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا الكلام بقوله: « هذا تراجع صريح؛ لأنَّ الأستاذ علي عبد الرازق قد قال في (ص ٦٩) من كتابه: إنَّ ولاية الرسول على قومه ولايةٌ روحيةٌ منشؤها: إيمان القلب وولاية الحاكم ولاية مادية، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية » (١).

---

(١) نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر للدكتور محمد رجب بيومي الطبعة الأولى القاهرة مطبعة السعادة (١٤٠٢هـ/١٩٨١م).

ويسعدنا أن يكون الشيخ علي عبد الرازق قد تراجع عن آرائه التي هلل لها من يريدون عزل الإسلام عن الحياة وتحويله إلى شعائر دينية في المساجد والزوايا، مما يخالف حقيقة الإسلام.

ونقول: إنَّ هذا التراجعَ ثمرةٌ لتلك الرُّدود العلميَّة المفصلة التي بددت كل شبهة وأجابت عن كل تساؤل.

• وفي العام التالي لصدور كتاب « الإسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق ظهر الدكتور طه حسين الأزهريُّ الذي ذهب إلى فرنسا للدراسة العليا في جامعاتها، فدرس القانون الرومانيَّ وعلم الاجتماع حيث كانت رسالته للدكتوراه عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية »، لكنه آثر بعد عودته إلى مصر أن يدرس الأدب العربيَّ الذي تمكَّن من أسبابه في دراسته بالأزهر واتِّصاله بالشيخ حسين علي المرصفي ودراسته في الجامعة المصرية وظل طه حسين يلقي دروسًا في الأدبِ العربيِّ القديم على طلَّاب قسم اللغة العربيَّة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، حتى طلع في يوم من أيام (١٩٢٦م) بكتاب صغير الحجم سماه « في الشعر الجاهليّ ».

« ولو أنَّ الدكتور طه حسين خلص في بحثه عن الشعر الجاهليّ لقضايا الأدب وحدها، ما اتَّجه إليه الأزهرُ بالنقد الشديد، ولكن الرجلَ ترك الأدب الذي يؤلف فيه، إلى الحديث عن شخصيتين تاريخيتين نبويتين أثبتَ القرآنُ الكريم وجودَهما، ونسب إليهما رفْع القواعد من البيت الحرام في مكة، ليعلن: أنه لا يجزم بما جاء في كتاب اللَّه ولم يكن الدكتور يخاطب علماءَ يعرفون مواضعَ الخطأ من الصواب، فيردونه عن تسرُّعه، ويحكمون عليه بالخطأ الصريح، ولكنه كان يخاطب طلَّابًا ناشئين يسمعون الطَّعن في أخبار القرآن، وكأنَّه كتابٌ بشريٌّ ألَّفه إنسانٌ كالدكتور يخطئ ويصيب، ثم ينشر ما كتب على الناس جميعًا ويتضح بما لا يقبل الشكَّ أنَّ الدكتور قد تورَّط في تبني افتراءات خصوم الإسلام؛ لأنَّ هذا الرَّأي بذاته قد ساقه مبشّر خصيم في كلام لا يمتُّ إلى البحث النزيه بشيء » [1].

• وقد توالت الرُّدود العلميةُ المفصلةُ على كتاب « في الشعر الجاهليّ » لطه حسين كان منها المطول، ومنها المختصر.

---

(١) نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر للدكتور محمد رجب البيومي (ص ١١٢، ١١٣) مرجع سابق.

فقد أصدر الشيخ محمد الخضر حسين كتابه الواسع: « نقضُ كتابٍ في الشعر الجاهليِّ » اتبع فيه أعدل منهج وأقومه، حيث يأتي بالفقرة من كلام طه حسين بحروفها، ثم يكر عليها بالنقض بالأدلة العقليَّةِ والنَّقلية، إلى أنِ انتهى من الكتاب كله.

وكذلك أصدر الدكتور محمد أحمد الغمراويُّ - وهو أستاذ في الكيمياء، كتابه الجامع: « النقد التحليليُّ لكتاب في الشعر الجاهليِّ » وفيه تتجلَّي سعة ثقافته وعمق نظرته، حيث ناقش طه حسين في زعمه أنه اتَّبع في بحثه هذا منهج « ديكارت » في الشك.

فبيَّن له الدكتور الغمراويُّ حقيقةَ هذا المذهب، وأنه يختصُّ بقضايا العلم التجريبيِّ ولا دخل له بالديانات والتواريخ، وكذلك صنع أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعيُّ في كتابه « تحت راية القرآن » وإن كان الرافعيُّ قد أضفى على الكتابِ شخصيته وأسلوبَه المميز وعداوته لطه حسين، ولم يقتصرْ على النَّقد الموضوعيِّ الهادف كما صنع سابقاه.

ويُضاف إلى هذه الرُّدود ردود الأستاذ محمد فريد وجدي، والأستاذ لطفي جمعة والشيخ محمد الخضريُّ، والشيخ محمد عرفة وغيرهم، إلى جانب المقالات التي امتلأت بها المجلات الإسلاميةُ والأدبيةُ.

• ومن يتأمل كتابَ طه حسين الذي أثار الضَّجَّة، وفرَّق الأمةَ ما بين أنصارٍ للدين وأنصارِ لحُرِّيَّة الفكر المزعومة - في ضوء هذه الرُّدود العلميَّةِ المستندة إلى الأدلَّة والبراهين، وليس إلى العواطف والانفعالات - يرى كتابه قليل الحظِّ من البحث العلميِّ الصحيح ومن الفكر الأدبي الهادئ المتزن، فالغالب عليه هو الظنُّ الذي يتردَّدُ كثيرًا في صفحاته كقوله: « وأغلب الظن » و « ليس هناك ما يمنع » حتى إنه عندما سُئِل أمام النِّيابة العامة في مصر عن مستند رأيه في الفروق بين اللغة العدنانية واللغة القحطانية قال: « هذا رأيٌ ارتأيته وظنٌّ ظننته » (١).

ولولا هذه الردودُ المحكمةُ لظلَّت آراءُ طه حسين الخاطئة الباطلة حقائق في نظر الطُّلاب والدارسين غير المتعمقين.

• ومن العجيب أن أدعياء حُرِّيَّة الفكر في هذا الزمان لا يزالون مُصِرِّين على أنَّ كتاب « في الشعر الجاهلي » بكل ما فيه، حتى إنكار الوجود التاريخي لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كتاب تنوير، وأنه أخطرُ كتابٍ ظهر في القرن العشرين، وأنَّ العلماء

---

(١) انظر تقرير النيابة العامة في تحقيقها مع طه حسين.

الذين ردُّوا عليه متخلفون جامدون انتهازيون يسعون إلى التَّقرب من السَّلاطين.

ومنذ نصف قرن أو يزيد، أصدر الشيخ محمد الغزاليُّ - يرحمه اللَّه - كتابه « من هنا نعلم » الذي نقد به ما جاء في كتاب « من هنا نبدأ » للأستاذ خالد محمد خالد، الذي سار فيه على درب علي عبد الرازق في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » لكنَّ الرجل رجع إلى الحقِّ بعد ثلاث وعشرين سنة من صدور كتابه « من هنا نبدأ » بكتاب سماه « الدولة في الإسلام » (١)، أعلن فيه خطأه فيما ذهب إليه من قبل مِنْ أنَّ الإسلامَ دينٌ لا دولة، وأنَّ الديمقراطية الغربية هي أهدى وأصلح! فختم له بالخير والحمد للَّه.

ولا أدري لماذا سكت العلماءُ في عصرنا عن الرُّدود العلميَّة الهادئة على الكتب التي تحوي افتراءاتٍ ومغالطاتٍ كما كان يفعل أسلافُهم خلال العصور؟!

• إنه لا ينبغي طلب مصادرةُ الكتب المخالفة، الذي يكسبها شهرة عند الناس ويجعلها محلَّ رغبةٍ وتهافت على قراءتها..

إلى جانب ما يروجه الذين يتزيَّوْن بزيِّ حُرِّيَّة الفكر، ويرفعون شعارها في الظاهر، من أنَّ العلماءَ رجعيون جامدون وأنهم لا يؤمنون بحُرِّيَّة الفكر، ولا يقبلون الرَّأي الآخر، وليس لهم من سبيلٍ إلا اللجوءُ إلى السُّلطة؛ لطلب مصادرة الكتب التي لا يرضون عنها.

والحقُّ أنَّ الاشتغالَ بالرَّد على الكتب التي تروج للضَّلالات، وكشفِ زيفِها وتناقضِها وكذبها وخداعها هو من الجهاد الفكريِّ الذي يرغب فيه الإسلام، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه ورسائله.

أما الكسل الفكريُّ والإعراض عن تحمُّلِ مسئولية المناقشةِ العلميةِ الحرَّة للآراء والأفكار..، فهو الذي يسهِّلُ لهذه الدعاوى الزائفةِ أن تنتشرَ وتظهر بمظهر الحُرِّيَّة الفكريةِ والرَّأي الشُّجاع.

توجيه القرآن:

إنَّ هذا المنهج إنَّما هو استجابةٌ لتوجيه القرآن، وتأثر بطريقته في الرَّد والإقناع، فقد ذكر القرآن أن الأنبياءَ ردُّوا على شبهات أقوامهم، وأجابوا على تساؤلاتهم لعلَّ قلوبَهم تعرف الحقَّ، وتهتدي بهدى الإيمان.

---

(١) نشر دار ثابت، القاهرة (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

فهذا نوحٌ عليه السلام أول الرسل يدعو قومه إلى التوحيد: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

لكنَّ قوم نوحٍ اعترضوا دعوته بجملة اعتراضاتٍ..، فقد اعترضوا على رسالة نوح بأنه بشر، ولا يجوز لديهم أن يكون الرسول بشرًا ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧]. وتلك شبهةٌ ردَّدها الكفار في كل جيلٍ، وواجهوا بها كل رسول، فقد كانت أذهانُهم لفرط جهلها وخرافتها تتصور أنَّ الرسول لابد أن يكون قوةً خافيةً، أو خَلقًا يكبر في صدورهم، ولا يرون في بشر مهما كان أهلًا لأن يتميز عليهم بالرسالة، ويوجههم إلى دين جديدٍ.

كما رأوا في أتباعه، وقد كانوا من الفقراءِ وآحادِ النَّاس، مبررًا للاستكبار عن الإيمان والاستنكاف أن تجمعهم مع هؤلاء الفقراء ساحةٌ، أو يضمهم طريقٌ، فقالوا كما ذكر القرآن: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

ولم يكن أمام نوح في دعوته إلا الإقناع، فردَّ على شُبُهات قومه بحججٍ واضحةٍ ذكرها القرآن؛ ليبرئ ساحة نوح وليبين قيامه بواجب الدعوة، ولم يكن يملك إلا الكلمات، فليست طبيعة الإيمان تتفق مع الإكراه أو تتلاءم مع القَسْر: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود: ٢٨ - ٣١].

فحسبُ الدَّاعي في إخلاصه، وتجرده أنه لا يبتغي أجرًا ولا يسأل نفعًا، فإنَّ ذلك خليقٌ أن يفتح الأبصار على دعوته ويلفت قومه إلى حجَّته، وبحسبه في إنسانيَّته وسعة قلبِه أن يفتح أمام النَّاس جميعًا أبوابَ الهداية لا يرد فقيرًا لفقره، ولا يصدُّ بائسًا ولا يُشعر إنسانًا بالضِّعة والهوان، فالأنبياء هم أعظم القادة مساواةً بين العباد، وهم الذين حطَّموا الحواجزَ المصنوعةَ وأزالوا الفروقَ الكاذبةَ، وأكَّدوا للبشر جميعًا أنَّ إلههم واحدٌ، وأنَّ الحقَّ لا يفرِّق بين كبير وصغير.

وهكذا كان إقناعُ نوحٍ لقومه، ولكنهم لم يروا في هذا الإقناع إلا جدالًا يؤذيهم

سماعه: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود: ٣٢].

وفي الحقِّ أنَّ هذا الإقناع، وهذه الدعوة المستمرة قد طال أمدُها في ذلك العصر الذي طالت فيه الأعمارُ واتَّسع المدى لحياة الإنسان، ونوحٌ لا يكفُّ عن الدعوة ولا يستريح من التذكير والإنذار، ويدل على ذلك قول اللَّه سبحانه في سورة نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٥ - ٩].

فليس هناك إبلاغٌ في العظة أكثرَ من هذا الإبلاغ، ولا إخلاص في الدَّعوة أشدَّ من هذا الإخلاص.

منهج الخليل في الدعوة والحوار:

وقد عرض القرآنُ كيف برهن إبراهيم لنفسه ولقومه وللناس جميعًا على أنَّ بإمكان العقل أن يثبتَ وجودَ اللَّه سبحانه، وأن يفردَه بالعبادة، وأنَّ أدنى نظر إلى خلق السماوات والأرض كفيلٌ أن يصلَ بصاحبه إلى معرفة اللَّه سبحانه وتوحيده.

فقد وقف إبراهيمُ الخليلُ بمشهدٍ من قومه يرقب الكواكبَ والنُّجوم ويسترعي أبصارهم إليها، كم هي عظيمةٌ وجميلةٌ ونافعةٌ، ومع هذا فهي لا تصلح لأن تكون مصدرًا للحياة ولا مدبرًا لأمرها.

وانتهى لأن يعلن على قومه عقيدته التي أثبتها بالنظر والتأمل: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

• وقد عرض القرآن موقفين من مواقف إبراهيم مع قومه، يدلَّان على أنه واجه أنواعًا من العقائد الفاسِدَةِ تختلف باختلاف الطَّوائف التي دعاها إلى التوحيد.

وفي الموقف الأول أقام إبراهيم الحجَّة على قومه في شأن الكواكب والنجوم، فَبَيَّن لهم أنها لا تصلح خالقًا للكون ولا مدبرًا لشئونه، والظَّاهر أن موعظته هذه في الكواكب كانت لأهل حَرَّان فقد كانوا يعبدونها [١].

أمَّا الموقف الآخر فقد كان مع أهل بابل، وكانوا من عبدَة الأصنام، وقد أطال معهم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١/١٥٦).

إبراهيم المناظرة، وتعقد الأمر بينه وبينهم، واشتدَّ حين واجههم بالحجَّة الدامغة، وأظهر لهم آلهتهم على حقيقتها ذليلةً؛ لأنها لا تدفعُ عن أنفسها البأسَ ولا تردّ الهوان.

وقد أوضح القرآن ما دار بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه في شأن الأصنام في مشاهدَ متعددةٍ، تفيض جميعُها بقوَّة إبراهيم في المناظرة، وبديهته في الاستدلال، مما يقطع الطريق على الكافرين.

فقد بدأ إبراهيمُ دعوته لقومه بسؤالهم عمَّا يعبدون؛ ليوقظ فيهم التفكير السليم، وليَنْطقهم بالحقيقة التي يمارون فيها: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٦٩، ٧٠].

وقد كان إبراهيمُ يعرف ما يعبدون، ولكنَّه أراد بهذا السؤال أن يجعلَهم يحكمون بأنفسهم على آلهتهم، وأن يُخْرج هذه العبادة من عالم التقديس والخضوع دون وعيٍ إلى عالم التفكير والمنطق.

وهي براعةٌ في الدعوة وقدرةٌ في إقامة الحجَّة تميَّز بها إبراهيمُ الخليل عليه السلام صاحب القلبِ السليم والتفكير المستقيم.

ويأتيه الجواب على لسان قومه: ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧١].

لقد سمّوها أصنامًا، ولم يدَّعوا لها صفة الخَلْق أو المُلك، وهذا ما أراده إبراهيم من سؤاله عما يعبد قومه، ومن هنا اتَّجه إليهم بالسؤال عن قدرة هذه الأصنام، بل عن صفة الحياة فيها، فقال: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

وهو سؤال يلفتهم إلى حقيقة الألوهية وإلى العلاقة التي تربط الإنسان بالإله الذي يعبده، إنَّ الإله الحقَّ هو القادر على النَّفع والضُّرر في حدودهما العميقة، وهو الذي يسمع دعوةَ من دعاه ويستجيب له.

فتتَّجه إليه القلوبُ رغَبًا ورَهَبًا، أمَّا هذه الأصنام فلا شأن لها بذلك ولا إحساس، ما دامت جمادًا لا يسمع ولا يبصر.

إنها تماثيلٌ صنعوها بأيديهم، فما معنى أن يعكفوا على عبادتها، وتتَّجه إليها مشاعرُهم بالضَّراعة والإخبات.

وإذا سألهم إبراهيم الخليل عن سرِّ عبادتهم لها، فلا جواب لهم إلا تقليد الآباء،

فليس لهم رشدٌ ولا اقتناعٌ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥١ – ٥٤].

ولا يكتفي الخليلُ عليه السلام بوصف قومه وأسلافهم الكافرين بالضَّلال، بل يعلن أنَّه عدوٌّ لآلهتهم، عداوة تنبع من الإيمان بالله، الذي لا يتَّفق الإيمان به مع الإيمان بما سواه من الأنداد والشُّركاء، فهي عداوةُ العقيدة الصَّالحة للخرافة الضَّالة، وعداوة العقل الصحيح للجهالة الباطلة: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٥ – ٧٧]. ولا وجه للمقارنة بين عبادة الله سبحانه، فهو عزَّ وجلَّ مصدر الوجود، وهو صاحب النِّعم التي تحيط بالإنسان من مَنشئه إلى مزباه، إلى أن يبلغ الأجلَ مداه، وإليه المرجعُ والمآب وبيده العقابُ والثواب، فأنَّى يكون شيءٌ من ذلك لغيره مهما تكبَّرَ واستطالَ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ – ٨٢].

هذه هي المفارقةُ التي أظهرها إبراهيم لقومه، بين عبادة الله وبين اتِّخاذ الأنداد سواه، لكنه لا يكتفي في ذلك بالمناظرة باللسان، بل أراد إقامةَ البرهان ظاهرًا للعيان، مهما جلب إليه ذلك تنكيل قومِه وعقابهم.

لقد عقد إبراهيم العزمَ على أن يضعَ قومه أمام الحقيقةِ في صورتها الملموسة وأن يصوِّر لهم الأصنامَ في طبيعتها، فيرونها بأبصارهم عاجزةً عن دفع الضُّر عن أنفسها، فكيف تحمي من يعبدونها؟!

والإله الحقُّ لابدَّ أن يملك النَّفع والضُّرر في حقيقتهما المطلقة.

فأقسم الخليلُ عليه السلام أن يكيد أصنامهم في غيبتهم: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وقد تمَّ له ذلك حين خرج قومه في عيدٍ لهم، واعتذر إبراهيم حين دُعي إلى الخروج معهم بالسُّقْم: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]. وهو تعريضٌ حسنٌ، فليس هناك سقمٌ كسقمِ النفس التي تواجه الأباطيلَ والضَّالات.

ونرى رسولَنا – صلوات الله عليه – يأسف لإعراض قومه وعنادهم، ويشتدُّ به الحزن

حتَّى كان القرآنُ يسليه ويواسيه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وبعد أن خلت القريةُ من أهلها، أسرع إبراهيم عليه السلام إلى الأصنام التي ذلَّت لها قلوبُ قومه، وخشعت لها أفئدتهم وهو مغيظ مُحنقٌ: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ [الصافات: ٩١، ٩٢].

وقد كان مشهدًا عجيبًا .. أن يقف الداعيةُ المخلص أمام هذه الجمادات التي ارتقت بها الضَّلالات إلى درجة الألوهية، وهو يرى فيها خصمًا لدعوته وحاجزًا عن الإيمان بالله الواحد، وهي في حقيقتها جماداتٌ لم تَحُلَّ فيها روح الحياة، ولكنَّ جهلَ الإنسان وظلمه تمثَّل في تقديسها والخشوع لها.

وقف إبراهيمُ الخليل أمام هذه الأصنام فوجدَها في بَهْو عظيم، وقد وضع الكفارُ أمامها القرابينَ وذبحوا لها الذبائحَ، وهي لا تحسُّ بشيء من ذلك: ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾. وهو سؤالٌ تهكُّميٌّ يكشف عن ضيق إبراهيم بجهالةِ قومه، وسخريَّته باعتقادهم الباطل، وهو أيضًا يصوِّر مراحل انفعال إبراهيم حتى ارتقى إلى الذروة، فانهال على الأصنام يحطِّمُها ويشفي صدره منها.

وقد أتبعه بسؤال آخر: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ ولا جواب للأصنام ولا نطق، وهو لا ينتظر منها جوابًا، ولكنه يحلِّل معتقداتِ قومه، ويناقشُها، ويعجب من خرافتها وغرابتها.

وقد كان الهدفُ الذي أراده الخليلُ من كسر الأصنام يقضي بأن يترك كبيرهم سليمًا، حتى يضع قومه أمام المفارقة العجيبة، حيث يرون آلهتهم محطَّمةً، وواحدًا منها لم يصبه سوءٌ: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وأدرك القوم أن هذا الفعل لم يصدر إلا من إبراهيم: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. فهو الذي كان يعيب عليهم عبادتها وتقديسها.

واستقرَّ رأيُ القوم الذين أُصيبوا في آلهتهم على محاكمة إبراهيم على رءوس الأشهاد، حتى يثأروا للأصنام الهالكة، ويستردوا لها القداسة والهيبة: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦١].

وقد كانت هذه فرصةُ إبراهيم التي كان يتحيَّنها، أن يجتمع قومُه؛ ليناقشهم في قدرة الأصنام وحقيقتها.

وفي هذه المحاكمة تجلّى ذكاءُ الخليل عليه السلام وبراعته في الإقناع، وقوته في المحاجة. ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢]. وكان أيسر الجواب على إبراهيم أن يقول: نعم. وهو يعلم أنهم يعرفون أنه الفاعلُ، وأنَّهم مصرون على القَصَاص منه لا محالة.

ولكنْ أين الإفحام حينئذٍ، وأين تصويرُ حقيقةِ الأصنام أمام أعينِهم؟!

من هنا كان جوابُ إبراهيم لقومه جوابَ الدَّاعية الذَّكيِّ الذي يريد أن يُظْهِرَ الحقيقة أوضح ما تكون وأعمق ما تكون: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وهكذا وضع إبراهيم أمام الكفَّار عَقَبةً كَؤُودًا، تقتضيهم الرجوعَ إلى عقولهم، وتتطلب منهم التفكير السليم الذي لم يهتموا به يومًا من الأيام.

ومن هنا أدركتهم الحيْرةُ وسُقِط في أيديهم أمام حجَّة إبراهيم .. لماذا لم يسألوا المجنيَّ عليه: مَن الجاني؟ ولماذا بقي هذا الصنمُ الكبير سليمًا لم يُمسَّ، ولماذا لا يكون هو الفاعل وهو أكبر الأصنام؟!

أسئلةٌ طافت بخواطرهم سريعًا أثارها إبراهيمُ بجوابه الذكيِّ العميق، حتى لقد أحسوا كأنهم ظلموا إبراهيمَ، وافتروا عليه حين نسبوا إليه هذا الفعل قبل أن يسألوا الأصنامَ: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤]؛ وبعضُ المفسِّرين يرى أن معناها: أنتم الظالمون في تركها لا حافظَ لها ولا حارس.

والمهمُّ أن إبراهيمَ عليه السلام قد أفلح في إثارة تفكيرهم، وتوقُّفهم في الأمر، وكان ما بعد ذلك هو الأهم.

فقد أفاقوا من غمرةِ هذا التَّفكير ليردوا مسرعين بأنَّ هذه الأصنامَ لا تنطق، فكيف تطلب منا أن نسألها؟!: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. ومن هنا أمسك إبراهيم عليه السلام بهذا الخيط واتَّفق معهم على أنَّها لا تنطق، وانطلق من هذه النقطة مجلجلًا أمام جموعهم بكلمة الحقِّ هادرًا بدعوة الإيمان: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

وإذن فلا إنكار من إبراهيم عليه السلام ولا تهرُّب من التهمة بل إنه قلب ساحة المحاكمة إلى

مجال لمواصلة الدعوة حيث ارتقى بها إلى ذروة المواجهة للعقيدة الباطلة .. فماذا بعد أن يجعل الأصنام أمام أعينهم حطامًا من الحطام وأن ينتزع منهم اعترافًا بأنها لا تنطق وإذن فهي لا تحس ولا تضر ولا تنفع ثم يصرخ فيهم مستثيرًا ملكة العقل والفكر فيهم: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾؟!

والخليل إبراهيم عليه السلام هو الذي حاور الملك المتجبر « النمروذ » الذي ادعى أنه يحيي ويميت لما سمع من إبراهيم قوله: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وكان هذا خداعًا لفظيًّا من هذا المتجبِّر الذي لم يفهم معنى الإماتةِ والإحياء، فزعم أنه يستطيع العفوَ عمن حكم عليه بالقتل، فيكون قد أحياه، وعلى قتلِ من لا يستحق القتل، فيكون قد أماته.

وعندئذ خرج به إبراهيم عن هذا النِّطاق الذي لا يفلح فيه إقناعٌ، وانتقل به إلى مجال الكون الفسيح الذي يروع ويبهر؛ ليشعره بضعفه وعجزه وحقارته أمام هذه الدعوى التي يفتريها: ﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهي البراعةُ في الحوار، واستعمالُ العقل في المناقشة والاحتكام إلى ظواهر الكون وآيات اللّٰه في الآفاق ..

مما يدلُّ على أنَّ الداعيةَ يستخدم وسائلَ الإقناع، ويسلك سُبُلَ المحاورة بالمنطق السليم، ولا يكتفي بقراءة النُّصُوص وحدها.

* * *

• وقد اشتمل القرآنُ على المثل الأعلى للحوار والإقناع وبيان الحكمةِ في التشريع والسلوك والأخلاق.

وهذا موضوعٌ مستقلٌّ بذاته يحتاج بيانه إلى مئات الصفحات ..، ولكننا نشير إلى أمثلة لحوار القرآن مع أصحاب العقائد الضالة لإزالة الشبهات وكشف المغالطات .. ليكون ذلك دليلًا على مجالٍ واسع للرَّأي في المناقشة والحوار ..

فالدين عقيدة تستقرُّ في القلب، وحقيقةٌ يقتنع بها العقل، ولا يتأتى فيها الإكراهُ والقسر .. فقد بيَّنَ الكتاب العزيز أنه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبدعوات الرُّسل وحوارهم مع الأقوام وبيانهم للحجَّة والدَّليل، تقوم الحجَّة على الناس كما قال الحق سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ

بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. ومن هنا كان مما يجب للرُّسُل من صفات: الصِّدق والأمانة والتَّبليغ والفطانة.

والصِّدقُ والأمانة يضمنان ألا يعوِّل الرسل في خطابهم لأقوامهم وحوارهم معهم إلَّا على الحقِّ مع أداء الرسالة بالأمانة دون زيادةٍ ولا نقصانٍ.

أما التَّبليغ، فهو القيام بواجب الدَّعوة واستخدامُ كلِّ الوسائل الصَّحيحة في هذا البلاغ ومنها: الحوار والنقاش والجدل بالتي هي أحسن..

● ومن هنا قال قوم نوحٍ له كما جاء في القرآن: ﴿ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود: ٣٢]. وذلك؛ لأنه كان يواصل الدَّعوة ليلًا ونهارًا، ويستخدم البشارةَ والإنذار.

وأمَّا الفطنةُ، فهي الذَّكاء، ونفاذ الفهم والخبرة بأحوال النَّفس البشريَّة وطرق الإقناع. قال في القاموس: الفطنة الحِذْق، وهو حسنُ المعرفة، وإتقان العمل والإحاطة به.

ومن هنا نجد في الكتاب العزيز حوارًا مع المشركين لإزالةِ الشُّبهات وكشف الافتراءات، وإيقاظ العقول؛ لتعرف الحقَّ وتتحرَّر من التَّقليد الأعمى والإذعان للخرافات والأساطير، ونضرب لذلك مثلًا ما جاء في سورة الزُّمر من مناقشة عقائد المشركين.

وقد سلكت سورة « الزُّمر » في مناقشة المشركين طريقَ الحوار، وهو من أنجع الأساليب في التعليم والإقناع..

والسؤال الأول: تذكيرٌ بحقيقة الخلق: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]، والجوابُ لا يحتمل الانتظارَ؛ لأنه بديهيٌّ لا خلاف عليه: « اللَّه ». وهذا ما كان المشركون يقرُّون به ولا يجادلون فيه.

ومن هنا يأتي السؤال الثاني: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، وما داموا لا يرون لهذه الأصنام أثرًا في حياتهم في كشف الضرر عمن ابتلاه اللَّه به، أو في منع الخير والرحمة عمن قدرها اللَّه له، فلماذا يستمسكون بعبادتها؟

إنه العنادُ والاستكبار والوهم الضَّال، وليس هناك من سبيل إلا أن يرجع الأمر إلى اللَّه في هؤلاء المنكرين المشركين: ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

كما نقضت سورة الزُّمر شبهةً أخرى للمشركين، فقد زعموا من قبل أنَّهم يتقربون بعبادة الأصنام إلى اللَّه سبحانه، ثم زعموا أنهم يعبدونها؛ لتشفع لهم عند اللَّه، فجاء الجواب القرآني الصريح: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

والشفيع لابد أن يتصفَ بالعقل والبيان، كما ينبغي أن يكون له شأنٌ عند من يشفع عنده، ولكن هذه الجماداتُ التي قدسوها لا تملك شيئًا، وليس لها عند اللَّه وزنٌ، فهي أحجارٌ صمَّاء لا تعقل ولا تبين، فكيف يزعم المشركون أنَّهم يبتغون عندها الشفاعةَ التي لا ينالها الملائكة المقربون إلا إذا رضي اللَّه لهم ذلك: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وهكذا انهارت دعاوى المشركين في القُرْبى والشَّفاعة بهذا الرَّدِّ القرآنيِّ المحكم..

ولا تترك سورة الزُّمر المشركين حتى تبيِّن شناعةَ حالهم وفساد قلوبهم، إذ تشمئزُّ من التوحيد، وتستبشر بالشرك وتلك غاية الانتكاس، وتشويه الفطرةِ؛ لأنَّ العكس هو الصحيح: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

• وفي سورة الزُّمر، ذات الموضوع الواحد، مواقفٌ في حرب الشِّرك وأهله عن طريق الحجَّة والبرهان، تستوجب التأمل والاعتبار.

ففيها ثلاثُ إشاراتٍ إلى كذبِ المشركين في اعتقادهم أنَّ للَّه سبحانه شركاءَ وأندادًا. فالأولى في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ [الزمر: ٣]، والثانية في قوله: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ ﴾ [الزمر: ٣٢]، والثالثة في قوله عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

وهذه الإشاراتُ الثَّلاث تتدرج في أحوالها ومواقفها، فالأولى تخبر أنَّ اللَّه سبحانه لا يهدي هؤلاء المشركين الكاذبين.

والثَّانية تخبر أنَّهم أشدُّ النّاس ظلمًا للحقيقة ولأنفسهم.

والثالثة تبينٌ عاقبةَ هذا الظلم بتصوير حالهم يوم القيامة جزاءَ كذبهم واستكبارهم، فوجوههم مسودةٌ رمزًا لسواد قلوبهم وتشويه فطرتهم.

ثم يأتي الموقف الأخير في سورة الزُّمر لمفاصلة هؤلاء المشركين الكذبة: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

فقد تهيَّأ الموقفُ لهذه المفاصلة الحاسمة بعد مناقشة الشُّبهات ودحض المفتريات، وتصوير حقيقة حال المشركين الذي لا يعدو كونه كذبًا واستكبارًا لا حجَّة له ولا برهان.

بعد ذلك كله يأمر اللَّه رسوله ﷺ أن يخاطب هؤلاء الضَّالين بقوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، أي: أفبعد وضوح هذه الحقائق، ودحض هذه الشُّبهات تطالبونني أن أوافقكم على هذا الضَّلال، وأن أقرَّكم على هذا الكذب والافتراء: أن أعبد غيرَ اللَّه، أو أن أرضى عن عبادتكم لغيره سبحانه؟! إن هذا جهل لا أساس له وظلم لا أشنع منه.

وقد تغيَّر مساقُ الخطاب بعد ذلك إلى خطاب النَّبي ﷺ، فقد أعرض الخطاب عنهم، بعد أن واجههم بالحقيقة وأنذرهم بالمصير، واتَّجه الخطاب إلى الرسول ﷺ باعتباره الذي جاء بالصِّدق وصدَّق به، وباعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين لربط حلقات الأجيال، وبيان أن التَّوحيد هو دعوةُ كل الأنبياء والمرسلين من قبل، وأنه لم يأت نبيٌّ إلَّا به، وأنه لا يُقْبل عملٌ إلا على أساسه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

أمَّا الوعيدُ في قوله سبحانه: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، فإنَّما يقصد به - واللَّه أعلم - إعلام الكافرين أنَّ اللَّه سبحانه لا يغفر أن يُشرك به وأنه لا يعفو عن هذه الخطيئة إنْ أصر عليها العبد، حتى لو كان مرتكبها نبيًّا مرسلًا أو ملكًا مقربًا، فما بالك بهؤلاء المشركين الْكَذَبة؟! فهذا التَّحذير يقصد به إيصاد باب العفو عن هذه الجريمة النكراء وتشنيع جزائها حتى يحذر منها كل عاقل.

وفي ختام سورة الزُّمر نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. فنجد فيها كشفَ بواطن هؤلاء المشركين وبيان علة تردِّيهم في الهاوية، ذلك أنَّهم لم يعرفوا عظمةَ خالقهم، ولم يتصوروا كمالَه ﷻ، ولم تمتلئ قلوبُهم بإدراك معنى قدرته التي ذلَّ لها كلُّ شيء، ولو أنَّهم أدركوا هذه المعاني لنزَّهوا اللَّه سبحانه عن أن يكون له شريكٌ في الملك، ولعرفوا أن اتِّخاذهم الأندادَ من دون اللَّه خروجٌ عن حدِّ الإيمان بعظمته وكماله.

• وهكذا نرى أنَّ سورةَ الزُّمر ذاتُ موضوعٍ واحدٍ مترابطِ الأجزاء تنتهي بمتدبرها إلى التوحيد الخالص والإيمان الصحيح، فقد بدأت بذكر مقولات المشركين والرَّدِّ عليها وانتهت ببيان مصائرِهم مقرونة ببيان مصائر المؤمنين الموحدين، حتَّى يتضح الفارق وتزول الحجب عن البصائر، ولهذا سُمِّيت سورةُ الزُّمر أخذًا من نهايتها، وشتَّان ما بين المشهدين: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ ﴾ [الزمر: ٧١] وبعدها: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ ﴾ [الزمر: ٧٣] ونهايتها حمد اللَّه على هذا المصير الحقِّ والقضاء العادل الذين أعطى كلًّا من الفريقين ما يستحق: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥].

كما تحدَّث القرآنُ عن الأصنام وأيقظ الوعيَ الإنسانيَّ بأنَّها لا تصلح أن تكون معبودًا بحقٍّ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠ - ١٩٢].

ولأنَّ قضيةَ إثبات التوحيد، ونفي الشِّرك هي القضيةُ الأولى في القرآن، فقد جاء تأكيد عجز الأصنام عن نصرِ من يعبدونها، بل عن نصر أنفسها: ﴿ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٢] ثم واجهت الآيات المشركين بهذه الحقيقة مرةً أخرى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٧] فالأولى حُكم، والثانية مواجهةٌ ومجابهةٌ.

وقد أكَّد القرآنُ عجزَ هذه الأصنام وهوانها بمختلف صور التَّعبير، وأثار إحساس المخاطبين بذل هذه المعبودات الباطلة وحقارتها، فهي أضعفُ من الإنسان الذي يعبدها وأعجز، كما قال سبحانه: ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

فهذا الاستفهام الإنكاريُّ يجسّم خطيئةَ المشركين في دعائهم ما لا ينفعهم شيئًا ولا يضرُّهم، كما يصور الهاويةَ التي ينحدرُ إليها من تستهويه الشياطينُ إلى حَيْرةِ الضَّلال، فلا يجيب نداء من يدعوه إلى سلوك الطَّريق المستقيم.

كما ضرب القرآن مثلًا للأصنام يوضِّح حقيقتَها في قوله سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

فليس هناك أوهنُ ولا أوهى من بيت العنكبوت، ذلك الذي يطير بنفخةٍ واحدةٍ ويزول بأدنى ملامسةٍ، فكيف يعوّل عاقل على هذا الضَّعف ليحتمي به أو على هذا الهوان؛ ليعتز به؟!

وإذن فهذه المعبودات الباطلة ليست شيئًا في الحقيقة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

ولا يجوز أن تكون ندًّا لخالق الأرض والسَّماوات، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ولا نريد هنا عرض المنهج القرآنيّ العظيم في مواجهة دعاوى المشركين وأباطيل المبطلين وعرض مواقف الأقوام مع أنبيائهم، وكيف ردَّ عليهم الأنبياء بما يوضح الحقَّ ويبدد الشُّبهةَ، ولا كيف ردَّ القرآن على مقولات المشركين من أهل الكتاب..

وإنما نريد تأكيد أنَّ القرآن قد عرض دعوة التوحيد التي هي لبُّ لباب الإسلام وأساس بنائه، بمنهج الإقناع والحوار..، ولو كان الأمرُ أمرَ إكراهٍ على العقيدة لما كان هناك مجالٌ لحوار.. بل يكون المجال للقوَّة، كما قال أبو العلاء المعري في لزومياته:

تَلَوْا بَاطِلًا وَجَلَوْا صَارِمًا وَقَالُوا صَدَقْنَا؟ فَقُلْنَا: نَعَم!

فالمقام هنا للسيف وليس للعقل والحجَّة

أمَّا الإسلام فقد أيقظ بديهةَ العقل، وشحذ طاقته للتأمُّل والبحث: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وهناك أبحاثٌ أُلِّفت عن أسلوب الجدل في القرآن وتعويل القرآن على الحجَّة والبرهان.

وقد أوجز القرآنُ ما دار بين الرُّسُل وأقوامهم، وإنْ كانوا في أزمان متباعدةٍ، فكلهم جاء بالبيِّنات، أي: الدَّلائل الواضحة على صدق ما يدعون إليه..، وكلهم وجهوا بالتَّكذيب والصَّد والاستهزاء في الرَّد..

قال الحقُّ سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٣].

فما أروعَ أن يحطِّمَ الرسلُ جدارَ الجحود بقولهم الموقظ لأقوامهم: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟!.

فالإيمان باللّٰه يدرك ببديهة العقل وبإلهام الفطرة..، فكيف يكون موضعَ جدالٍ أو إنكارٍ؟!

وكذلك قولهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [ابراهيم: ١١].

فهو الإقرارُ بالبشريةِ مع التَّنبيه إلى الخصائص التي يختص اللّٰه بها من يشاء من عباده..

• وهذا مثل من أمثلة حوار الرُّسُل مع أقوامهم، واستعمالهم لأدوات الإقناع في حوارهم من الاستفهام الاستنكاريِّ الموقظ في قولهم: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ والتقرير الهادئ المقنع: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ ليكون ذلك منهجًا للدعوة، وأساسًا للحوار والمناقشة.

شبهة باطلة:

وكيف يتَّهمُ المفترون الإسلام بكبت حُرِّيَّة الكلمة والنهي عن الحوار، وقد جاء لفظ « قال » في القرآن الكريم خمسمائة وتسعة وعشرين مرة.. وجاء لفظ « قالوا » ثلاثمائة واثنتين وثلاثين مرة. ولفظ « قل » ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرة أيضًا.

وكذلك ورد لفظ « قالت » منسوبًا إلى الفرق والأشخاص ثلاثة وأربعين مرة، إلى جانب عشرات المواضع التي ذكر فيها القول ومشتقاتِه، ومجموعها يزيد على ألف وخمسمائة موضع في القرآن.

هذا عن القول ..

أمَّا « الكلمة » ومشتقاتُها فهي أيضًا كثيرةٌ في القرآن، فقد جاء لفظ « الكلمة » في ستة وعشرين موضعًا في القرآن منها قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

فانظرْ كيف قسم الكتابُ العزيزُ الكلمةَ إلى قسمين: طيبةٍ وخبيثةٍ، وجعل لكلٍ منهما خصائصَ وآثارًا وعاقبة ..، فالكلمةُ الطَّيبةُ تشبه الشجرةَ الطيبةَ ذاتَ الجذورِ الممتدةِ، والقامةِ السامقةِ، والثمرات الطيِّبة المباركة.

أمَّا الكلمةُ الخبيثةُ، فهي تشبه الشجرةَ الخبيثةَ التي لا جذورَ لها ولا امتداد، وهي ضارةٌ مؤذيةٌ لا ثمرَ لها ولا منفعة من بقائها، فلا تلبث حتى تقطع ويجتثّها الناس، حتى تفسح المجالَ للشَّجر الطيِّب المبارك.

ومعنى ذلك: أنَّ الصراع يدور بين الكلمة الطيِّبة والكلمة الخبيثةِ منذ فجر التاريخ .. فكلاهما موجودٌ في كل زمان ومكان ..، ولكن لا ينبغي أن يحاولَ أصحاب الكلمةِ الخبيثةِ التَّعتيم والتَّشويش على الكلمة الطَّيِّبة، أو محاولة حجب ضيائها عن الناظرين.

وهنا تظهرُ الحاجةَ إلى الحوار الهادئ والخطاب الواعي، البعيد عن العصبيَّةِ والغضب والانفعال والعناد.

* * *

الرأي في مجال السياسة والحكم

الحكمُ في الإسلام أمانةٌ يتحمَّلها الحاكمُ والمحكومُ..، والأمر في الإسلام يسيرٌ وسهلٌ..، ولا صلةَ له بأفكار أوربا في العصور المظلمة، حين كان الحاكمُ يعلن أنَّ لديه تفويضًا إلهيًّا مطلقًا، ولا يجوز لأحدٍ أن يعارضَه أو ينصحه، أو ينقد عملًا من أعماله.

أمَّا في الإسلام فإنَّ « الإمامةَ موضوعةٌ لخلافةِ النُّبوة في حراسة الدِّين وسياسة الدنيا وعَقْدها لمن يقوم بها في الأمَّة واجبٌ بالإجماع » (١).

فهي ذاتُ مهمةٍ واضحةٍ محدودةٍ، لا قداسةَ فيها للحاكم ولا تفويضَ بالحقِّ الإلهيِّ، كما كان يزعم أباطرةُ أوربا في القرون الوسطى. بل إنَّ « الماورديَّ » يقرِّر أنَّ الإمامةَ فرض على الكفاية، كالجهاد وطلب العلم، فإذا قامَ بِها من هو أهلها سقط فرضُها على الكفاية (٢).

• وكذلك وقع الخلافُ في الإمامة: هل وجبت بالعقلِ أو بالشَّرع؟ فقالت طائفة: وجبت بالعقل لِمَا في طباع العقلاء من التَّسليم لزعيم يمنعهم من التَّظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاةُ لكانوا فوضى مهملين وهمَجًا مضاعين.

وقد قال الأفوه الأَوْديّ وهو شاعرٌ جاهليٌّ:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سُرَاةَ لَهُمْ   وَلَا سُرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

وقالت طائفة أخرى: بل وجبت بالشَّرع دون العقل؛ لأنَّ الإمامَ يقوم بأمور شرعية قد كان مُجَوَّزًا في العقل أن لا يرد التعبُّد بها، فلم يكن العقل موجبًا لها، وإنَّما أوجب العقل أن يمنع كلُّ واحدٍ نفسه من العقلاء عن التَّظالم والتَّقاطع، ويأخذ بمقتضى العدل في التَّناصف والتواصل، فيتدبر بعقلِه لا بعقل غيره، ولكنْ جاء الشَّرع بتفويضِ الأمور إلى وليه في الدين. قال اللَّه ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء: ٥٩].

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي (ص ٥)، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
(٢) المرجع السابق.

ففرض علينا طاعةَ أولي الأمر فينا، وهم الأئمةُ المتأمِّرون علينا. وروى هشام بن عروة عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « **سَيَلِيكُمْ بَعْدِي وُلَاةٌ فَيَلِيكُمُ البَرُّ بِبِرِّهِ، وَيَلِيكُمُ الْفَاجِرُ بِفُجُورِهِ، فَاسْمَعُوا لَهُمْ وَأَطِيعُوا فِي كُلِّ مَا وَافَقَ الحَقَّ، فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ** » (١).

• ثمَّ إنَّ هناك ضوابطَ فيمن يكون أهلًا للإمامة ذكرها « الماورديُّ » منها: العدالة على شروطها الجامعة. والعلمُ المؤدِّي إلى الاجتهاد في النَّوازل والأحكام، وسلامة الحواس والأعضاء، وامتلاك حسن الرَّأْي المفضي إلى سياسة الرَّعيَّة وتدبير المصالح، والشجاعة والنَّجدة المؤدية إلى حماية البَيْضة وجهاد العدو (٢).

وهكذا يُشترطُ في الإمام الرَّأْيُ الذي يستطيع به سياسةَ الرَّعية ..، وكذلك أهل الاختيار الذين يوكلُ إليهم اختيارُ الإمام لهم شروط ثلاثة:

أولـهـا: العدالةُ الجامعةُ لشروطها.

الثاني: العلم الذي يُتوصَّل به إلى معرفة من يستحقُّ الإمامة على الشروط المعتبرة فيها.

الثالث: الرَّأْيُ والحكمة المؤدِّيان إلى اختيار من هو للإمامة أصلحُ، وبتدبير المصالح أقومُ وأعرفُ (٣).

فها هو « الرَّأْيُ » شرطٌ معتبر فيمن يصلح للإمامةِ، وشرطٌ معتبر أيضًا في من يكون أهلًا للاختيار.

ومن هنا فلا ينبغي للإمام « صاحب الرَّأْي » أن يضيقَ برأيٍ آخر، فربَّما كان فيه من الحكمة والصَّواب ما يعينه على اتِّخاذ القرار الصحيح ..

• وقد عرفنا فيما سبق في فصل « الشُّورى » أنَّ النَّبِي ﷺ كان في بعض الأحيان يَعدل عن رأيه إلى رأيِ أحد أصحابه، كما حدث في غزوة بدر وغزوة الخندق؛ ليتعلم أصحابه ألا يضيقوا بالرَّأْي الآخر، بل عليهم أن يعرضوه على مقاييس الحكمة وقواعد

---

(١) هكذا أورده الماوردي في الأحكام السلطانية دون تخريج. ولم يرد بهذا اللفظ في شيء من الكتب المعتمدة، وقد توجد أحاديث في معناه. المسند (٤٢٤/١).

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي (ص ٦) مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق.

المنطق السليم، بعد العرض على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد احتمل النبيُّ ﷺ أن يسمع من بعض الجهَّال اعتراضًا على قسمته للغنائم بعد غزوة حنين حين أعطى النبي ﷺ المؤلَّفة قلوبهم من أهل نجد والطلقاء من قريش، كعيينة ابن حصن والعباس بن مرداس والأقرع بن حابس وأمثالهم، وسهيل بن عمرو وصفوان ابن أمية وعكرمة بن أبي جهل وأبي سفيان بن حرب وابنه معاوية وأمثالهم من الطلقاء الذين أطلقهم عام الفتح، ولم يعط المهاجرين والأنصار شيئًا، أعطاهم ليتألف بذلك قلوبهم على الإسلام، وتأليفهم عليه مصلحة عامة للمسلمين، والذين لم يعطهم هم أفضل عنده، وهم أفضل عباد الله الصالحين بعد النَّبيين والمرسلين.

ولهذا طعن الخوارج على النَّبي ﷺ، وقال له أولُهم: يا محمد، اعدل فإنَّك لم تعدل، وقال: إنَّ هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، حتى قال النَّبي ﷺ: « **وَيْحَكَ وَمَنْ يَعْدِلْ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ** » فقال له بعض الصحابة: « **دعني أضرب عنقَ هذا** » (١).

والحديث في صحيح البخاريِّ تحت عنوان: باب من ترك قتالَ الخوارج للتَّأليف وألا ينفر الناس منه فروى بسنده عن أبي سعيد قال: بينا النَّبيُّ ﷺ يُقَسِّم جاء عبد الله ابن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله فقال: « **وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلْ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!** » قال عمر بن الخطاب: دعني أضربْ عنقه! قال: « **دَعْهُ** » (٢)..

فانظر كيف اكتفى رسول الله ﷺ بإثبات العدل لنفسه، فهو أولى الناس بالعدل؛ لأنه الذي تلقَّى أمانة الوحي وقرأ فيه قول الحق سبحانه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

ولم يرتض النَّبيُّ ﷺ قتلَ هذا المعترض، مع علمه باستحقاقه للقتل لما كان في قلبه من سوء ظنٍّ بالرسول المعصوم ﷺ، حتى لا تكون سنةً يعمل بها من بعده في عقاب من يعترضُ أو ينتقدُ؛ لتظل للرأيِ مساحةٌ في حياة الناس، فإن كان رأيًا محمودًا نافعًا قبلوه، وإن كان رأيًا شاذًّا فاسدًا أعرضوا عنه.

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية – ضمن فتاويه – (٥٧٩/٢٨، ٥٨٠)، ط القاهرة، دون تاريخ.

(٢) صحيح البخاري (١٩٨/٤) بحاشية السندي، طبع عيسى الحلبي، القاهرة، دون تاريخ.

نصح الخلفاء:

والخلفاءُ الرَّاشدون - رضوان اللَّه عليهم - كانوا يطلبون النُّصح والتقويم، فقد روي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنَّه قام في الناس خطيبًا بعد أن بايعوه على الخلافة فقال: أما بعد أيها الناس، فإنِّي قد ولِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدقُ أمانةٌ والكذب خيانة، والضَّعيف فيكم قويٌّ حتى أُرْجعَ إليه حقَّه - إن شاء اللَّه - والقويُّ فيكم ضعيفٌ حتَّى آخذ الحقَّ منه - إن شاء اللَّه - ولا تشيع الفاحشةُ في قومٍ إلَّا عمَّهم اللَّه بالبلاء.

أطيعوني ما أطعتُ اللَّه ورسوله، فإن عصيتُ اللَّه ورسوله فلا طاعةَ لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللَّه. قال ابن كثير: وهذا إسنادٌ صحيح [١].

وقال أيضًا مخاطبًا الأنصار: واللَّه ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلةً ولا سألتها اللَّهَ في سرٍّ ولا علانيةٍ [٢].

وقال أيضًا: إنما أنا متَّبعٌ ولست مبتدعٍ، فإن استقمتُ فبايعوني، وإن زُغْت فقوِّموني [٣].

• فهذا هو دستورُ الحكم في الإسلام، فلا استبدادَ ولا انفرادَ بل الأمر شورى، والخليفة يطلب من النَّاس أن يعينوه على مسئولياتِه إن هو استقام وأصلحَ، وإلا فعليهم أن يقوِّموه بالنُّصح والإرشاد بالحكمة والموعظة الحسنة والأدب مع من تولَّى أمرهم، وليس بالتشهير والعناد، مما يسمَّى في الأنظمة الغربيةِ « المعارضة » التي لا همّ لها إلا تصيُّد الأخطاء والمعايب وتضخيمها؛ ليئول إليها الأمر مِنْ بَعْد.

إن الإسلامَ لا يعرف هذه « المعارضةَ » بل يفتح البابَ أمام النَّصيحة المخلصةِ التي هي واجبٌ على كلِّ مسلم.

وهذا هو مغزى الحديث الشَّريف الذي رواه الشيخان عن تميم الدَّاري أنَّ النَّبِي ﷺ قال: « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** » قلنا لمن يا رسول اللَّه؟ قال: « **للَّه وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ** » [٤].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠١/٦)، ط مكتبة المعارف، بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

(٢) المرجع السابق (٣٠٢/٦). (٣) المرجع السابق (٣٠٣/٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب رقم (٤٢)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم (٩٥).

والنَّصيحةُ معناها الإخلاص، ومن مقتضيات الإخلاص تقديمُ المشورة وإبداء الرَّأي الصائب فيما يعتري الأمةَ من قضايا ومشكلاتٍ، وهذا عمرُ بن الخطَّاب ﷺ يقول: « أحبُّ الناس إليَّ مَنْ رفع إليَّ عيوبي » (١).

وكان أول كلامٍ يتكلم به بعد أن بويع:

« أمَّا بعد: فقد ابتُليتُ بكم وابتُلِيتم بي وخَلفت فيكم بعد صاحبي، فمن كان بحضرتِنا باشرناه بأنفسنا، ومهما غاب عنَّا ولَّينا أهل القوة والأمانة، فمن يُحْسن نزدْه حسنًا، ومن يسئ نعاقبه - ويغفر اللّه لنا ولكم - » (٢).

وعن جامع بن شداد عن أبيه قال: كان أول كلام تكلم به عمر حين صعد المنبر أن قال: « اللَّهم إنِّي شديدٌ فليِّنِّيَّ وإني ضعيفٌ فقوِّني، وإني بخيلٌ فسخِّني » (٣) ..

وكان عمر بن الخطَّاب ﷺ كثير المشاورة لمن كان حوله من الصحابة.

وقد روى البخاريُّ في صحيحه في كتاب المناقب عن عروة بن الزُّبير أن عبد اللّه ابن عديِّ بن الخيار أخبره أن المِسْور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود قالا له: ما يمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد بن عقبة - وهو أخوه لأُمِّه - فقد أكثر الناسُ فيه. فقعدتُ لعثمان حتى خرج إلى الصَّلاة فقلت له: إنَّ لي إليك حاجةً، وهي نصيحةٌ لك. فقال عثمان: أيها المرء أعوذُ باللّه منك!

فانصرفتُ فرجعت إليهما، إذ جاء رسولُ عثمان، فأتيته فقال: ما نصيحتُك؟ فقلت: إن اللّه بَعث محمدًا بالحقِّ وأنزل عليه الكتابَ، وكُنْتَ ممن استجاب للّه ولرسوله ﷺ، وسمعتَ رسولَ اللّه ورأيتَ هَدْيه وقد أكثر النَّاسُ في شأن الوليدِ.

فقال عثمان: أدركتَ رسولَ اللّه؟ قلت لا ولكنْ خَلص إليَّ من علمه ما يَخلص إلى العذراء في سِتْرها.

فقال عثمان: أما بعد، فإن اللّه بعث محمدًا ﷺ بالحقِّ، فكنتُ ممن استجاب للّه ولرسوله، وآمنتُ بما بُعِثَ به، وهاجرتُ الهجرتين كما قلتَ، وصحبتُ رسول اللّه وبايعته، فواللّه ما عصيتُه ولا غشَشْته حتَّى توفَّاه اللّه ﷺ، ثم أبو بكر مثله، ثم عمر مثله،

(١) طبقات ابن سعد (٢٩٣/٣)، ط صادر بيروت.
(٢) المرجع السابق (٢٧٤/٣). (٣) المرجع السابق.

ثم استُخْلِفْت أليس لي من الحقِّ مثل الذي لهم؟

قلت: بلى. قال: فما هذه الأحاديثُ التي تبلغني عنكم؟! أما ما ذكرتَ من شأن الوليد، فسنأخذ فيه بالحقِّ – إن شاء اللَّه تعالى – ثم دعا عليًا فأمره أن يجلده – أي الوليد ابن عقبة – بعد أن شهد عليه شاهدان بأنَّه يشرب الخمر فجلده عليٌّ ثمانين جلدة (١).

• فهذا هو عثمان بن عفان ﷺ في سلوكه الجميل الذي لا تَبْلغ أرقى النُّظم التي يسمونها « الديمقراطية » أن تصل إلى شيءٍ منه، يخرج إلى الصَّلاة مع المسلمين في مسجد النَّبي ﷺ، فيكلمه شابٌّ من شباب المسلمين – لم ير رسولَ اللَّه ﷺ لحداثة سنّه – ويقول له: عندي نصيحةٌ لك، فلا يغضب ولا يأمر بعقابه، بل يرسل إليه رسولاً يستدعيه؛ ليجلس معه وحده ويسمع منه نصيحته، وحين يتحقَّق الخليفة من جنوح أخيه لأمه – الوليد بن عقبة – يأمر بإقامة الحدِّ عليه وعزله .. فهل تكون الديمقراطيةُ والعدالة والمساواة إلا هكذا؟ ..

بين الحاكم والمحكوم:

ينبغي أن نصرح في هذه القضية وأن نستعلم رأيَ الإسلام في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فالحاكم في الإسلام هو رجل ارتضته الأمة لحمل أماناتها، وأداء رسالتها وإقامة ميزان الحق فيها، سواء كان اختياره عن طريق أهل الحل والعقد، وهم أهل الشُّورى والاجتهاد، أو عن طريق العهد إليه من الخليفة الذي قبله، كما صنع أبو بكر ﷺ حين عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب، وكما فعل عمر حين عهد بها إلى ستَّة سماهم يتشاورون فيما بينهم ويختارون أصلحَ الناس لهذا العمل الخطير والمهمة الصعبة.

من هنا أوجب الإسلام التناصحَ بين الحاكم والمحكوم، وفتح الباب لإبداء الرَّأْي الصائب في قضايا المسلمين، وتقويم المعوجّ وإصلاح الفاسد.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن زياد بن علاقة قال: سمعت جرير بن عبد اللَّه على المنبر يقول: « بايعت رسول اللَّه ﷺ فاشترط عليَّ النصح لكل مسلم، فإني لكم ناصح » (٢).

وروى البخاريُّ في كتاب الإيمان من صحيحه عن جرير بن عبد اللَّه قال: « بايعت رسول اللَّه ﷺ على إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة والنُّصح لكل مسلم » (٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب (٢/١٦٠)، ط الخيرية.

(٢) مسند أحمد (٤/٣٦٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب رقم (٤٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « **إنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاه اللَّهُ عَلَيكُمْ ...** »(١).

إنَّ الأمرَ في نصيحة الحكَّام وإبداء الرَّأي في أعمالهم موقفٌ دقيقٌ، يحتاج إلى فقهٍ وحكمةٍ وإخلاصٍ ونصيحة، وإلى معرفةٍ بطباع النفس البشريةِ، وبعدٍ عن الغلظة والجفاء، فقد أمر اللَّه تعالى نبيه موسى الكليم وأخاه هارون عليهما السلام: أن يُلينا الخطابَ لفرعون الجبار مع طغيانه وعُتُوِّه وعناده، فقال تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

ذلك؛ لأنَّ إلانةَ القول وتهذيب الخطاب يهيِّئ الفرصةَ للاستماع والقبول.

أمَّا المخاشنة والإغلاظ والتوبيخ والوعيد، فإنه يثير في النفس مشاعر الغضب والتَّحدي والانتقام. ولهذا نجد القرآنَ الكريمَ يدعو إلى الإحسان والتَّجمل في كل خطاب، فالموعظة لابدَّ أن تكون حسنةً: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وحتى في ردِّ الكلمة السيِّئة يوصي القرآنُ بمقابلتها بالكلمة الحسنة، فقد قال الحق سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

فانظر كيف أعلى الحقُّ سبحانه مكانةَ من دعا إلى اللَّه وعمل صالحًا، ثم أعقب ذلك ببيان الفرق بين الكلمة الحسنة، والكلمة السيئة، وكيف يؤدي حسن الكلمة إلى قبولها والتأثر بها.

آداب النصيحة:

ومن هنا فلا ينبغي لمن يتحمَّل أمانةَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يلجأ إلى المخاشنة والتعنيف وألَّا يراعي مقامات الخطاب، حتى لا يؤدِّي كلامه إلى عكس المقصود.

---

(١) مسند أحمد (٢٦٧/٣)، والموطأ، كتاب الكلام، باب رقم (٢٠).

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن شريح بن عبيد الحضرميّ وغيره قال: جَلد عياض ابن غُنْم صاحبَ دار حين فتحت - أي: دمشق - فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض، ثم مكث ليالي فأتاه هشام بن حكيم فاعتذر إليه، ثم قال هشام لعياض: ألم تسمع النبي ﷺ يقول: « **إِنَّ مِنْ أَشَد النَّاسِ عَذَابًا أَشَدّهُمْ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا لِلنَّاس** » فقال عياض بن غُنْم: يا هشام بن حكيم، قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت، أولم تسمع رسول الله ﷺ يقول: « **مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذهُ بِيَدِهِ فَيَخْلُو بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيهِ لَه** » (١).

وعن عروة بن الزبير أن هشام بن حكيم بن حزام وجَدَ عياضَ بن غنم وهو على حمص يشمِّس ناسًا من النبط في أداء الجزية فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ** » (٢).

• فمبدأ الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر وإبداء النَّصيحة أمر مقرر في الإسلام في كل أنحاء المجتمع، لكن اتباع الحكمة وإحسان الأسلوب وإلانة القول شرط واجب لمن يقوم بتلك المهمة.

قال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني في كتابه « غياث الأمم في التياث الظُّلم »: « فإن قيل: لم تذكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قلنا: الشَّرع من مُفْتتحه إلى مُخْتتمه أمرٌ بالمعروف ونهي عن المنكر، وما يتعلق بالإمام منه ما فصَّلناه: الدعاء إلى المعروف والنهي عن المنكر، وليس إلى الرعيةِ إلا المواعظ والترغيب والترهيب من غير فظاظة ومَلَق، ومَنْ ظهر منه الصدقُ والديانة وتجرُّد لله تعالى، فأوْضح الحقّ وأبانه، على تخضُّع لله واستكانة، ثم زان برفقه شأنه، وما دخل الرفق أمرًا إلا زانه، نجع كلامُه في المستكبرين في زمانهم المتولين بأركانهم » (٣).

فها هو أبو المعالي الجويني يقرِّر آدابَ النَّصيحة لولاة الأمور، مهما كان شأنهم، سواء أعظُمت ولاياتهم أو صغرت، فهي « المواعظ والترغيب » وليس العيب والتأنيب، على أن تكون هذه المواعظ « من غير فظاظة ولا مَلَق » فكلاهما مكروه للناصح الأمين. فالفظاظة لا تؤدي إلى استجابة كما قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) مسند أحمد (٤٠٣/٣). (٢) المسند (٤٠٤/٣).

(٣) غياث الأمم في التياث الظلم (ص ١٧٦، ١٧٧)، تحقيق مصطفى حلمي، ط دار الدعوة - الإسكندرية.

و « الملَق » إيثار للعاجلة وإغماض في النصيحة، مما يشعر الواليَ بأن هذا « الناصح المتملق » إنما يتعرض لما في يده من الدنيا ولا يعنيه أمر الدين!

وهناك فرقٌ بين القول اللين الذي أمر اللَّه موسى وأخاه هارون أن يقولاه لفرعون الجبار..، وبين الملَق والتزلف والمدح الكاذب الذي لا يترك مجالًا للنَّصيحة والوعظ.

فالقول اللَّين هو قول رقيق مرغِّب لا عنف فيه ولا جفاء، فقد قال موسى لفرعون الطاغية وهو يدعوه للإيمان باللَّه سبحانه: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

فهو يعرض عليه الدعوةَ عرضًا لطيفًا مشوقًا يجعل له اختياره وإرادته: « هَل لك .. » وهو يدعوه إلى تزكية نفسه وتطهيرها والسمو بها.. « إلى أن تزكىَّ » والإنسان محبٌّ لنفسه راغبٌ في سعادتها، فإذا كانت الدَّعوة لأمر فيه صلاح لنفسه ورفعة لقدره، فإنه يقبلها ويتمسك بها، إذا كان صحيح العقل بريئًا من التَّعصُّب والعناد.

ثم إنَّ موسى يضع نفسه في مهمة محددة وهي « الهداية » بمعنى الدلالة، ويبقى للمدعو جهده في قبول الهداية والوصول إلى الحق.. ﴿ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ وانظر كيف آثر في هذا المقام لفظ « ربك »؛ لترقيق القلب وتذكيره بالربوبية التي هي رعاية وإنعام وتدبير لمصالح الإنسان ولم يقل: « وأهديك إلى اللَّه »: لاستثارة العاطفة وإيقاظ الفطرة.

العلم أصل:

وما أحسنَ ما قال ابن تيمية في هذه المواقف الدَّقيقة التي تحتاج إلى علمٍ واستبصارٍ، إذ قال: « وأصل ذلك العلم، فإنه لا يُعْلم العدلُ والظلمُ إلا بالعلم، فصار الدين كله: العلم والعدل، وضد ذلك الظلم والجهل، قال اللَّه تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولما كان ظلومًا جهولًا، وذلك يقع من الرُّعاة تارةً ومن الرعية تارةً، ومن غيرهم تارةً – كان العلم والعدل المأمور به: الصَّبر على ظلم الأئمة وجَوْرهم، كما هو من أصول أهل السُّنَّة والجماعة، وكما أمر به النَّبيُّ ﷺ وفي الأحاديث المشهورة عنه لما قال: « **إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَة فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلقوني عَلَى الحَوضِ** ».

وقال: « **من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه** » إلى أمثال ذلك. وقال: « **أَدُّوا لَهُمْ الَّذِي لَهُمْ، وَاسْأَلُوا اللَّه الَّذِي لَكُمْ** » وَنُهُوا عَنْ قِتَالِهِم مَا صَلُّوا.

وذلك؛ لأنَّ معهم أصلَ الدين المقصود، وهو توحيد اللّه وعبادته، ومعهم حسناتٌ وترْك سيئاتٍ كثيرة.

وأمّا ما يقع من ظلمهم وجَوْرهم بتأويلٍ سائغ، أو غير سائغ: فلا يجوز أن يزال بما فيه ظلم وجَوْر، كما هو عادةُ أكثرِ النفوس: تزيل الشَّرَّ بما هو شرٌّ منه، وتزيل العدوان بما هو أعْدَى منه.

فالخروج عليهم يوجب من الظُّلم والفساد أكثر من ظلمهم، فيصبر عليه، كما يصبر عند الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر على ظلم المأمور والمنهي في مواضعَ كثيرةٍ كقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧]. وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

وهذا عام في ولاة الأمور وفي الرعية. إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فعليهم أن يصبروا على ما أصيبوا به في ذات اللّه، كما يصبر المجاهدون على ما يصاب من أنفسهم وأموالهم، فالصَّبر على الأذى في العِرْض أولى وأولى، وذلك؛ لأنَّ مصلحة الأمر والنهي لا تتم إلا بذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ويندرج في ذلك ولاة الأمور، فإنَّ عليهم من الصبر والحِلْم ما ليس على غيرهم، كما أنَّ عليهم من الشَّجاعة والسَّماحة ما ليس على غيرهم؛ لأن مصلحةَ الإمارة لا تتم إلا بذلك.

فكما وجب على الأئمَّةِ الصَّبر على أذى الرَّعية وظُلمها إذا لم تتمَّ المصلحة إلا بذلك، إذ كان تَرْكه يُفْضي إلى فسادٍ أكثر منه، فكذلك يجب على الرَّعية الصَّبر على جَوْر الأئمة وظلمهم إذا لم يكن في تركِ الصَّبر مفسدةٌ راجحةٌ، فعلى كل من الرَّاعي والرَّعية للآخر حقوقٌ يجب عليه أداؤُها » (١).

هكذا تبدو القضيةُ شركة بين الرَّاعي والرَّعية؛ لتحقيق العلم والعدل، بدلًا من الوقوع في هاوية الجهل والظلم.

فهناك عَقدٌ اجتماعيٌ إسلاميٌ يجعل المسئوليةَ مشتركةً بين الجميع، كما قال الحق

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١٧٩/٢٨، ١٨٠) مرجع سابق.

سبحانه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن هنا يكون الرَّأيُ الصَّادقُ الحرُّ أداةً للإصلاح والتعاون لتحقيق أهداف المجتمع المسلم.

* * *

وبهذا ينفصل الرَّأيُ الذي يستهدف التقويمَ والإصلاح والدلالة على طريق النهوض والجد، عن الثورة والخروج على الحاكم الذي يهدم أسسَ المجتمع ويقوِّض بنيانه..

وفي أحاديث الرسول ﷺ التي رواها الشيخان في صحيحيهما أو انفرد بها أحدهما، نرى إخبارًا عن فتنٍ ستقع، وإحاطة للمسلمين باحتمال وقوع الخطأ من الحكام، فهم ليسوا معصومين..

ولكن ما الحل حينئذٍ؟

أيكون الأمرُ فوضى، كل من كره من الحاكم شيئًا خرج عليه وأعلن العصيان؟.

إنها حينئذ فتنةٌ كبرى، كهذه التي وقعت زمن عثمان بن عفَّان ﷺ وكل ما أنكره عليه المنكرون لا يَبْلغ إباحةَ الخروج عليه، ولا العدوان عليه حتى انتهى الأمر بقتله على أيدي البغاة، فكان ذلك إيذانًا بفتنة ماجَتْ مَوْج البحر، وأثَّرت في حياة المسلمين قرونًا عديدة ولا تزال.

• إن التوجيهَ النَّبويَّ الحكيم يوصي بالصبر والتحمل، تجنبًا لتمزيق المجتمع المسلم، مع القيام بواجب النصح والتذكير.

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أم سلمةَ زوج النَّبي ﷺ عن النَّبي ﷺ أنه قال: « .. **وإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيكُمْ أُمَرَاء فتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ** »، أي: من كره بقلبه وأنكر بقلبه « **وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ** » أي: فهو الآثمُ. قالوا: يا رسولَ اللَّه ألا نقاتلهم؟ قال: « **لَا مَا صَلَّوا** ».

إن الحاكمَ بشرٌ، يقع منه الخطأ والصواب، كما يصيبه السهو والنِّسيان، وليس من مصلحة أيِّ مجتمع أن يشقَّ عصا الطَّاعة ويفتح الباب أمام حرب أهليةٍ مدمرةٍ، بسبب

خطأ يمكن التنبيهُ إليه.

وما دامت مصالحُ المجتمع المسلم العليا مصونةً، ومبادئه وغاياته موضع الرعاية، فلا يجوز تهويلُ الأخطاء وتحريض الناس على العصيان، كما حدث في عهد عثمان ﷺ.

وقد كان من الخلفاء من يطلب النصيحة والموعظة من العلماء، كما فعل عمر بن عبد العزيز ﷺ حين ولي الخلافة فقد كتب إلى محمد بن كعب ورجاء بن حَيْوة، وسالم بن عبد الله ابن عمر فقال لهم: قد ترون ما ابتُليتُ به وما قد نَزل بي فما عندكم؟

فقال محمد بن كعب: اجعل الشيخَ أبًا، والشابَّ أخًا، والصَّغيرَ ولدًا، وبرَّ أباك وصِلْ أخاك وتعطَّف على ولدك.

وقال رجاء: ارضَ للناس ما ترضى لنفسك، وما كرهتَ أنْ يؤتَى إليك فلا تأته إليهم.

وقال سالم: اجعل الأمر واحدًا وصمْ فيه عن شهوات الدُّنيا واجعل آخر فطرك فيه الموت، فكأن قد. فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

كما كتب للحسن البصريِّ يطلب منه النصيحةَ، فأجابه برسالةٍ موجزةٍ.

وروى الزبير بن بكار قال: حدثني محمد بن سلام، عن سلام بن سليم قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر، وكان أول خطبة خطبها، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « أيها الناس منْ صَحبنا فليصحبْنا بخمسٍ وإلا فليفارقنا: يَرْفع إلينا حاجةَ مَنْ لا يستطيع رَفعها، ويعيننا على الخير بجهدِه، ويدلُّنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابنَّ أحدًا عندنا، ولا يَعْرض فيما لا يعنيه » فانقشعَ عنه الشُّعراء والخطباء، وثبت معه الفقهاء والزُّهاد [1].

وقال ابن كثير في تاريخه: لما وليَ عمر بن عبد العزيز الخلافة جاءه صاحب الشرطة؛ ليسير بين يديه بالحَرْبة، فقال له عمر: ما لي ولك؟ تنحَّ عني إنَّما أنا رجلٌ من المسلمين، ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال: « أيها الناس إني قد ابتُليت بهذا الأمر عَنْ غير رأيٍ كان منِّي فيه ولا طَلبة له، ولا مشورةَ من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون ».

فصاح المسلمون صيحةً واحدةً: قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ورضينا كلُّنا بك.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٩٨/٩)، ط مكتبة المعارف، بيروت مرجع سابق.

فلما هدأتْ أصواتهم حمد اللَّه وأثنى عليه وقال: « أوصيكم بتقوى اللَّه، فإنَّ تقوى اللَّه خلف من كل شيء، وليس مِنْ تقوى اللَّه خلف، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هازم اللَّذاتِ، وأحسنوا الاستعدادَ له قبل نزوله.

إنَّ هذه الأمةَ لم تختلف في ربِّها ولا في كتابها ولا في نبيِّها، وإنَّما اختلفوا في الدِّينار والدرهم، وإني واللَّه لا أعطي أحدًا باطلًا، ولا أمنع أحدًا حقًّا.

ثم رفع صوته فقال: أيها الناس، من أطاع اللَّه وجبت طاعته، ومن عصى اللَّه فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعتُ اللَّه، فإذا عصيتُ اللَّه فلا طاعة لي عليكم » [1].

* * *

وقد روى الدارميُّ في سننه في باب إعظام العلم بسنده عن الضَّحاك بن موسى قال: مرَّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أيامًا فقال: هل بالمدينة أحدٌ أدرك أحدًا من أصحاب النَّبِي ﷺ؟ فقالوا له: أبو حازم: فأرسل إليه، فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأيُّ جفاء رأيتَ مني؟

قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني، قال: يا أمير المؤمنين، أعيذك باللَّه أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتك، قال: فالتفت سليمان إلى محمد ابن شهاب الزهريِّ فقال: أصاب الشيخُ وأخطأتُ.

قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم الآخرةَ وعمَّرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: أصبتَ يا أبا حازم فكيف القدومُ غدًا على اللَّه؟

قال: أمَّا المحسن فكالغائبِ يقدم على أهله.

وأمَّا المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند اللَّه؟ قال: اعرض عملك على كتاب اللَّه.

قال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

قال سليمان: فأين رحمةُ اللَّه؟ قال أبو حازم: رحمة اللَّه قريبٌ من المحسنين.

ومضى الحوار بين سليمان بن عبد الملك وأبي حازم .. حتى قال له سليمان: فما تقول

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٢١/٩) مرجع سابق.

فيما نحن فيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين أو تُعفيني. قال له سليمان: لا، ولكن نصيحة تلقيها إليَّ: فلما أخبره أبو حازم برأيه قال له رجل من جلساء سليمان: بئس ما قلت يا أبا حازم. قال أبو حازم: كذبتَ، إنَّ اللَّه أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال له سليمان: فكيف لنا أن نُصلح؟ قال تدَعُون التصلف وتمسكون بالمروءة وتقسمون بالسّويّة (١).

والأمثلةُ كثيرةٌ في العصر الأُمويِّ على نصائح العلماء للخلفاء والأمراء وهي مبثوثةٌ في مصادر كثيرة..

• وفي العصر العباسيِّ كان لسفيان الثوريِّ، التابعيِّ الجليل، مواقف من الخليفة أبي جعفر المنصور والمهديِّ ومن أمير مكة وغيرهم من الولاة.

روى أبو نعيم بسنده عن محمد بن مسعود، عن سفيان الثوريِّ قال: دَخلت على المهدي بمنى فلما سلمت عليه بالإمرة قال لي: أيها الرجل طلبناك فأعجزتنا، فالحمد للَّه الذي جاء بك، فارفع إلينا حاجتك. فقلت: قد ملأتَ الأرض ظلمًا وجَوْرًا فاتَّق اللَّه، وليكن منك في ذلك عبرةٌ. قال: فطأطأ رأسه ثم قال: ارفع إلينا حاجتك.

قال: قلت: أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب، فاتَّق اللَّه وأوصل إليهم حقوقهم. قال: فطأطأ رأسه فقال: أيُّها الرجل، ارفع إلينا حاجتك، فقلت: وما أرفع؟ حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال: حج عمر بن الخطاب فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر دينارًا، وأرى هنا أمورًا لا تطيقها الجبال! (٢).

• ولا نستطيع في هذا المجال إحصاءَ العديد من الشَّواهد على شجاعة العلماء في نصحهم للأمراء وجهرهم بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لا يخافون لومة لائم.

فهذا خليفةٌ يبحث عمن يدلُّه على الخير، ويرفع إليه حاجةَ من لا يستطيع الوصول إليه، ولا يحب سماع النميمة ولا فضول الكلام، بل إنه أرسل رسالة إلى الشاعر الزَّاهد سابق البربري يقول له فيها عظني. فأجابه الشاعر بقصيدة طويلة زادت على التِّسعين بيتًا وفيها يخاطب الخليفة باسمه المجرد فيقول:

---

(١) سنن الدارمي (١/١٥٥، ١٥٦) مرجع سابق.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/٤٤، ٤٥).

بِاسْمِ الَّذِي أُنْزِلَتْ مِنْ عِنْدِهِ السُّوَرُ وَالْحَمْدُ للَّهِ أَمَّا بَعْدُ يَا عُمَرُ
إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ فَكُنْ عَلى حَذَرٍ قَدْ يَنْفَعُ الحَذَرُ
وَالْعِلْمُ يَجْلُو الْعَمَى عَنْ قَلْبِ صاحِبِهِ كَمَا يُجَلِّى سَوادَ الظُّلمةِ البصَرُ
واسْتَخْبِرِ النَّاس عَمَّا أَنْتَ جَاهِلُهُ إِذَا عَميتَ فَقَدْ يَجْلُو الْعَمَى الْخَبَرُ
فَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى أَلا مساءلةٌ فَلَسْتَ تَعْرِفُ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ (١)

فانظر إلى قوله: « إن كنت تعلم » الذي يثير فيه الرغبة في العلم والسؤال .. وقوله: « فإن أقمت على ألَّا مساءلةٌ ».

الذي يذكره فيه بأنه مسئولٌ عن رعيَّته ومحاسب على أعماله ..

وقوله: « واستخبر الناس عما أنت جاهله » ولا يصفه كما يصف شعراء المديح ممدوحيهم بالعلم الكامل والحكمة الواسعة والنفاذ إلى عواقب الأمور، بل يواجهه بأنه قد يكون جاهلًا لبعض الحقائق وأشد منه قوله: « إذا عميت » ..

وكثيرًا ما كان عمر بن عبد العزيز يستدعي سابقًا البربري ويستنشده من أشعاره ويبكي.

روى ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربري وهو ينشده شعرًا، فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ بَاتَ لِلْمَوتِ آمِنًا أَتَتْهُ الْمَنَايَا بَغْتَةً بَعْدَمَا هجَعْ
فلمْ يَسْتَطِعْ إِذْ جَاءَهُ الْمَوْتُ بَغْتَةً فِرَارًا وَلَا مِنْهُ بِقُوَّتِهِ امْتَنَعْ
فَأَصْبَحَ تَبْكِيهِ النِّسَاءُ مُقَنَّعًا وَلَا يسْمعُ الدَّاعِي وَإِنْ صَوْتَهُ رفَعْ
وَقُرِّب مِنْ لَحْدٍ فَصَارَ مَقِيلَهُ وَفَارَقَ مَا قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ قَدْ جَمَعْ

وهذا الشعر الوعظيُّ التذكيريُّ هو الذي كان عمر بن عبد العزيز يحب سماعه، أما شعر المديح الكاذب فلم يكن عمر يرضى أن يسمعه ولا أن يكافئ عليه.

وأخباره مع شعراء المديح والغزل معروفةٌ مشهورةٌ، وكان يقول لمن يصر على إنشاده: « لا تقل إلا حقًّا ».

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر لعبد القادر بدران (٣٨/٦)، ط دمشق، (١٣٢٨ - ١٣٥١هـ).

ثم يقول له بعد الفراغ من الإنشاد: إنك تُسأل عن هذا يوم القيامة (١).

مع أن كثيِّر عزة الذي روى عنه هذا الخبر مدح عمر بن عبد العزيز بصفات التقوى والعدل فقال:

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتمْ عَلِيًا وَلَمْ تُخِفْ بَرِيئًا وَلَمْ تَقْبَلْ إِشَارَةَ مُجْرِمِ
وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْـمَقَالِ مَعَ الَّذِي أَتَيتَ فَأَمْسَى رَاضِيًا كُلُّ مُسْلمِ
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُونِقًا وَآثَرْتَ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصمِّمِ
وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشمَّرْتَ لِلَّذِي أَمَامَكَ فِي يَوم مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمِ (٢)

بل إنَّ عصر عمر بن العزيز قد شهد ميلاد لون من ألوان الشعر في العصر الأمويِّ هو الشعر السياسيُّ الذي يتضمن شكوى من الرَّعية ضد الولاة الجائرين، وكان ذلك يحدث أحيانًا وهو قائم على المنبر.

فقد روى الجاحظ في البيان والتبيين أن كعبًا الأشقريَّ قال لعمر بن عبد العزيز:

إِنْ كُنتَ تَحْفَظُ مَا يَلِيكَ فَإِنَّمَا عُمَّالُ أَرْضِكَ فِي الْبِلَادِ ذِئَابُ
لَنْ يَستَجِيبُوا لِلَّذِي تَدْعُو لَهُ حَتَّى تُجَالَدَ بالسُّيوفِ رِقَابُ
بِأَكُفِّ مُنْصَلِتِينَ أَهْلِ بَصَائِرٍ فِي وَقْعِهِنَّ مَزَاجِرٌ وعِقَابُ

فلما سمع هذا الشعر قال: لمن هذا؟ قالوا: لرجل من أزْد عُمان يقال له كعب الأشقري. وقام إلى عمر بن عبد العزيز رجل وهو على المنبر فقال:

إِنَّ الَّذِينَ بَعَثْتَ فِي أَقْطَارِهَا نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتُحِلَّ الْمحْرَمُ!
طُلُسُ الثِّيَابِ عَلَى مَنَابِرِ أَرْضِنَا كُل يَجُورُ وَكُلُّهُمْ يَتَظَلَّمُ
وَأَرَدْتَ أَنْ يَلِيِ الْأَمَانَةَ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَهَيْهَاتَ الْأَمِينُ الْمُسْلِمُ (٣)

ولم يكن هذا في عهد عمر بن عبد العزيز وحده، بل كان فيما بعده أيضًا، فهذا الفرزدق يرفع شكوى إلى الوليد بن عبد الملك ضد والٍ كان يتعسف في جمع الزكاة، ويجلد الناس عليها، حتى يضطرهم إلى التعامل بالرِّبا، مع حرصه على أن يأخذ منهم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٢/٩، ٢٥٣) مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (١٧٨/٣)، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة مصورة.

الدراهم ولا يقبل الماشية. يقول:

أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ تُشْفِي بِعَدْلِ يَدَيكَ أَدْوَاءَ الصُّدُورِ
فَكَيفَ بِعَامِلٍ يَسْعَى عَلَينَا يُكَلِّفنَا الدَّرَاهِمَ فِي الْبُدُورِ (١)
وأَنَّى بِالدَّرَاهِمِ وَهيَ مِنَّا كَرَافِعِ رَاحَتَيه إِلَى العبُور (٢)
إِذَا سُقْنَ الْفَرَائِض لم يُرِدْهَا وَصَدَّ عَنِ الشُّوَيهَةِ وَالبَعِيرِ
إِذَا وَضَعَ السِّيَاطَ لَنَا نَهَارًا أَخَذْنَا بِالرِّبَا سَرَق الْحَرِيرِ
فَأَدْخلَنَا جَهَنَّمَ مَا أَخَذْنَا مَنَ الْإِرْبَاءِ مِنْ دُونِ الظُّهُورِ (٣)
فَلَو سَمِعَ الْخَلِيفَةُ صَوتَ دَاعٍ يُنَادِي اللَّهَ: هَلْ لِي مِنْ مُجِيرِ
وَأَصْوَاتُ النِّسَاءِ مُقرَّنَاتٌ (٤) وَصِبْيَانٌ لَهُنَّ عَلَى الحُجُورِ
إِذَنْ لأَجَابَهُنَّ لِسَانُ دَاعٍ يَدِينِ اللَّه مِغْضَابٍ نَصُورِ
أَمِينُ اللَّهِ يَصْدَعُ حِينَ يَقْضِي بِدِينِ مُحَمَّدٍ وَبِهِ أمُور (٥)

ومن هذا اللون أيضًا ما هجا به الفرزدقُ الحجاج بن يوسف الثقفيَّ بعد موته، إذ قال:

وَكَانَ إِذَا قِيل اتَّقِ اللَّهَ شمَّرَتْ بِهِ عِزَّةٌ لَا يُستطَاعُ جِدَالُهَا!

إلى أن قال:

هَلُمَّ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَدْلِ عِنْدَنَا فَقَدْ مَاتَ عَنِ أَرْضِ الْعِرَاقِ خَبَالُهَا (٦)

وهذا دليلٌ على أن الناسَ إذا أمِنوا على أنفسهم من الخسف والتنكيل انطلقت أصواتهم، وتعددت آراؤهم مما يتيح الفرصة للحوار والاختيار.

ومدار الأمر في المجتمع الإسلاميِّ يقوم على قاعدة ثابتة هي:

---

(١) أي في مطلع كل شهر.

(٢) العبور من مطالعة البروج، والمطالعة: أن يطلع نجمان معًا أو متقاربَيْن.

(٣) أي الربا الخفي وإن كانت صورته صورة بيع وشراء.

(٤) مقرنات: مقيدات بالحبال.

(٥) ديوان الفرزدق (ص ٣٥٢، ٣٥٣)، القاهرة، مطبعة الصاوي.

(٦) الديوان (ص ٦٠٢).

أنَّ هذا المجتمعَ يتواصى دائمًا بالحقِّ والصبر، كما قال اللّٰه سبحانه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

أي: يتواصى أفراده فيما بينهم بالثبات على الحقِّ والارتباط به وعدم الرِّضا بالباطل مهما كان إغراؤه، والتَّواصي بالصبر على تبعات الحق وتكاليف أداء الواجب.

ومن هنا جاء في الحديث الشريف قول النَّبي ﷺ: « **لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ** » (١).

ومعنى ذلك أن الرَّأي العامَّ في المجتمع الإسلاميِّ لا يُطْبق على ضلالةٍ، ولا يلتف حولها ..، بل لابدَّ أن يكون فيه من يدعو إلى الحقِّ ويحذر من الاغترار بدعاوى الأعداء الذين لا يريدون لهذه الأمة إلا الخبالَ والضَّلالَ.

وهذا المجتمع المسلم شهيد للّٰه، قوَّام بالقسط.

فذلك مقتضى الأمر الالهيِّ الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

والقسط هو العدل. فالمجتمع الإسلاميُّ مجتمع العدالة ومجتمع الشهادة للّٰه دون مراعاةٍ لقرابةٍ أو مصلحةٍ أو رغبةٍ أو رهبةٍ.

ومن هنا كان لكلمة الحقِّ دويها في كل العصور .. بحيث لم تُطْبق الظُّلْمة على أنحاء المجتمع الإسلاميِّ جميعًا..

علماء ناصحون:

ولم تَخْلُ العصور الإسلاميَّةُ، حتى في أشدِّ الأوقات حَرجًا وظُلْما وأحداثًا .. من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب رقم (٨)، بلفظ « إن أمتي لا تجتمع على ضلالة »، ورواه أبو داود في سننه، كتاب الفتن، باب رقم (١) بلفظ: «.. وألا تجتمعوا على الضلالة »، وانظر كشف الخفا للعجلوني (٣٥٠/٢)، طبعة مصورة، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

علماء ناصحين، يصدعون بالحقِّ ولا يخافون في اللَّه لومة لائم..

من هؤلاء العزُّ بن عبد السَّلام الذي عاش في الشَّام في فترةٍ حرجةٍ، في زمن الهجوم التتريِّ والزحف الفرنجيِّ والانحدار الأندلسيِّ، وكان يرى في دمشق جنودَ الفرنجة يشترون السِّلاح من مسلمي دمشق؛ ليحاربوا به إخوانَهم في الدِّين، فوقف « العزُّ » على منابر دمشق منددًا بمن يتخذ أعداءَ دينه أولياء، ومحرِّمًا بيعَ السلاح لأعداء المسلمين، فحدثت ضجة أفزعت الحاكمَ، وحاول أن يبطش بالشَّيخ النَّاصح الأمين فلم يستطع، خوفًا من تعلق الجماهير به، ولكنَّه حمله على الهجرة إلى مصر، فرحل إليها مستريحَ النفس؛ ليواصل دعوته الحرة وليصطدم بأقوى سلطانٍ عرفه العصر المملوكيُّ وهو « الظَّاهر بيبرس » إذ خالف أمره حين همَّ بفرض الضَّرائب على الشعب الكادح، مع أنَّ أتباعَ السُّلطان وحاشيته يملكون ما يكفي بعضه لإعداد الجيش وتهيئة السلاح، وانتصر الرجل بعون اللَّه في أولى معاركه انتصارًا دفعه إلى معارك مماثلة.. ضربت للعلماء مثلًا باهرًا في العزَّة الإسلاميَّةِ والحُرِّيَّة المثالية (١).

• ومن بعد العزِّ بن عبد السلام وقف الإمام النوويُّ - صاحب الأربعين النووية وشارح صحيح مسلم - في وجه الظَّاهر بيبرس الذي أطلق جنوده ينهبون ما في أيدي الناس بحجة أنَّ الدولةَ تتهيأ لحرب تتطلَّب المال والسلاح.

فكتب إليه النوويُّ بما رآه من ظلمٍ وعسفٍ يقع على أفراد الشَّعب من جنود السلطان، مؤكدًا له أن الدولةَ لا تُصان إلا بالعدالة والإنصاف.

فكتب إليه « بيبرس » كتابًا شديدَ اللَّهجة ينذر فيه ويحذر ويهدِّد بالتَّنكيل بمن يقف في وجه إرادته، فأجابه النوويُّ بكتاب شجاع هادئ قال فيه:

« أمَّا تهديد الرَّعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة من العلماء، فليس هو المرجوُّ من عدل السلطان وحلمه، وأي حيلةٍ لضعفاء المسلمين في النَّاصحين للسلطان ولهم، ولا علم لهم به، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ».

وأما أنا في نفسي فلا يضرُّني التهديد ولا أكثر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن ذلك واجبٌ عليَّ وعلى غيري، وما ترتب على الواجب فهو

(١) نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، للدكتور: محمد رجب البيومي (ص ٨)، مطبعة السعادة، القاهرة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

خير وزيادةٌ عند اللَّه تعالى، فإنَّما هذه الدُّنيا متاعٌ وإن الآخرة هي دار القرار، ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤]. وقد أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نقول الحقَّ حيثما كنا وألا نخشى في اللَّه لومة لائم (١).

• وهكذا نرى العلماء يقفون في صف الجماهير الكادحة، ويرفعون أصواتهم بالنكير على من يسلبهم أموالهم بالقهر والنكال.

وقد ذكَّرنا الإمام النوويُّ بقوله في رسالته:

« وقد أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نقول الحقَّ حيثما كنا وألا نخشى في اللَّه لومة لائم » بهذه الجذْوة المتَّقدة للحقِّ في نفس كل مسلم وهو يسمع التَّوجيه النبويَّ الحكيم في هذا المجال الجليل.

فقد روى البخاريُّ في صحيحه في كتاب الأحكام، ومسلم في كتاب الإمارة عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه قال: بايَعْنا رسولَ اللَّه ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكْره وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم، أو نقول بالحقِّ حيثما كنا لا نخاف في اللَّه لومة لائم (٢).

فهذا هو دستور الرَّأي في الإسلام:

- القول بالحقِّ في أيِّ وقتٍ وأيِّ مكان

- ألَّا يخشى النَّاصح لومَ من يلوم أو غضب من يغضب، ما دام صادرًا عن إخلاص وصدق وقيام بأمر اللَّه ..

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه قال: « بايَعْنا رسولَ اللَّه ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكْره وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحقِّ حيثما كنا لا نخاف في اللَّه لومة لائم » (٣).

إنَّ أمَّة يأمرها كتابها أن تكونَ قوَّامةً للَّه شاهدةً بالقسط، ويأمرها نبيُّها أن تقول الحقَّ في أيِّ مكانٍ .. لهي أمةُ الجهر بالحق، والعدالة في الرَّأْي، والتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصبر، وقد بلغت في هذا المجال ما لم تبلغه أمةٌ أخرى على مر التاريخ ..

* * *

(١) المرجع السابق (ص ١٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب رقم (٤٣)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم (٤٥).

(٣) مسند أحمد (١٠٩/١).

الرأي في مجال الصحافة

إذا كان للكلمة المنطوقة أثرُها، وللكلمة المكتوبة في كتابٍ أو رسالةٍ خطرُها، فإن للكلمة المكتوبة في الصحافة في هذا العصر شأنَها الخطير..

فهي إمَّا أن تكون كلمةً خيِّرة تدعو إلى الرُّشد وتحذِّر من الخطأ وتزيل الشُّبهةَ، وتقيم الدليل..، فتكون أداةَ إصلاحٍ وإرشاد وتقويم.. وإمَّا أن تكون كلمةً خبيثةً هدَّامةً مضلِّلةً تزيِّن المنكرَ، وتغري بالفساد وتشوِّه الحقيقةَ، وتسخر من الفضيلة وتزري بأقدار الشُّرفاء وترفع أقدار الأشقياء..، فهي حينئذ معولُ هدمٍ، وأداةُ تخريبٍ وسلاح فتَّاك يفسد المجتمع ويضعف بنيانه..

وقد عرفت البيئاتُ الإسلاميَّةُ في هذا العصر مجلاتٍ راشدة دعت إلى الخير وأوضحت طريق النَّجاة وحذرت من الاغترار بالتَّيارات القادمة من الغرب، وخاصَّة في مجال العقائد والأنظمة والأخلاق..

فمن هذه المجلات: « العروة الوثقى » التي أصدرها الشَّيخُ محمد عبده ورفيقه جمال الدين الأفغاني، وكانت محظورةً في البلاد العربية التي كانت مبتلاةً بالاستعمار الإنجليزي؛ لأنها كانت تدعو إلى التَّحرر وتنادي بالاستقلال وتدعو إلى الوحدة الإسلاميَّة، ولكنها لم تستمر طويلًا إذ صدر منها ثمانية عشر عددًا في ثمانية أشهر، ثم وضع الإنجليزُ العقباتِ في طريقها وصادروها في مصر والهند، وكانت تصدر من باريس وترسل إلى بعض الأقطار الإسلاميَّة.

وقد جمعت هذه الأعداد الثماني عشرة في كتابٍ طُبِعَ أكثر من مرة، وحين نلقي نظرة مجملة على عناوين المقالات التي نشرت في هذه الأعداد نستطيع أن ندركَ الغايةَ التي كانت هذه المجلة تسعى إليها، وهي بعث روح العزَّة والكرامة والاستقلال عن سلطان الأعداء وحثُّ المسلمين على النهضة والأخذ بالأسباب وإدراك النَّواميس الكونيَّة التي لا تتغير، كما قال الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

فمن مباحثها: القضاءُ والقدر، انحطاطُ المسلمين وسكونهم وسبب ذلك، الفضائل والرذائل وأثرها، الوحدةُ الإسلاميَّةُ، الشَّرف، امتحان اللَّه للمؤمنين، سنن اللَّه في الأمم

وتطبيقها على المسلمين، الوهم، الجبن، القوّة للحقّ، حُرِّيَّة الصَّحافة والاستعمار. وغير ذلك من موضوعات متنوعة دينيةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ.

وهي في جملتها من إنشاء الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانيّ، لكنَّ الحكومةَ الإنجليزية فزعت من هذه الصَّحيفة التي تكشف خططَ الاستعمار وتدعو إلى مقاومته .. فعملت بكل جدها على منعها حتى إنَّها فرضت غرامةً فادحةً على كل من يضبط لديه عددٌ من تلك الجريدة في الديارِ المصريةِ (١).

وهكذا يكون إيمانُ الغرب بحُرِّيَّة الصَّحافة .. وهكذا يكون خَنْقُه لها إذا وقفت في سبيل أطماعه ..

• ثمَّ كانت مجلة المنار التي أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا؛ لتحمل فكره الإصلاحيّ ولتكون منبرًا للرَّأي الصَّائب والمناقشة الحرة، وكانت تفتح الباب أمام القرَّاء؛ لانتقاد منهجها وما ينشر فيها.

وعندما كان الشَّيخ رشيد رضا يباحث أستاذه الشيخَ محمد عبده في إصدار هذه المجلة سأله الشيخ رشيد عن الحُرِّيَّة المتاحة للصَّحافة في مصر حينئذ – في عهد الاستعمار الإنجليزيّ – فقال له الشيخ محمد عبده: « هذه الحُرِّيَّة ليست للمسلمين، المسلمون في أشد المراقبة عليهم وأبعد الناس عن الحُرِّيَّة، لا حُرِّيَّة لهم فيما ينفعهم أصلًا، ولكن لهم الحُرِّيَّة المطلقة في كل ما يضرُّهم » (٢).

وقد صدر العدد الأول من هذه المجلة في الثاني والعشرين من شوال سنة (١٣١٥هـ) الموافق ١٥ من مارس (١٨٩٨م). وصدر منها ما يزيد على أربعة وثلاثين مجلدًا تزيد صفحاتِ كل مجلد في الغالب – على ألف صفحة.

وقد حدد الشيخ رشيد أهداف « المنار » في مفتتح العدد الأول منها ومن بينها:

شرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة الإسلامية، والأخلاق الرديئة التي أفسدت كثيرًا من عوائدها، من البدع والخرافات والجهل والتعصُّب والذلَّة والمهانة للأعداء والتقليد الأعمى.

---

(١) العروة الوثقى (ص ٣٢١)، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، للشيخ محمد رشيد رضا (١٠٠٤/١)، القاهرة، مطبعة المنار (١٣٥٠هـ).

وتشخيصُ هذه الأمراض وتوضيح عللِها ووصف علاجها بالعودةِ إلى الإسلام، فاللّه شرع الدِّين للتحابب والتوادد والسعي المفيد في الدنيا. ودرء الشُّبه الواردة على الشَّريعة الإسلامية ودحضها وبيان أن الإسلام لا يحول بين الأمة والمدنية الصحيحة النافعة (١).

• هكذا أراد الشيخ رشيد رضا الاستفادةَ من هذه الأداة الجديدة، الصِّحافة، في الدعوة والإصلاح، ونشر الرَّأْي الصَّائب المحمود ورد الآراء الشَّاذَّة الفاسدة.

وقد جرت عادة « المنار » دعوة قرائه إلى « الانتقاد عليه » فيما يرونه، وحرص رشيد رضا على دعوة قراء مجلته في كل مجلد إلى الكتابة إليه فيما ينقدونه على « المنار » وما يقترحونه إزاء ذلك، وكان رشيدٌ لا يضيق بالنَّقد بل يطالب به وينشره، ويردّ عليه مسلِّمًا به أو مناقشًا له، وفي خاتمة كل مجلد يذكر تحت عنوان: « الانتقاد على المنار » جملة من الانتقادات التي وجهت إلى المجلة، وكذلك الحسنات التي وفق المنار إليها.

ولا شكَّ أنَّ فتح « المنار » لباب الانتقادِ مظهرٌ عظيم من مظاهر الاعتزاز بحُرِّيَّة الرَّأْي وعدم الضيق بمعارضة الفكر (٢).

ونضرب مثلًا لهذا الانتقاد الموجَّه إلى المنار، رسالة الشيخ عبد الرحمن السعديِّ من علماء نجد التي بعث بها إلى الشيخ رشيد رضا (٣). وفيها يقترح الشيخ السعديُّ على رشيد رضا إنشاء باب في المجلَّة للرَّد على ما وقع فيه بعض الكتَّاب المصريين من قبول أصول الملاحدة والزَّنادقة من أهل وحدة الوجود والفلاسفة، ويقول: وقد ذكر لي بعض أصحابي أن « منارَكم » فيه شيء من ذلك، وإلى الآن ما تيسرت لي مطالعته، ولكنَّ الظنَّ بكم أنكم ما تبحثون عن مثل هذه الأمور إلا على وجه الرد لها والإبطال، كما هي عادتكم في رد ما دونها بكثير، ويختم رسالته بقوله: « فالأمل قد تعلَّق بأمثالكم لتحقيق هذه الأمور وإبطالها، فإنها فشت وانتشرت وعمت المصيبةُ بها الفضلاءَ فضلًا عمن دونهم ».

---

(١) رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، للدكتور محمد بن عبد اللّه السلمان (ص ١١٧)، نادي القصيم الأدبي (١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م).

(٢) المصدر السابق (ص ١٢٢).

(٣) مجلة المنار، المجلد (٢٩)، من (ص ١٤٣ - ١٤٧)، الجزء الثاني.

وقد ردَّ عليه الشيخ رشيد وأشار إلى أثر « المنار » في محاربة أعداء الإسلام، وقال: « إننا لا نألو جهدًا في الرَّد على كل ما نَطَّلع عليه من البدع المخالفة لكتاب الله والصحيح من سنَّة رسول الله ﷺ، وفي الدَّعوة إليها على الوجه الذي كان عليه جمهور السَّلف الصالح وفي الرد على خصومها كما يرى في مقالة أعداء الإسلام في هذا الجزء ».

ثم دافع عن الشيخ طنطاوي جوهري – الذي انتقد الشيخ السعدي تفسيره وقال: « وما نعرفه – أي: الشيخ طنطاوي – إلا مسلمًا يغار على الإسلام ويحب أن يجمع المسلمون بين الاهتداء به والانتفاع بعلومِ الكون التي تتوقف عليها قوَّة الدُّول وثروة الأمم في هذا العصر، ونحن قد سبقناه بالدَّعوة إلى هذا ..، وإن كنا أشرنا إلى الانتقاد على خطَّة الأستاذ المذكور في تفسيره .. ».

أثر الصحافة:

والحقُّ أنَّ الصحافة الإسلاميَّةَ قد قامت بنشر الدعوة والرَّدِّ على الشبهات، غير مبالية بالصِّعاب التي كانت تواجهها والعداوات التي كانت تحيط بها.

وكانت مجالًا فسيحًا للرَّأي الصائب المستنير، ومنبرًا للحوار والمناقشة في كثير من أنحاء العالم الإسلاميِّ.

فهذه مجلةُ الأزهر في مصر – وكان اسمُها من قبل نور الإسلام – قد قامت بواجب عظيم في الدِّفاع عن الإسلام وردِّ شبهات الضَّالين، سواء كانوا من الغرب أو من الشرق، خلال ما يزيد على ثمانين سنة ولا تزال تصدر حتى اليوم.

وقد قام على تحريرها نفر من كبار المثقَّفين والأدباء دون اشتراطِ أن يكونوا من علماء الأزهر، ومنهم العلَّامة الأستاذ محمد فريد وجدي الذي قضى أكثر من ثلاثين عامًا في رئاسة التَّحرير، ثم الشيخ محمد الخضر حسين، ثم الأُستاذ محب الدين الخطيب ومن بعده الأديب الشَّهير الأستاذ أحمد حسن الزيَّات.

ومجلَّداتُ هذه المجلَّة العديدة حافلة بالرُّدود على الشُّبهات وتجليةُ الحقائق ومناقشة الآراء.

ولا يتَّسع المجالُ هنا لاستعراض موضوعاتها وتفصيل مناقشاتها فهذا أمرٌ يُحْوج إلى مجلداتٍ عدة ..

وكذلك كان في مصر مجلة لواء الإسلام التي ظلت تصدر أكثر من أربعين عامًا، وكانت منتديًا للرأي ومجالًا لأقلام كتاب كبار أفادوا الأُمَّةَ علمًا وثقافةً ورأيًا، من أمثال الشَّيخ محمد أبو زهرة، والشَّيخ محمد الخضر حسين، والأستاذ عبد المغني المنشاوي والشيخ فكري ياسين، والشيخ محمد الغزالي وغيرهم.

وفي العالم العربي كانت هناك مجلاتٌ أخرى أسهمت في صنع الوعي وتنوير الرَّأْي العام والرَّد على شُبُهات أعداء الإسلام على اختلاف وجهاتهم.

كمجلة « الحجّ » التي صدرت في المملكة العربية السعوديَّةِ في عهد الملك عبد العزيز آل سعود - يرحمه اللَّه - عام (١٣٦٦هـ) وظلت تصدر بهذا الاسم عن إدارة الحج أولًا ثم عن وزارة الحج حتى تغير اسمها إلى « التَّضامن الإسلاميّ » في عهد رائد التَّضامن الإسلاميّ الملك فيصل بن عبد العزيز - يرحمه اللَّه - عام (١٣٩٠هـ)، وظلَّت كذلك تحمل اسم « الحجّ سابقًا » مع التَّضامن الإسلاميّ، حتى رجعت مرة أخرى إلى اسم « الحج » وحده عام (١٤١٤هـ) في عهد الملك فهد بن عبد العزيز - خادم الحرمين الشريفين - يرحمه اللَّه - ولا تزال تصدر حتى الآن ..

ولم تقتصر هذه المجلة على علماء المملكة العربية السعوديَّة وحدهم بل كانت مجالًا مفتوحًا لمشاهير الكتاب في مصر والشَّام والعراق والمغرب والسُّودان والهند وغيرها ..

وقد مضى على هذه المجلة أكثر من ستِّين عامًا ولا تزال تصدر وللَّه الحمد ..

ويلاحظ أنَّ المجلاتِ التي تصدر عن جهاتٍ رسميةٍ مثل: الأزهر والحج ورابطة العالم الإسلامي والوعي الإسلامي بالكويت ومنار الإسلام في « أبو ظبي » ودعوة الحق في المغرب يتاح لها الاستمرار والتقدم؛ لأنَّ هذه الجهاتِ الرسميَّةِ تتحمَّل تكاليفها ولا تعتمد على ناتج التَّوزيع.

أمَّا المجلَّات التي يصدرُها الأفراد، فقد تعرضت للتَّوقف بسبب ضيقِ التَّمويل وكثرة التكاليف وقلة التوزيع، مثل « المنار » و « العروة الوثقى » ولواء الإسلام والرِّسالة والثقافة وغيرها من المجلَّات التي انطفأ نورُها بعد إشراقِها فترة طالت أو قصرت.

ومهما يكن من أمر فقد حققت الصحافة الإسلاميَّة حُرِّيَّة الرَّأْي على أوسع نطاق، وكان فيها مساجلات ومناقشات وتبادل للمعلومات ..، ولو قدِّرَ لَهَا الدعمُ لكان لها شأن أكبر وأثر أقوى ..

الرأي في مجال الإبداع!

هذه أكثر القضايا التي تتعلق بحُرِّيَّة الرَّأْي سخونةً وأشدها جَلبةً .. فما فتئ طائفةٌ من الكتاب يردِّدونها ويرفعون شعارها متباكين على الحُرِّيَّة المؤودة وعلى الإبداع المفقود ..، ومن الذي يصنع ذلك في نظرهم: الدين بقواعده وقيوده أو على الأقل « علماء الدين » الذين ينصبون أنفسهم حرَّاسا للفضيلة وينذرون بالويل كلَّ مبدع .. إنْ هو تخطي الحدودَ وقارب الخطوط الحمراء .. من الثَّوابت والعقائد والشَّرائع والأخلاق ..

ويطول الجدل .. ولا يصل المتحاورون إلى نتيجة، فكلهم متمسكٌ بموقفه مناضل عن رأيه ..

ولكي نصلَ إلى تصوُّرٍ صحيح لأبعاد هذه القضيَّة، وصلة الإسلام بها، فإننا بحاجة إلى تعريف « الإبداع » هذا الذي يطالبون بحريَّته ونزع كلِّ القيود منه حتى ينطلقَ على سجيته دون مراعاةٍ للعقائد والأخلاق والعادات ..

قال في أساس البلاغة: أبْدَع الشيءَ وابتدعه: اخترعه.

وقال في القاموس المحيط: البديع - بكسر الدال - والمبتدَع - بفتحها. وأبدع الشاعر: أتى بالبديع.

• فماذا يريد هؤلاء بالإبداع الذي يطالبون له بالحُرِّيَّة المطلقة؟ إنَّهم يريدون به الشِّعر والنثر بأنواعه، القصة والرواية والمسرحية. وليس كلُّ شعر يعد إبداعًا ..، فهناك شعر تقليديٌّ ونظم متكلفٌ لا روح فيه ولا هدف له .. فلا يجوز أن يسمى الشعر الرديءُ إبداعًا ..؛ لأن الإبداع هو الإتيان بشيءٍ جديد لم يكن موجودًا.

يقول الدكتور يوسف عز الدين:

« تقوم قاعدةُ الشِّعر الخالد الأصيلةُ على الإبداع الحر والإيقاع الجميل، والمعنى السامي والجمال الممتع .. أيْ: أنَّ المبدع ينبغي أن تكون له سليقةٌ فنيةٌ متميزةٌ، وقابليةٌ شعريةٌ تكوِّن الصورةَ الجماليَّةَ بأسلوبٍ جديدٍ، لا يعرفها الفن من قبل، والمبدع في الفنون الجميلة كلها تكون له قابليةٌ فطريةٌ على تنسيق الجديد في فنه، يستمدها من المواد الموجودة في الطبيعة وبخاصة الشِّعر، ويشكّلها بحُرِّيَّةٍ تامةٍ وهدفٍ كبيرٍ ..

والمبدع هو الذي يأتي بالإنتاج الجديد المختلف عما سبقه، ويأتي بالمعاني الحديثة التي يمكن للمتلقِّي التمتعَ بإيحاء كلماتها، وباللذة الفنية المصاحبة لصور الوجدان والإحساس العميق. ومن هنا فإن الإيحاءَ واللَّذة الفنية من أقوى دعائم الإبداع » [١].

وعن الحُرِّيَّة في الإبداع يقول الدكتور يوسف عز الدين:

« إنَّ الحُرِّيَّة السليمةَ هي أول قواعد الإبداع والتجديد في المضامين الفنية للأديب؛ لأنه متى خاف العقابَ أو جزع من المصاب، فقد حُدِّتْ حريته ومات فكريًّا؛ لأن الخائف لا يقدر على التجديد، والمذعور لا يملك القابليةَ للتَّطور؛ لأنه متى أحسَّ بالظلم ورأى الطغيان أمامه فسوف تتجمَّد أفكارُه، ويبلد الخوف قابليته ويهزُّ الفزع نفسيته.

ومتى أمن الشاعر واطمأنَّ ..، فسوف يكون صدًى لحياة أمته، ويرتفع إلى المستوى الفنيِّ الذي يرضاه لنفسه ولأدبه ولإنتاجه، وينبذ كل فكرٍ مصنوع مستعارٍ لا يفيد مجتمعه والبيئة التي يعيش فيها » [٢].

ولنقفْ عند قولِ هذا الناقد: « الحُرِّيَّة السليمة »، فإنَّه يدلُّ على أنَّ هناك حُرِّيَّةً سليمةً تتحقَّق للإبداع الذي ينمِّي الحياةَ، وينير الطريقَ أمام الإنسان ويستثير في نفسه مشاعر الجمال والسُّمو والنبل والإحساس بكرامة الإنسان.

وهناك حُرِّيَّة غير سليمة فاسدة أو معطوبة، تطلق العنانَ للتَّمرد والطُّغيان والتَّطاول على العقائد والحقائق والمقدسات باسم حُرِّيَّة الإبداع.

إنَّ هناك قصائدَ مزعومةً ليس لها من خصائص الشعر شيءٌ ..، فلا وزن ولا قافية ولا خيال ولا تصوير.. تسمى « قصيدةُ النثر » .. ومع هذا الهبوط الفنيِّ فإنها تجترئ على العقائد والمقدسات باسم « حُرِّيَّة الإبداع » وما هي من الإبداع في شيءٍ.

ولا نستطيع إيرادَ نماذج من هذا « الهراء » المسمى خطأً باسم الشعر ..؛ لأنَّ هذه النماذج تشوِّه العمل الذي يتضمنها..، ولا نريد تشويهَ هذا البحث بإيراد مثل هذا اللغو المنتسب ظلمًا إلى الإبداع ..

• وأما الإبداع النثريُّ المتمثل في القصص والروايات والمسرحيات، فإنه يكون جميلًا

---

(١) التجديد في الشعر الحديث للدكتور يوسف عز الدين (ص ٢٠٥)، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ)، نادي جدة الثقافي الأدبي.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠٦، ٢٠٧).

حقًّا حين يُعلي القيم في حياة المجتمع ..، وحين يفتح أبوابَ الأمل للإنسان في تحقيق السلام والطمأنينة والعدل في المجتمع ..

• وما أجملَ القَصَص النَّبيلة في الأدب الإنسانيِّ التي أثَّرت أثرًا حسنًا في تطلُّع الإنسان لتحقيق ذاته وكفاية حاجاته ..

أمَّا أن تُستخدمَ الرواياتُ معولَ هدمٍ في حياة المجتمعات فتحقِّر الفضائلَ وتزيِّن الرذائل، أو بمعنى آخر تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف، وتقطع الروابط الإنسانيةَ وتصوِّر الحياة معتركًا بين القويِّ والضعيف، وتمجِّد الجبروت والتَّسلط وتسخر من الضَّعف والفقر.

أو حين تهاجم العقائدَ وتهدف إلى التَّشكيك في الأديان والاستهزاء بالأنبياء، وتشويه التاريخ، وإذكاء الصراع بين بني الإنسان، فإنها تكون مرفوضةً مذمومةً لا مكان لها في حياة أيِّ مجتمعٍ يسعى إلى التَّقدم ويحافظ على خصائص الإنسان وفطرته النَّبيلة ..

ولسنا بحاجةٍ هنا إلى أن نوردَ أسماءَ الرِّوايات التي استهدفت هذه المقاصدَ الشريرة.. فأثارت الشَّهواتِ وفضحت الغرائز، وصوَّرت العلاقاتِ الشَّاذة، وجمَّلت مظاهر الانحراف والإباحية، فأثرها مشهور معروف، ومنها ما تعرض للحظر، رغم اعتراض من يسمُّون أنفسهم تنويريين تحرُّريين مدافعين عن حُرِّيَّة الفكر وحُرِّيَّة الرَّأي وحُرِّيَّة الإبداع.

• فالحقُّ أنَّ البشريةَ الراشدةَ قد رأت منذ القِدَم خطر الأدب الذي هو مناط الإفادة والإمتاع، إذا ما زيّن الشرور ودعا إلى التَّهتُّك والإباحية ..

هكذا قال الفيلسوف اليونانيُّ أفلاطون في مدينته الفاضلة حين نادى بمنع الشُّعراء من اللَّهو والمجون في المدينة الفاضلة حتى لا يفسدوا الشباب: « وما دامت الحالُ هكذا فينبغي أن نراقبَ الشعراء، ونحملهم على أن يبرزوا في إنتاجهم صورةَ الخلق الخيِّر، وإلا عاقبناهم بالحرمان من التأليف، وأن يمتد الإشراف إلى أساتذة جميع الحرف الأخرى بالمثل، ونمنعهم من إبراز الوضاعة والانحلال الخلقي والتسفّل وكل ما تكون طبيعته شريرة ».

وبالجملة نقضي على من لا يستطيعون أن يفعلوا غير هذا بعدم العمل في مدينتنا – أي الطرد منها – حتى لا ينشأ حراسنا بين صور الرذيلة فتتجمع في نفوسهم الباطنةِ كتلةٌ كبيرةٌ من الشَّرِّ دون أن يشعروا. وبالعكس، ينبغي أن نبحث عن فنَّانين من طراز آخر، يستطيعون بقوة النبوغ أن يتَّبعوا طريقة الشيء العادل الوقور، فيستطيع الشباب أن يستقي الخير من جميع منابعه في المنطقة السليمة التي يقطنونها، فيأخذ بعيونه وآذانه كل

ما ينبثق من الأعمال الشريفة وبهذا نُكْسبهم منذ طفولتهم المبكرةِ وبطريقة غير ملحوظة الحبَّ والانسجام إلى جانب المجال الحقِّ للفكر » [1].

• فهذا هو أفلاطون يدعو الشعراءَ إلى الالتزام بالآداب والأخلاق الفاضلة، ويمنعهم من العمل في المدينة الفاضلة، إن أصروا على إبراز الوضاعة والانحلال الخلقي والتسفُّل وكل ما تكون طبيعته شريرة، وذلك؛ لحماية الشباب حراس المدينة من تجمع كتلة كبيرة من الشر في نفوسهم دون أن يشعروا؛ نتيجة إعجابهم بالشعر الذي يصوِّر المجون واللَّهو ويغري بالشَّهوات الحيوانيَّة.

فهل نعد موقف « أفلاطون » هذا حربًا للإبداع وحدًّا من حُرِّيَّة الشاعر المبدع في أن يصور ما يشاء؟ وإذا كان هذا موقف فيلسوفٍ أوربيٍّ يونانيٍّ من ضرورة الالتزام الخلقيِّ للشاعر ..، فإنَّ هناك مواقفَ أخرى لنقَّاد أوربيين في العصر الحديث رفضوا الشعرَ الماجن الخسيس الذي يدعو إلى الإباحيَّة والانفلات.

فهذا هو الناقد الإيطالي « بندتو كروتشيه » يقول عن حُرِّيَّة الفنَّان: وهذه الحُرِّيَّة مهما اتسعت حدودُها مبدأ خلقيٌّ كذلك، ولكنه ضروريٌّ للفن، وليس معنى هذه الحُرِّيَّة إعفاء الأديب من المسئولية، إذا استغل الغرائز الدنيئةَ، والغايات المسفَّةَ لدى الدهماء، وهذا الإسفاف نفسه غريبٌ عن الفنِّ الذي هو طاهرٌ في ذاته، ولكن مسئوليته يحدِّدها القانون في ذلك، شأن الفنانِ شأن أيِّ إنسانٍ آخر [2].

ويقول هذا الناقد الإيطالي أيضًا: .. فلم تصر الشخصيةُ محددةً عن طريق نتاجها الشعريِّ، بل صار الأمر على النقيض من ذلك، إذ صار النتاج الشعريُّ هو المحدد بصميم الحيوانية الفردية التي غرق فيها وضاعت فيها معالمه، وحين يتحدَّثون عن الشِّعر أنبل الشعر يتحدثون عنه، وقد أصابته هذه العدوى وفاضت منه رائحةُ التقزُّز، رائحة الجنس والغريزة الحيوانية المفترسة [3].

وكذلك الشَّاعر الفرنسي الشهير « بودلير » الذي جمع في نقده بين المحافظة على الجانب الجماليِّ وملاحظة الواقع في دقَّةٍ فيما سمَّاه: نظرية الوحدة الكاملة، وهو فيها

---

(١) جمهورية أفلاطون (ص ٥٦)، ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

(٢) نقلًا عن النقد الأدبي الحديث (ص ٣٩٤) مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق.

أقرب ما يكون إلى الواقعية يقول: هل الفنُّ نافعٌ؟ نعم. ولم؟؛ لأنه الفن. وهل يوجد فن ضارٌّ؟ نعم هو هذا الفن الذي تضطرب به أحوال الحياة.

الرذيلة فاتنةٌ، فيجب أن توصف فاتنة، ولكنها تجر وراءها أمراضًا وآلامًا خلقيَّةً فريدةً يجب وصفها [١].

• هذا هو الموقف النقديُّ الراشد الذي أوضحه العقلاءُ المنصفون في كل جيل وقبيل.

وفي العصر الحديث أيضًا وقف الأديب الإنجليزيُّ الروائيُّ الشهير « برنارد شو » هذا الموقف الخلقيّ القويم من بعض الأعمال المسرحية التي قدمت إلى « جمعية المسرح » البريطانية، فقد جاء في الملحق الأدبيِّ لجريدة « التايمز » الإنجليزية عدد ١٨ ديسمبر (١٩٦٠م) رسالةٌ طريفةٌ بعث بها أحد مؤرخي حياة « برنارد شو » واسمه « ستيفن وينستين » تناول فيها واحدةً من نقاط الخلاف بين اثنين من ألمع كتاب « أيرلاندا » وهما: « شو » و « جيمس جويز » فقد ألَّف « جويس » مسرحية اسمها « المنفيون » وأرسلها إلى جمعية المسرح، فرفضتها الجمعية بضغط من « برنارد شو » الذي وجد بعض مناظرها فاضحةً، فأوصى مؤلفها بأن يعيد النظر يها ويجري بها إصلاحاتٍ لا تمسُّ الجوهر في شيءٍ، وإن كانت تخففُ من عنصر الفضيحة. ولما لم يستجب « جويس » لنصح « شو » قرَّر الأخير أن يسحب تأييدَه للمسرحية، فرفضتها الجمعية.

• وقد برر « شو » رفضه للمسرحية بسبب وجود المناظر الفاضحة فيها؛ لأنَّ الفضائحَ في رأيه مملة وهي تبهظ أعصابه وتجعل صبرَه ينفد، حتى لتوشك الدموعُ أن تفر من عينيه! إنَّ الشرَّ في رأي « شو » ليس مسليًا، والجريمة أو الفضيحة مجرد سقوطٍ للستار الذي يخفي مساوئَ الإنسانية عن أعيننا.

وقال « شو »: إن الذي ينبغي أن يشغلنا فعلًا هو العنصر الطيِّب في الإنسانية: أي قدرة الإنسانِ على التَّغلُّب على مساوئه، والارتفاع عن أوجه النقص فيه، إنَّ الصراع الذي يدور بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسانِ والطبيعة من أجل التَّرقي الدَّائم للبشريَّةِ هو الشيء الوحيد الجدير بالتفات الفنانين والأدباء، أمَّا صرف الطَّاقة في تصوير الموقف الفاضح أو السقطة المسيئة، فعمل غير أخلاقيٍّ، ليس لأنه يهاجم الأخلاق السائدة، بل لأنه يشد

---

(١) التجديد في الشعر الحديث، للدكتور يوسف عز الدين (ص ٢٠٥)، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، نادي جدة الثقافي الأدبي.

الإنسانَ إلى الوراء من حيث ينبغي للأدب والفنِّ أن يدفعاه إلى الأمام.

- إنَّ قرارَ رجلٍ أن يسير عاريًا في الشارع أمر لا يصلح إلا لصفحة الجريمة.

- أما قرار رجل آخر بأن يضع أمامنا روحه أو عقله عاريًا - مثلما يحدث في مسرحيات شو - فهذا هو الذي ينبغي أن يلهم العمل الفني الكبير (١).

فهذا موقفٌ عقليٌ خلقيٌ إنسانيٌ، وإن لم يصطبغ بصبغة الدين، لكنه راجع إلى بقية الفطرة في نفس الإنسان، فما بالك إذا كان هذا الموقف راجعًا إلى عقيدة ودين وتشريع؟!

موقف الإسلام:

إنَّ الإسلام يزكِّي الكلمة الطيبة التي تضيء في الإنسان آفاقه الرُّوحية والإنسانيَّة وتدفعه إلى العمل والبناء والإتقان والإحسان ..، وهذا هو القولُ الثَّابت الذي يثبت اللَّه به المؤمنين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ولئن كان المفسرون يقرِّرون أن « القول الثابت » هو الإيمان أو عقيدة التوحيد أو كلمة لا إله إلا اللَّه..، فإن لنا أن نفهم أيضًا أنَّ القولَ الثابتَ يشمل كل ما يصدر عن الإنسان من رأيٍ وفكرٍ وإبداعٍ مبني على أساس الإيمان الصحيح.

فلا يمكن لأديبٍ مسلم أو « مبدع » كما يسمونه أن يكتب في شعره ونثره الأدبي ما يخالف حقائق الإيمان، أو يناقض عقيدة التوحيد .. وإلَّا كان متناقضًا متذبذبًا وليس هذا من الثبات في شيء.

الكلمة السيئة معيبة:

والأساسُ المكين للحكم على الكلمة في الإسلام هو قول الحق سبحانه: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٨].

فالكلمة السَّيئةُ معيبةٌ في كل قول .. سواء كان خطابًا معتادًا ..، أو كان إبداعًا وفنًّا .. شعرًا أو نثرًا .. وليس ادعاء « الإبداع » مسوغًا للطَّعن في العقائد والتشكيك في الثوابت والإغراء بالشهوات والانطلاق من الضوابط والتخلي عن الإيمان.

---

(١) من مقال للدكتور علي الراعي في مجلة المجلة (ص ٥) العدد (٣٧) رجب سنة (١٣٧٩هـ) يناير (١٩٦٠م) السنة الرابعة.

ومن هنا فإن حكمَ القرآن على الشُّعراء بأنهم يتبعهم الغاوون، وأنَّهم في كل وادٍ يهيمون إنَّما ينطبق على المبدعين الكذبة، أو مدعي الإبداع الذين يريدون مهاجمة العقائد وزلزلة المجتمعات وإغراء الإنسان بالفوضى والجموح.

• ثم استثنى الحقُّ سبحانه من هذا الحكم على الشُّعراء « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللَّه كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » فالإيمان والعمل الصالح يحول بين « المبدع » والهدم والتدمير والتخريب ..؛ لأن الشعرَ ثمرة الشعور ونتيجة التجربة، فإذا كان « المبدع » مؤمنًا عاملًا للصالحات منتصرًا من الظالمين ..، فإنَّ إبداعَه سيكون ضوءًا هاديًا وشعاعًا وهَّاجًا يصلح الحياة ويوائم بينها وبين الإنسان ..

• والإسلام يفتح الطريق أمام الإبداع الهادف البناء ..، ويوصده أمام الإبداع الزَّائف المدمر .. وقد عرفنا أن هذا هو منطقُ العلماء والحكماء في كل عصرٍ وفي كل مجتمعٍ ...

إنَّ الضوابط التي وضعها الإسلام للإبداع سواء كان شعرًا أو نثرًا بأنواعه: المقالة والقصَّةُ والروايةُ بألوانها المختلفة، تحقق الحرُيَّة لأصحاب العقول الصَّحيحة والمقاصد السليمة والنَّوايا الطيبة، ولا تحقِّقها لمن يريدون جعل الإبداع سهامًا موجَّهةً نحو العقائد والأخلاق، والنُّظم وقواعد الاجتماع ..، وليس وراء هذا عدالةٌ وتسامحٌ، وإغراء بالإبداع الجميل لمن يقدر عليه ويحتمل تبعاتِه.

لقد عرف الرسول ﷺ أثر الكلمة الجميلة شعرًا كانت أو نثرًا في قوله « **إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا وَإِنَّ مِن الشِّعْرِ حِكْمَةً** » (١). فالكلمةُ الطيبةُ الجميلةُ تعمل عملها في النفس وتؤثر في الشعور والسلوك ..، فيشبه أثرُها في النفس أثرَ السِّحر الخفيِّ الذي يسيطر على الإدراك.

ومن هنا حذَّر النَّبي ﷺ من استخدام الكلام فيما لا نفع فيه، أو اتخاذها أداةً للفخر والخيلاء والادعاء وذلك في قوله ﷺ: «... **وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَومَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيهِقُونَ** » (٢). وكلها صفات متصلة بالكلام ..، فالثرثار هو الذي يكثر القول دون داعٍ ولا مصلحةٍ، وأصله من العين الثرَّة أي: التي يتدفق منها الماء ..، ولكن شتان بين ما يخرج من العين من ماء يحيا به الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطب باب رقم (٥١) ومسلم في صحيحه كتاب الجمعة حديث رقم (٤٧).

(٢) من حديث أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر باب رقم (٧١) وأحمد في مسنده (٣٦٩/٢).

والنبات والحيوان .. وما يخرج من لسان هذا الثرثار من كلام قد يضر أكثر مما ينفع، وقد يشغل غيره عن العمل والإنتاج ..

أمَّا المتشدقُ فهو الذي يملأ شدقيه بالكلام تصنعًا وادعاءً للبلاغة وحسن المنطق .. ويأتي بعدها « المتفيهق » وهو الذي يدعى الامتلاءَ من العلم والمعرفة والتمكن من صناعة البيان.

• ولهذا جاء بيانه ﷺ مثلًا أعلى للإبداع والجمال والتأثير، فهو من جوامع الكلم، أيْ: الجمل ذات الألفاظ القليلة والمعاني الواسعة، وهو يتسم بالقصد أيْ: الاتجاه إلى الهدف المطلوب دون مقدمات طويلة مملة ..

وهو موجزٌ يسهل حفظه والتمثل به في المواقف المختلفة .. كما اتسم البيان النبويُّ بالتنوع والتشويق، ففيه الخطب غير المطولة، وفيه الأمثال الموحية بالمعاني العديدة، وفيه الحكم والوصايا، وفيه القصَّة الهادفةُ المتأثرة بقصص القرآن، وقد كان هذا البيان المبارك نافعًا في عصره وفيما تلاه من العصور حتى يوم الناس هذا ..

فمن أراد الإبداعَ الحقَّ فليتمثلْ قدر استطاعته روعة البيان النبويِّ، وليلتزمْ فيه الصِّدق والنفع للإنسانيةِ، وليبتعد فيه عن الكذبِ والتصنُّع والادِّعاء والإيهام والتَّضليل ..، وليلتزمْ فيه القيم الفاضلة والآدابَ الإنسانية الجامعةَ، وليبتعد عن التقليد الأعمى ومحاكاة النَّزعات الجامحة والاستجابة للأهواء الشِّريرة ..

• ومن الأوهام الشائعة من زمان قديم: أنَّ مجال الإبداع ومثار الخيال والاختراع إنَّما هو في مجافاة الدِّين والخُلُق، وترك التقيُّد بالحقِّ والصِّدق، كأنما الشرُّ لازمةٌ من لوازم الأدب، وكأن الإبداعَ لا يتحقَّق إلا بانتهاك الحرُمات وتدمير الفضائل!

ويردِّد هؤلاء بعضَ الأقوال الزَّائفة المتوارثة كقولهم: أعذبُ الشِّعر أكذبه وقولهم: الشعر نكِد يضعف في الخير ويقْوى في الشَّرِّ، وزعمهم أنّ حسان بن ثابت قد لان شعره في الإسلام وضَعف، بسبب التزامه بنصرة الدعوة والذبِّ عنها حتى جاء أبو العلاء المعري فقال في مقدمة لزومياته: –

« إنّ مَنْ سَلَك هذا الأسلوب – يعني المواعظ والزهد – ضَعُف ما ينطق به النظام؛ لأنه يتوخَّى الصَّادقة ويطلب من الكلام البَرَّة، ولذلك ضَعف كثير من شعر أمية بن أبي الصلت الثقفيّ ومَنْ أخذ بضربيّه [1] من أهل الإسلام، ويُروى عن الأصمعيِّ كلامٌ معناه:

---

(١) أي نهج نهجه.

أنَّ الشعرَ بابٌ من أبواب الباطل، فإذا أريد به غير وجهه ضعف، وقد وجدنا الشُّعراءَ توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب وهو من القبائح، وزيَّنوا ما نظموه بالغزَل وصفة النساء ونعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمر » (١).

فكأنَّ هذا شبه إجماعٍ بين هؤلاء النُّقَّاد على تحالف الإبداع الأدبيِّ مع الفجور الخلقيِّ، ووثاقة الصِّلة بين التَّمكن في الفنِّ والخروج على الدِّين والأخلاق.

لكنَّ الحقيقةَ أنَّ هذا كله ادِّعاءٌ ينتمي إلى الباطل وتهويل لا يقوم على أساس، فكما أنَّ هناك من قال: إنَّ أعذب الشعر أكذبه، كان هناك من يقول: إنَّ أحسن الشعر أصدقُه: كما قال القائل:

وَإِنَّ أَحْسَنَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ ... بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا مَا قُلْتَهُ صَدَقَا

وهو البيت الذي يستشهد به الناس في وقائع الأحداث، فيتذكرونه ويشهدون بصدق قائله، إذ يقولون: صدق الشاعر فيما قال، ومن هنا جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ:كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّه بَاطِلُ » (٢)

فقد جعل الصدق مقياسًا للتفضيل وسببًا للإشادة..

وها هي أبياتُ الحكمة التي سارت بين الناس وأصبحت أمثالًا تُضربُ، ويُستشهد بها كأنها حقائقُ مقرَّرةٌ، لا تزال تعيش بيننا وتُنقل معانيها إلى أهل اللغات المختلفة، فيطربون لها ويعجبون من عمق معانيها وسعة آفاقها.

بينما ينسى النَّاس شعرَ المبالغة الكاذب والهجاء المقذع والغزل الفاحش، ولا يجدون له حضورًا في وقائع حياتهم المتجدِّدة..

• إنَّ شعر المتنبي بعيد في أغلبه عن الخمريات وعن الغزل الفاحش مليءٌ بالحكم والتأمُّلات، والإشادة بالفضائل ومكارم الأخلاق، فأيهما أقرب إلى النَّاس وأحبُّ: شعر امرئ القيس أو شعر المتنبي الذي شغل الناس في عصره ولا يزال يشغلهم بعد اثني عشر قرنا من الزَّمان!

---

(١) اللزوميات لأبي العلاء المعري (٣٩/١) مكتبة صادر - بيروت.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٩٣/١).

• ومن الذي يستطيع أن يحول بين الشّاعر المبدع وبين الاقتراب من عالم الفضيلة والمثل والأخلاق؟!

إن أبا نوّاس الماجن المستهتر هو نفسه صاحب الزُّهديات والمواعظ الرائعة التي لم يضع فيها شيئًا من فنه وإبداعه.

وإن إسلامياتِ شوقيّ ليست أقلَّ في الفن والإبداع من خمرياته ومدائحه وغزلياته، بل إنَّ إسلامياته هي التي بقيت وسارت بين الناس وأصبحت أمثالًا تُضرب في كثير من المواطن.

وإن الشاعر الهنديَّ محمَّد إقبال في روائعه الشِّعرية صادر عن الإيمان الصحيح والخلق الفاضل والوقوف وقفة تأمل أمام أسرار الحياة..

والأمر في الحقيقة ليس أمر الموضوع الذي يعالجه الشَّاعر، بل هو أمر التجربة التي تملأ مشاعره وتسيطر على وجدانه، فعلى قدر انفعاله بها وتأثره بمعانيها، تكون استجابته وقدرته على التعبير.

ومن هنا نجد بعض الشعرِ الدِّيني بل كثيرًا منه، لا يعدو كونه نظمًا يعيبه التكلف وتثقله الصنعةُ، والسبب ليس الموضوع الدينيّ، بل عجز الشاعر أن يرى تجربته أو يحس بها، ولو أنه أخلص لها لأتى بالعجب العجاب!

* * *

إنَّ هذه الرواياتِ والأشعارَ التي تتزيَّا بزي الحداثة والتجديد، وتهاجم العقائد والأخلاق والآداب، ليست من الإبداع في شيءٍ، وليست من حُرِّيَّة الرَّأي في شيء فالحُرِّيَّة مسئوليةٌ والتزامٌ، وليست فوضى وهدمًا وتخريبًا..

• إن هذا الإبداعَ المزعومَ الذي يصادم العقائد وينافي الأخلاق، إنْ هو إلا سهامٌ أرسلها الأعداء إلى كيان هذه الأمة وأساس وجودها وهو الإسلام..؛ لأنهم يعلمون أنَّ الإسلام روحٌ دافعةٌ قويةٌ محركةٌ تأبى التَّبعيةَ والانقياد؛ لأنه دينٌ حيٌّ متحركٌ مؤثرٌ، يبني النَّهضةَ ويدفع إلى التقدم..، وهم يعيشون صرعى الأوهام وأسْرَى الأحقاد.. ولا ينسون أن الإسلام طرَق أبوابَ أوربا وبنى له كيانًا في بعض ربوعها..، وأنَّ الإسلامَ قد كشف زيفَ المعتقدات المحرَّفةِ ووضع أصحابَهَا في مأزقٍ حرجٍ..

ولهذا يريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم، وما استطاعوا عَبْر حملاتهم العسكرية المحمومة أن يهدموا صرح الإسلام في العالم ..، ولا أن يصرفوا الناس عن ضيائه ..، فاصطنعوا حركةَ الاستشراق التي حاولت البحثَ عن مطاعن وشبهات يضلُّون بها المسلمين. لكن هذه الحملة خابت وفشلت في تحقيق أهدافها ..، ووجد المستشرقون أنهم يحاولون عبثًا، وأنَّ الأمةَ الإسلاميةَ واثقةٌ من طريقها مستمسكةٌ بدينها القويم، وأنَّ هذه الشبهاتِ لم تزد المسلمين إلا يقينًا وثباتًا ..

وهنا لجأوا إلى اصطناع طائفة من ضعاف الإيمان المتهالكين على الحطام، من المنتسبين إلى الإسلام بحكم المولد والنشأة، تتظاهر بالتَّجديد وحُرِّيَّة الفكر والاجتهاد، حتى لا يكون عليها حرجٌ في الحديث عن قضايا الإسلام، ثم تتسلَّل إلى العقائد والأحكام؛ لتبثَّ الشبهات حولها وتجادل في أصولها ..

فهل هذه حُرِّيَّة فكرٍ أو حُرِّيَّة « تكفيرٍ » ؟!

إن لحُرِّيَّة الفكر والرَّأي والإبداع حدودها في كل الشرائع والقوانين والعصور .. فليست هناك حُرِّيَّة مطلقة، ولا حُرِّيَّة بغير حدود ..

قال الأستاذ العقاد:

« وليس في العقل شيءٌ يسمى حُرِّيَّة مطبوعة تعلو على الحُرِّيَّة المخلوقة بالانطلاق من جميع القيود؛ لأنَّ الانطلاقَ من جميع القيود غير معقولٍ وغير موجودٍ » [(١)].

فلماذا يريدونها فوضى في المجتمع الإسلام وحده؟ ولماذا يطالبون بالحُرِّيَّة المطلقة للأشعار الملحدة والروايات الفاجرة بدعوى حُرِّيَّة الإبداع؟!

* * *

(١) الإنسان في القرآن للأستاذ عباس محمود العقاد (ص ٥٣) الطبعة الأولى.

الرأي والاختلاف!

هذه قضيةٌ ينبغي إفرادها ..، فإنَّ بعض أهل الأهواء يزعمون أنَّ الإسلام لا يقر « التعددية » أي: الآراء المتعددة بل يحمل النَّاس على رأيٍ واحدٍ ..، ولا يؤمن بالرَّأي الآخر. وهذا ظلمٌ بيِّنٌ، وافتراءٌ خبيثٌ ..، يفتضح أمرهم عندما نرجع إلى القرآن لنرى حديثه عن الاختلاف ..

ففي سورة هود جاء قول اللَّه سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

فقد أخبر سبحانه أنه لو شاء لجعل الناس جميعًا جماعةً واحدةً على ملةٍ واحدةٍ ودين واحد ..

قال قتادة: يقول: لجعلهم مسلمين كلهم [١].

ولكنهم لا يزالون مختلفين لا يجتمعون على دينٍ واحدٍ ولا على مذهبٍ واحدٍ ولا على رأيٍ واحدٍ ..

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ وهم أهل الحنيفية السمحة، أو أهل الحق.

وقد سُئِلَ الحسنُ البصريُّ عن هذه الآية: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] فقال: « النَّاسُ كلُّهم مختلفون على أديانٍ شتَّى ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ فمن رحِم غير مختلف، فقلت له: ولذلك خلقهم؟ فقال: خلق هؤلاء لجنَّته وهؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته وخلق هؤلاء لعذابه » [٢].

قال الطبريُّ: وأمَّا قوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ فإنَّ أهل التَّأويل اختلفوا فيه فقال بعضهم: معناه: وللاختلاف خلقهم.

ثم رُوِيَ عن الحسن في قوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال: للاختلاف خلقهم [٣].

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وللرحمة خلقهم [٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٤٢/١٢) مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) السابق (ص ١٤٣).

(٤) السابق.

وسواء كان الخَلْق للاختلاف أو للرحمة، فإن الاختلافَ حاصلٌ في حياة البشر منذ القدم، سواء كان اختلاف رأي أو اختلاف عمل وسعي .. فقد كان قابيل مختلفًا عن أخيه هابيل .. فقابيل يقول لأخيه: لأقتلنك، وأخوه يجيبه بقوله - كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧، ٢٨].

واستمر الخلاف حتى بين الأنبياء، وأبنائهم وآبائهم وأزواجهم.

فنوح عليه السلام ينادي ولده الكافر لما جاء الطوفان: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢] وولده يجيبه ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

وإبراهيم الخليل عليه السلام ينادي أباه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥]، وأبوه يجيبه: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٦].

وامرأة نوح وامرأة لوط تخالفانهما في العقيدة، ولذلك جعلهما الله مثلًا للكافرين: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٖ وَٱمْرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـٔٗا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

بينما وقع الخلاف بين فرعون الطَّاغية الجبَّار الذي قال للناس: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]. وقال لهم: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]. وامرأته التي آمنت بالله وجعلها الله مثلًا للمؤمنين: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتٗا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

ومحمدٌ ﷺ يتلقَّى الوحيَ من ربِّ العالمين ويحمله رسالة التوحيد الخالص، وبعض أقاربه يختارون طريق الشرك ويحاربون دعوةَ الإسلام، منهم: عمُّه أبو لهب الذي قال الله فيه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ [المسد: ١ - ٣].

ومنهم عمه أبو طالب الذي كان يحميه ويدفع عنه أذى المشركين.. ومع هذا لم ينطق بكلمة التوحيد، مجاراة لقومه وأنفة من التنازل عن الموروثات الباطلة، وقال الله لرسوله ﷺ في شأنه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

وأراد النَّبِي ﷺ أن يستغفر لعمِّه لعلَّ اللَّه يرحمه ويخفف عنه، فنهاه اللَّه سبحانه عن الاستغفار له، وقطع الصلة بين المسلمين والمشركين فقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

• هكذا وقع الاختلافُ بين الأنبياء وأهليهم في أمر العقيدة؛ ليتبيَّن أثر الاختيار والإرادة، وحتى لا يكون الإيمان بالتَّبعية أو بالتقليد، فلابد من سعي ولابدَّ من مجاهدة؛ لينال كلُّ إنسان ما يستحقه طبقًا لاختياره وعمله وهذا هو مغزى الاختلاف..

* * *

فكيف يزعم زاعمٌ أنَّ الإسلام لا يقر الاختلاف ولا يسمح بتعدد الآراء، وأنه يحمل الناس على قولٍ واحدٍ ورأي واحد، وعمل واحد، حتى كأنهم نسخ مكررة ذات طابع واحدٍ؟..

كيف والقرآن الكريم يأمر النَّبِيَّ ﷺ بالدعوة، تاركًا المجال للاختيار: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

ويقول سبحانه: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن: ٢].

ولو كان الناسُ جميعًا أمة واحدة على التوحيد والهداية ما احتاجوا إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولما كان هناك حسابٌ ولا عقابٌ؛ لأن الناسَ جميعًا سيكونون على الإيمان والاستقامة وسيكونون حينئذٍ من أهل الجنَّة، ولا حاجة إذن لوجود النار.

فالاختلاف بين البشر أمرٌ مقرَّرٌ لا ينكره أحدٌ..، ومن هنا احتاج البشر إلى الدعوة

والتذكير: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١]: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد نهى القرآنُ عن الاختلاف الذي يكون سببه العلم، والذي يحركه البغيُ والاستعلاء وحبُّ الغلبة.

قال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [الجاثية: ١٧]. والمفروض أن يكون العلم سببًا للمعرفة والاتفاق، لا أن يتَّخذ المجادلون من العلم وسيلةً لتعميق الخلاف وتفريع المسائل والمهارة في المراء والتظاهر بالعلم، بغيًا واستطالة وسعيًا إلى نيل الجاه والرئاسة وتحصيل المال.

ومن هنا كانت مهمةُ النَّبي ﷺ أن يبينَ للنَّاس الحقيقة وأن يدلَّهم على الطريق الواضح الذي لا هلكة فيه.

قال اللَّه سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ ﴾ [النحل: ٦٤].

وإذا كان النَّبيُّ ﷺ قد أمر أن يبيِّن للناس: ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ ﴾ فإن عيسى عليه السلام قد جاء ليبين للنَّاس ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ ﴾ كما قال الحق سبحانه على لسان عيسى ابن مريم: ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ ﴾ [الزخرف: ٦٣]. ومع ذلك وقع الخلافُ بين أتباعه، وقال بعضهم هو اللَّه – سبحانه – وقال آخرون هو عبد اللَّه، وقال آخرون هو ابن اللَّه، قال تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٦٥].

ومن هنا امتدَّ هذا الاختلافُ بين النَّصارى حتى يوم النَّاس هذا ما بين الأصوليين « الأرثوذوكس » و « الكاثوليك » و « البروتستانت » حتى صارت حروب بين هذه الطوائف شهد بها التاريخ.

* * *

وقد كان من دعاء النَّبي ﷺ في مناجاته لربه: « **اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ** » (١).

وحذَّر النَّبي ﷺ أمَّته من الاختلاف كما جاء في الحديث الذي رواه البخاريُّ في صحيحه بسنده عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه أنه سمع رجلًا يقرأ آية سمع النَّبي ﷺ

---

(١) صحيح مسلم كتاب المسافرين حديث رقم (٢٠٠).

خلافها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى النَّبِي ﷺ فقال: « كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ فَاقْرَآ » أكبر علمي قال: « فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَأَهْلَكَهُمْ » (١).

إنَّ هذا الاختلاف المهلكَ هو الذي يقسِّم الأمةَ فِرَقًا متناحرةً، وطوائفَ متصارعة، بعكس الاختلاف الذي يسمح بتعدد الآراء للوصول إلى الحق، فإذا ما تبيَّن الحقُّ هرع إليه الجميع واثقين.

• وقد عقد البخاريُّ في كتاب الاعتصام من صحيحه بابًا بعنوان « كراهية الخلاف » فأورد فيه حديث جندب بن عبد اللَّه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « اقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ » (٢).

ولمَّا كان القرآن هو أساس هذا الدين ومصدر هذه الشريعة فلا يسوغ فيه اختلاف على نصه ..، فقد قال النَّبِي ﷺ فيما رواه مسلم: « إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ » (٣).

ومن هنا كان توفيق اللَّه لصحابة رسول اللَّه ﷺ أنهم جمعوا القرآن، وكان الشَّرف في ذلك لأبي بكر الصديق ﷺ، الذي أمر بجمع القرآن باقتراح من عمر بن الخطاب ﷺ، وعثمان ﷺ الذي جمع الناس على مصحفٍ واحدٍ وأرسل بنسخ منه إلى الأمصار؛ ليكون هناك نصٌّ واحدٌ للقرآن لا اختلاف فيه ..

روى البخاريُّ في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، عن زيد ابن ثابت ﷺ قال: أرسل إليَّ أبو بكر مَقتَل أهل اليمامة - أي حين قُتل القرَّاء في معركة اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر ﷺ: إنَّ عمر أتاني فقال: إن القتلَ قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنِّي أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمرَ بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسولُ اللَّه ﷺ؟ قال عمر: هذا واللَّه خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح اللَّه صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .. (٤).

---

(١) صحيح البخاري بشرح السندي (٢٣٧/٣) كتاب فضائل القرآن.
(٢) صحيح البخاري (٢٧١/٤) بحاشية السندي.
(٣) صحيح مسلم كتاب العلم حديث رقم (٢).
(٤) صحيح البخاري (٢٢٥/٣) بحاشية السندي.

وروى البخاريُّ في الباب نفسه حديث أنس بن مالك ﷺ، أنَّ حذيفة بن اليمان ﷺ قدم على عثمان ﷺ، وكان يغازي أهل الشام في فتح « أرمينية » و « أذربيجان » مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدركْ هذه الأمةَ قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنَّصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصُّحُفَ ننسخها في المصاحف ثم نردُّها إليك.

فأرسلت بِها حفصة إلى عثمان، فأمر زيدَ بن ثابت وعبدَ اللَّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرَّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانِهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصُّحُف في المصاحف ردَّ عثمان الصحفَ إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفقٍ بمصحفٍ مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحْرق (١).

وبهذا حفظ اللَّه كتابه في الصُّدور والصُّحف، وأمنت الأمةُ شرَّ التَّفرق والاختلاف حول نصِّ القرآن.

● أمَّا الاختلاف في الفروع والاجتهادات والآراء في الفقه والعلم فهو مشروعٌ لا حرج فيه ..

كما روي عن حميد قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو جمعت الناسَ على شيء؟ فقال: ما يسرني أنَّهم لم يختلفوا قال: ثم كتب إلى الآفاق أو إلى الأمصار: ليقضِ كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤُهم (٢).

وعن عون بن عبد اللَّه قال: ما أحب أن أصحاب النَّبِي ﷺ لم يختلفوا فإنهم لو اجتمعوا على شيء فتركه رجلٌ ترك السُّنَّة، ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد أخذ بالسُّنَّة (٣).

وعن طاووس قال: ربما رأى ابن عباس الرَّأْي ثم تركه (٤).

وعن مروان بن الحكم قال: قال لي عثمان بن عفان: إنَّ عمر قال لي: إني قد رأيت

---

(١) المرجع السابق (٣/٢٢٦).

(٢، ٣) سنن الدارمي، باب اختلاف الفقهاء (١/١٥١) مرجع سابق.

(٤) مرجع سابق.

في الجد رأيًا، فإن رأيتم أن تتَّبعوه فاتَّبعوه.

قال عثمان: إن نتبع رأيَك فإنه رشد، وإن نتبع رأيَ الشيخ قبلك فنعم ذا الرَّأْي كان. وكان أبو بكر يجعله أبًا (١).

وقد سبق أن بيَّنا كيف كان الاجتهاد في الآراء الفقهيةِ في عصر الصَّحابة والتَّابعين ومن بعدهم .. وكذلك الاجتهاد في مجال الشُّورى والبحث العلميّ، والرَّدُّ على الفكر المنحرف. فلا حاجةَ بنا إلى إعادة شيءٍ من ذلك ..

وإنَّما نؤكد أنَّ هناك اختلافًا غير مشروعٍ كالخلاف في أصول العقيدة أو في نصِّ القرآن.

وهناك اختلاف مشروع وتعدد في الآراء، فيما سوى ذلك من القضايا الفقهية والأوضاع الاجتماعية والآراء العلمية.

وحسبنا أن نشيرَ إلى ألوف الصَّفحات التي كتبها ابن تيمية في مناقشة آراء الفرق والطوائف، وأصحاب الديانات وإقامة الحجج على المعاندين ..، وكيف نقد منطق أرسطو في كتاب سماه « نقد المنطق »، وكيف قرأ كتب الفلاسفة والمناطقة وأصحاب الكلام من مختلف الاتِّجاهات وناقشها نقاشًا علميًّا دقيقًا بارعًا .. ولم يضق بشيءٍ منها.

وكان تأثُّره واضحًا بمنهج القرآن الذي حكى مقولاتِ المشركين والأمم المعاندة، وأقوال فرعون واليهود والمنافقين وغيرهم من طوائف الضَّالين وردَّ عليها ردًّا هادئًا مقنعًا .. حتى ما فيه افتراءٌ على اللَّه سبحانه.

لنؤكد حاجتَنا إلى تعدد الآراء، بشرط أن تكون مخلصةً هادفةً بعيدةً عن الهدم والإثارة والتَّحريض ونشر الفوضى في المجتمع.

إن العالم الحقَّ لا يضيق برأيٍ علميٍّ مهما كان جنوحُه أو غرابتُه ..، وعليه أن يناقشه بالوسائل العلميةِ والعقليةِ الصَّحيحة؛ لبيان وجه الحقِّ فيه، إن كان فيه شيءٌ من الحقِّ، أو لإبطاله والتحذير من ضرره، إن كان بعيدًا عن الحقِّ والعقل والصواب.

ولولا تعددُ الآراء والسَّماح بها في المجتمع المسلم ما أُلفت هذه الملايين من المجلدات في كل عصر .. ومنها ما يرد فيه بعض العلماء على بعض.

---

(١) سنن الدارمي، باب اختلاف الفقهاء (١٥١/١).

لا فرقة:

إنَّ اختلافَ الآراء شيءٌ ..، والتحزُّب والتفرُّق شيءٌ آخر ..، فقد حذَّر النَّبي ﷺ من الافتراق والتحزُّب، وأخبر أنَّ الأمةَ من بعده ستفترق كما افترقت الأمم من قبلها، وأن هناك فرقةً واحدةً ناجيةً، والباقون هلكى؛ لأن الفرقةَ الناجيةَ هي التي تتبع ما كان عليه النَّبي ﷺ وأصحابه (١).

وعن أنسِ بن مالكٍ أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: « **إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَهَلَكَتْ سَبْعُونَ فِرْقَةً وَخَلَصَت فِرْقَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَتَهْلَكُ إِحْدَى وَسَبْعُونَ وَتَخْلصُ فِرْقَةٌ** » **قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ تِلْكَ الْفِرْقَةُ؟ قَال:** « **الْجَمَاعَةُ الْجَمَاعَةُ** » (٢).

وفي الحديث الذي رواه أحمد في مسنده بسنده عن مسعود بن أبي وقَّاص ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: « **إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الفُرْقة** » (٣).

إن هذه الفرقةَ قد أذهبت ريحَ المجتمعِ الإسلاميِّ بعد عصر الخلفاء الرَّاشدين وبالتَّحديد بعد استشهاد عثمان بن عفان ﷺ الخليفة الثالث بأيدي المارقين المتمرِّدين الذين استغلُّوا الفرصةَ؛ لزرع الفتنةِ في المجتمع الإسلاميِّ، ثم حدثت الفتنةُ الكبرى بين عليٍّ ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، وما تَلا ذلك من صراعٍ على الحكم، ومن قيام دول وسقوطها وظهور دويلات وكيانات مجزأة، تسببت في غلبة الأعداء واقتطاع أطراف من الدولةِ الإسلاميِّةِ الواحدةِ ..

ومن العجيب أنَّ الأمَّةَ الإسلاميَّةَ في عصرها الحاضر لم تستفد من تجارب الماضي، فلا زالت تتناحر وتتصارع ولا يجتمع لها رأي ولا يتوحد لها صفٌّ، مما مكَّن الصهاينةَ وأعوانهم من الاعتداء على المقدَّسات وسفك الدماء وإذلال المسلمين، بل إنَّ الصِّراع والنِّزاع قد يقع بين الشَّعب الواحد صاحب القضية الواحدة ..

* * *

(١) مسند أحمد (٤٥/٣).

(٢) مسند أحمد (١٤٥/٣). وسنن أبي داود، كتاب السنة، باب رقم (١)، وسنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب رقم (١٨).

(٣) المسند (١٧٨/١).

إنَّ الاختلاف في الرَّأْي، والاختلاف في الفتوى والاجتهاد وفي معالجة القضايا الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ، أمرٌ جائزٌ مشروعٌ لا حرجَ فيه ولا ضررَ منه، فهو اختلافٌ في الفروع لا في الأصول التي ينبغي أن تكون موضع إجماع واتفاق ..

أمَّا التَّفرّق والتحزب والصراع فهو ليس من قبيلِ الرَّأْي والفكر والبحث، بل هو مبنيٌّ على العداوة والبغضاء والرَّغبة في الغلبة والانتصار ..

وينبغي أن تشيعَ في المجتمع الإسلاميِّ على امتداده ثقافةِ الحوار وقبول الاختلاف والإصغاء إلى الرَّأْي الآخر لعلَّ فيه الحقَّ والصواب ..

وهكذا كان موقف أسلافنا - رحمهم اللّه - كالإمام الشافعيِّ الذي كان يقول: ما ناظرتُ أحدًا قط إلا أحببت أن يوفَّق ويُسَدَّد ويُعَان، ويكون عليه رعايةٌ من اللّه وحفظ، وما ناظرتُ أحدًا إلا ولم أُبالِ بيَّن اللّه الحقَّ على لساني أو لسانه [1].

وكان الشافعيُّ يقول: « وددت أن كل علم أعلمه يعلمه الناس أوجَر عليه ولا يحمدونني » [2]..

والأمثلةُ كثيرةٌ على منهج أسلافِنا في البحث عن الحقيقة، ومناقشة الآراءِ بعيدًا عن التحزُّب والصِّراع والافتراق.

وهذا هو الجدير بالمجتمع الرَّاشد الذي يجعل شعاره ابتغاءَ الحقِّ ولا شيءَ غيره!

* * *

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١١٨/٩) ط الخانجي القاهرة (١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م).

(٢) المرجع السابق (ص ١١٩).

حرية الرأي في الغرب!

يتحدَّث الأوربيون كثيرًا عن حُرِّيَّة الرَّأْي وحقوق الإنسان، ويتباهون بأنَّهم سعوا إلى استصدار وثيقة حقوق الإنسان من هيئة الأمم المتحدة سنة (١٩٤٥م) التي تنصُّ على حُرِّيَّة التعبير وإبداء الرَّأْي وحُرِّيَّة النشر..

ونسوا: كيف كان حال مجتمعاتهم خلال القرون ..، وحالها بعد صدورِ وثيقةِ حقوق الإنسان .. هل التزمت بحُرِّيَّة الرَّأْي والتعبير حقًّا؟ وهل منحت هذا الحقَّ لكافَّة الأجناس والأديان أو خصت به قومًا دون قومٍ؟

فها هو الكاتب الفرنسيُّ « جان جاك روسو » مؤلف كتاب العقد الاجتماعي الذي يعد من مراجع الفكر السياسيِّ الأوربيِّ الأصيلة، يتعرَّض بسبب كتابه هذا للإدانة والمطاردة حتى يضطر إلى الهرب من بلد إلى آخر: « وما أن صدر كتابه عن العقد الاجتماعيِّ سنة (١٧٦٢م) حتى قرَّرت السلطات الحاكمة في فرنسا القبض عليه بتهمة إثارة الخواطر ضد نظم الحكم والقوانين والعادات والتَّقاليد المستقرة، مما أدى به إلى الفرارِ من فرنسا إلى سويسرا، ولكنَّه طرد بعد ذلك من سويسرا وعاد إلى فرنسا بعد عدة سنواتٍ »[1].

فأين حُرِّيَّة الرَّأْي.. وحُرِّيَّة الفكر.. وحُرِّيَّة النَّشر التي أملَّنا الغربيون من كثرة حديثهم عنها وذكرهم لها؟

• بل ماذا كان من شأن حُرِّيَّة الرَّأْي والفكر في القرون الوسطى في أوربا: ولقد سُمِّيت القرونُ الوسطى بحقٍّ القرون المظلمة، فهي تمثل العصورَ التي ساد فيها الجهل والتعصُّبُ أوربا، والتي زالت فيها ثقافةُ الإغريق، وصار العلم أو مَسْخ العلم مقصورًا على الرهبان في « الأديار » وكانت معارف هؤلاء مقصورةً على الآداب اللاتينية وعلى شيءٍ قليلٍ من نظريات « إقليدس » وعلى ما ترجم من العربية إلى اللاتينية عن أرسطو وأفلاطون.. وكان أساتذة تلك العصور يجهدون أنفسهم في رياضة الفلسفةِ على أن تكون مطيةً للدين، وقد ريضت فلسفةُ ابن رشدٍ، وفلسفة تلميذه ابن ميمون لهذه الغاية.

---

(١) مقدمة دكتور حسين سعفان للمختار من العقد الاجتماعي. لروسو. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة سنة (٢٠٠٤م).

وكان علم الرهبان قائمًا على النقل والجدل والألفاظ بعيدًا عن الابتكار، يُعْنى أكبر عناية بدرس آباء الكنيسة ويهمل الإهمال كله أية نزعة نحو الاستقلال في الفكر (١).

وعندما جاء « روجر بيكون » الذي تأثر بعلوم العرب في القرن الثالث عشر الميلاديّ وأخذ يحضُّ قومه على إجراء التَّجارب ويشيد بالعلم التجريبيّ، وأخذ يحضُّ الطلبة في جامعة « أكسفورد » على تعلُّم اللغة العربيَّة والإغريقية والعلوم الطبيعية، اتُّهِم بممارسة السِّحر وحكم عليه البابا والكهنة بالسِّجن أربعة عشر عامًا (٢).

وفي جانب النهضة الدينية حاول « ويكلف » الذي توفِّي سنة (١٣٨٤م) أن يقرر مبدأً أن كلمة الإنجيل هي أساس المسيحية ولا عبرة بما يقوله الكهنة مما يخالفها..

واستطارت هذه الشرارةُ في أوربا ففي سنة (١٤٠٠م)، نجد كاهنًا بوهيميًّا اسمه « جون هس » في « براغ » ينشر على النَّاس مذهب « ويكلف »، وحينما علم البابا بنشاطه أمر بإحراق كتب الرَّاهب الإنجليزيّ « ويكلف » وحكم على « هس » بالحرمان الكنسيّ.

وحدث أنه في سنة (١٤١٥م) رحل إلى ألمانيا؛ ليشترك في مناقشات المجمع الكنسيّ فلما وصل إلى مدينة « كونستانس » قبض عليه الكهنةُ وحاكموه وحكموا عليه بالقتل « لهرطقته »، فقُتِل دون أن يستغفر، أو يبديَ أيَّ ضعفٍ، وأُحْرِقت كتُبُه أمامه قبل قتله... (٣)

هكذا يسجِّل التَّاريخ مواقفَ البابا والكنيسة في أوربا، كما يسجِّل مواقفَ الحكومات المستبدة التي كانت تكبت حُرِّيَّةَ الرَّأْي وحُرِّيَّة الفكر وحُرِّيَّة النشر كما حدث في موقف الحكومة الفرنسيةِ من كتب « جان جاك روسو » التي هي الآن عماد النظريات السياسيةِ والاجتماعيةِ.

حتَّى عندما أُنْشِئتْ المطابع في القرن الخامس عشر الميلاديِّ، وفوجئ رجالُ الكنيسة بانتشار الكتبِ ورواجها، سارع آباءُ الكنيسة إلى حظر بعض الكُتُب، وكانوا يضعونها في قائمةٍ يذيعونها على الناس، ولكن تلك القائمة كانت سببًا في رواج الكتب والإقبال عليها.

---

(١) حرية الفكر لسلامة موسى (ص ١١١ - ١١٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة (١٩٩٣م).
(٢) المرجع السابق (ص ١١٣). (٣) المرجع السابق.

• ويطول بنا الكلامُ إذا أردنا أن نتتبعَ الاضطهاداتِ التي نالت المؤلفين والطبَّاعين من الكنيسة والحكومات - الأوربية - بل إن آلة الطباعةَ نفسها، وهي قِطَعٌ مؤلفةٌ من جماد نالها شيءٌ من الاضطهاد؛ لأنه كان يُحْكم بإغلاقها كأنها جسمٌ حيٌّ ينشر الفساد بين الناس ويعاقبُ بتعطيله.

ولكنَّ قائمةَ الكنيسة وإحراقَ الكتب واضطهاد المؤلفين وحبس الطابعين وتعطيل المطابع، كل هذه لم تستطع أن تمنع الثقافةَ من الانتشار؛ لأن فكر الإنسان وشهوته للتطور يأبيان إلا أن يشقَّا لهما طريقًا من وسط الاضطهاد نحو الحُرِّيَّة والسُّمو.

وخير ما يقال عن الطباعة ما قاله « ملتون » الشاعر الإنجليزيُّ سنة (١٦٤٤م).،. فقد تكلم « ملتون » عن مراقبة الطباعة وقال: إنها تؤدي إلى تثبيط الثقافة ووقف المعارف.. وقال: أعطني الحُرِّيَّة في أن أعرف وأن أقول وأن أناقش كما يملي عليَّ ضميري، قبل أن تعطيني أيةَ حُرِّيَّة أخرى ... [(١)].

• حتى الثَّورة الفرنسيَّة التي أعلنت مبادئَ العدالة والحُرِّيَّة والمساواة وقررت أنَّ حُرِّيَّة اختيار الدين وحُرِّيَّة الخطابة والصَّحافة من حقِّ كل وطنيٍّ، لم تستطع الالتزامَ بتلك المبادئَ في الواقع، بدليل أنَّ « المِقصلة » الشهيرةَ قطعت رءوس أكثر من ألف وأربعمائة بلا ذنب أو بذنوب طفيفةٍ [(٢)].

ولا نستطيع أن نتتبَّع حوادثَ الاضطهاد الفكريِّ وكبت حُرِّيَّة الرَّأْي في أوربا في القرون الوسطى، بل وفي عصر النهضة أيضًا - فهذا أمرٌ يطول ..

والمغزى لتلك الحوادث أن أوربا ممثلةٌ في الكنيسة والحكَّام لم تكن تؤمن بحُرِّيَّة الرَّأْي حقًّا، بل كانت تخشاها وتخاف من تأثيرها على سلطة الكنيسة وعلى هيبة الحكَّام.

لكنَّ الأمرَ كما يقول المثل العربي القديم: رمتني بدائِها وانسلت!

فتاريخ الفكر في أوربَّا يحاول التغطيةَ على هذه الجرائم أو تبريرها ..، بينما يرمون الأمةَ الإسلاميَّةَ بإنكار حُرِّيَّة الرَّأْي ..

ويزعمون أنَّ العالم الإسلاميَّ لم يعرف إلا الاستبدادَ والقهر وفرض الرَّأْي الواحد ولعلَّ فيما أوردناه في الفصول السابقة ما يبطل هذه المزاعم، بل يدل دلالةً واضحةً على

(١) المرجع السابق (ص ١١٨، ١١٩). (٢) المرجع السابق (ص ١٦٦).

إخلاص الإسلام لحُرِّيَّة الفكر وحُرِّيَّة الرَّأي، وحرصه على الانتفاع بالآراء والتجارب وإتاحة الفرصة للجميع للمشاركة في البحث عن الحقِّ واتباع سبيله..

حتى ما سميت باسم « الثورة الاشتراكية » التي قادها « لينين » وانتهت بإعلان دولتها في روسيا في أكتوبر سنة (١٩١٧م) لم تستطع الولاءَ لحقوق الإنسان، ولم تمنح المفكرين والكتاب حُرِّيَّة إبداء الرَّأي وحُرِّيَّة التعبير..

وبحلول عام (١٩٤٦م) اتضحت سياسة « زادانوف » - رجل السِّياسة والدَّولة الذي كان من أول أقرب المقربين إلى « ستالين » - وتجلَّت نوايا السُّلطة تجاه الأدباء، فقد بات من الواضح أنَّها لن تسمح لأيٍّ واحد منهم بالخروج عن الإطار الذي رسمته لهم.

وتحذيرًا لهم جميعًا من مغبَّة الجنوح وعاقبة العصيان، اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعيِّ في ١٤ أغسطس سنة (١٩٤٦م)؛ لتصدر مرسومها الشَّهير الخاص بالأدب تحت عنوان قرار خاص لصحيفتين « أزفزدا » و « لينجراد » وفيه أنحت اللجنة المركزية بالملامة والتقريع على هاتين الصحيفتين؛ لسماحهما بنشر الكتابات المفعمة بالحنين والأشواق، فضلًا لسماحهما بنشر الكتابات التي تمجِّد الثقافة « البورجوازية » وتحطُّ من شأن الحياة السُّوفيتية.

ولم تكتف اللجنةُ المركزيةُ بمنع صحيفة لينجراد من الصُّدور فحسب، بل إنَّها طالبت صحيفة « أزفازدا » بتصحيح مسارها وذلك بالامتناع عن نشر الكتابات المناهضة للنظام السوفيتي، وحتى تتأكد اللجنةُ المركزيةُ من أن « أزفازدا » سوف تقوم فعلًا بتصحيح مسارها بادرت بتعيين نائب رئيس قسم الدعاية بالحزب رئيسًا لتحريرها [١].

وصدر مرسوم خاص بالأدب تولى « زادانوف » شرحه واستفاض في التعليق عليه في خطابين ألقاهما بهذه المناسبة، فجاء هجومه على الخارجين على الحزب أكثر ضراوة من هجوم الحزب نفسه عليهم.

وممَّا جاء في هذا المرسوم: إن أي تبشير بالحياد الأيدولوجيِّ والحياد السياسيِّ، أو بالفنِّ للفنِّ، أمرٌ يجب استبعاده من الأدب السوفيتيِّ، فهو يضر بمصالح الشَّعب السوفيتي

---

(١) الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية وبعدها للدكتور/ رمسيس عوض (ص ١٣٤). سلسلة الألف كتاب الثاني - القاهرة (١٩٧٨م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والدَّولة السُّوفيتية (١).

فانظر إلى هذا الحظر والكبت والتَّضييق، وإلى المراسيم التي تحدِّد مسار الأدب واتجاهاته وتحظر على الصَّحافة التعبير عن مختلف الآراء..، فأين كانت حُرِّيَّة الرَّأي والفكر والتعبير، في هذه المرحلة التي امتدَّت سبعين عامًا، هي عمر الدولة الماركسية؟!

وفي ديسمبر عام (١٩٤٨م) شنت العناصر « الزادانوفية » في اتِّحاد الكُتَّاب هجومًا شديد الوطأة على المذهب الشكليِّ والمذهب الجماليِّ ودعاة الانفتاح على العالم الغربيِّ البورجوازي، واصطبغ هذا الهجوم بالنزعةِ نحو معاداة السَّامية، فقد هُوجِم عددٌ من كتاب المسرح المنحدرين من أصلٍ يهوديٍّ مثل « جيرفتش » و« يوزوفسكي » و « أولتمان » وتخفَّت هذه النزعة نحو معاداة السَّامية تحت شعاراتٍ قوميةٍ أحيانًا، وشعاراتٍ معاديةٍ للانفتاح على الغرب أحيانًا أخرى، ووصلت هذه النزعة ذروتها عام (١٩٥٢م) عندما قامت السلطات السُّوفيتية بإعدام مجموعةٍ من الكتَّاب اليهود، أمثال « ماركيش » و « كفتكو » و « فيفر » و « برجلسون » فضلًا عن أنها ألقت القبضَ على عددٍ كبير منهم عام (١٩٤٨م).

وفي معسكرات الاعتقال مات العشراتُ من الكتَّاب والفنانين الرُّوس رميًا بالرصاص خلال الفترة « الزادانوفية » (٢).

* * *

هذا قليلٌ من كثيرٍ من موقف النِّظام الماركسيِّ من حُرِّيَّة التفكير وحُرِّيَّة الرَّأي وحُرِّيَّة التعبير، ولا يغني عنه شيئًا استتاره وراء نظرية الالتزام التي تجعل الكاتب منحازًا لقضايا أمته، ولا بأس في ذلك، لكنَّ النظام الماركسيَّ جعله إلزامًا لا التزامًا، وكان يوحي إلى الكتاب والشُّعراء أن يجعلوا موضوعاتِهم تدور حول المصانع والمزارع الجماعية، وأن يتناسوا عواطفهم وأشواقهم الرُّوحية والنَّفسية ..

• ومن العجيب أن فلول الماركسيين المعاصرين يتناسون هذا الماضي المظلم للتجربة الشيوعية، ويشغلون أنفسهم الآن بإلصاق التُّهم والمعايب بالفكر الإسلاميِّ والتاريخ الإسلاميِّ، متباكين على حقوق الإنسان وحرياته التي ضاعت فيه!

ومرةً أخرى نتذكر المثلَ العربيَّ القديم: رمتني بدائها وانسلَّت! الذي يضرب لمن

---

(١) المرجع السابق (ص ١٣٥).   (٢) المرجع السابق (ص ١٣٦).

يخلع عيوبه على غيره ويبرئ نفسه!

فالواقع أن الوحشيةَ التي أبداها الحزبُ الشيوعيُّ واللجنة المركزية تجاه الكتابِ والشُّعراء لا يمكن استساغتُها أو تبريرها، حتى ولو تعلَّل هؤلاء من أنَّهم كانوا يريدون حماية الشعب من أعداء الماركسيَّةِ الذين كانوا يريدون إفشال تجربتها، وما أشبههم بمن يجرد إنسانًا من ملابسه بحجَّة حمايته من سرقة اللُّصوص لها! فلا فرق بين أن يجرِّدَه اللصوص أو يجرده من يتظاهرون بحمايته من اللُّصوص ..، فهو مجرَّدٌ من ملابسه في الحالَيْنِ!

واقع حرية الرأي في الغرب:

كنا نظنُّ أنَّ العالم الغربيَّ الذي تباهى بالإعلان العالميِّ لحقوق الإنسان الصَّادر عن الأمم المتحدة عام (١٩٤٥م) .. قد استفاد من تجارب التاريخ، وأيقن أنَّ الحُرِّيَّةَ الحقيقية شيءٌ ضروريٌّ للإنسان فردًا كان أو عضوًا في مجتمع ..

لكنَّ الوقائع المعاصرة تثبت أنَّ هذا العالمَ الغربيَّ يريد الحُرِّيَّةَ لنفسه وينكرها على الآخرين.. وأحيانا يؤمن بها في موقفٍ ويكفر بها في مواقف أخرى ..

فهذه فرنسا منارة الحُرِّيَّة كما يسمُّونها، ما بالها تخضع للضُّغوط الصُّهيونية، فتحرم بعضَ مفكِّريها من حُرِّيَّة الرَّأي وحُرِّيَّة التَّعبير وتصمُّ آذانَها عن نداء الإنسانيةِ وهتاف الحُرِّيَّة؟!

ها هو المفكِّرُ الفرنسيُّ الشهير « روجيه جارودي » الذي أصدر كتُبًا عن الصهيونية وادعاءاتها ووحشيتها وتزويرها للتاريخ، ومساندة الرَّأيِ العام الغربيِّ لها ووقوفه معها في كل ما تقوم به من استلاب حقوق العرب في فلسطين وهدم قراهم وطردهم من وطنهم الذي عاشوا فيه ألوف السنين..

لقد أصدر كتابه « ملف إسرائيل » الذي أثبت فيه أنَّ إسرائيل مشروعٌ استعماريٌّ استيطانيٌّ لا علاقة له بالدِّين ولا سند له من الشَّرعية ..

وبعد سنواتٍ أصدر كتابه: « الأساطير المؤسِّسة لدولة إسرائيل » الذي شكَّك فيه في الدَّعاوى التي يصرُّ عليها اليهود من أنَّهم تعرضوا للإبادة الجماعية في معسكرات « النازي » وأنه قد قتل منهم بأفران الغاز أكثر من خمسة ملايين ..

ورأى « جارودي » أنَّ عدد الذين ماتوا في هذه المعسكرات لا يزيد عن مليون أو مئات الألوف.

فقامت قيامة « اللوبي الصهيوني » ودفع الحكومة الفرنسية إلى محاكمة جارودي ومصادرة كتبه، حيث حكم عليه بالغرامة، وامتنعت دور النّشر والصُّحف عن نشر شيءٍ له، أو السَّماح له بالدفاع عنه نفسه.

• من هنا أصدر جارودي كتيِّبا عنوانه: « حق الرد » قال فيه: « لم تمكنِّي أجهزة الإعلام من استعمال حقٍّ من حقوقي التي كفلتها قوانيُنا وهو حقُّ الدِّفاع عن النفس، عندما شنَّت على كتابي « الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل » حملاتٍ تتسم بأحطِّ المغالطات، وبذلك أصبحت أسيرًا لجدرانٍ من الصمت.

ولقد كان الأب « بيير » وحده هو الذي تجرَّأ برفع صوته الجهير.

إنَّ الدولة الفرنسيةَ بذلك لم تعد هي الدولة التي تقوم على احترام الحقوق، بعد أن سمحت بسنِّ القوانين التي تحد من حُرِّيَّة التعبير، خاصة قانون « جيسو » [1]. الذي يبعث من جديد القوانين التي تقيد حُرِّيَّة الفكر والتي كانت قد اندثرت منذ نهاية حكومة « فيشي » [2].

فهذا القانون في واقع الأمر ينشئ من جديدٍ أوضاعًا تتَّسم بالتمييز العنصريِّ، ويمارَسُ ضد كلٍّ من يرفض الانطواءَ تحت مظلةِ الفكر الجامد الموجه، ويعود بنا إلى عهد عبادة المقدَّسات التي يفرضها السَّاسةُ الأمريكيون وعملاؤُهم في الدُّول الغربية والإسرائيليون على وجه الخصوص.

وإزاءَ هذا الصمت الذي فُرِض علينا فرضًا من « اللوبي » الذي يدَّعى حراسة المقدسات ومطاردة السحرة من أمثالنا! فإنني أتوجه بهذا الرد » [3].

بهذه المقدمةِ الأسيفةِ الموجعة يبدأ « جاوردي » دفاعه عن نفسه ورده على من اتهموه وأساءوا إليه دون إعمالٍ لحُرِّيَّة الفكر، أو اختيارٍ للرَّأي الصَّريح.

ونحن نختار من ردِّه جُمَلًا موجزة؛ لأنَّ المقام لا يتَّسع للتفصيل.

فهو يقول: « إنَّ السَّاسة الصَّهاينةَ لم ينبسوا بكلمةٍ واحدةٍ لدحض تهمة التَّواطؤ بينهم

---

(١) هو قانون يحرم معاداة السامية ويحظر التشكيك في المحرقة النازية لليهود.

(٢) وذلك أثناء الاحتلال النازي لفرنسا في الحرب العالمية الثانية.

(٣) حق الرد لجارودي (ص ٧، ٨) ترجمة د .هدى محمد شامل أباظة. مكتبة مصر الفجالة، القاهرة (١٩٩٦م).

وبين هتلر » [ص ٨].

« الصَّمت التام إزاء موضوع الإرهابِ الإسرائيلي » [ص ٩].

« بل إنَّ أحدًا لم يعترض على تحليلي الخاص بتسلُّط اللوبي الإسرائيلي على مقدرات السِّياسة الأمريكية والتَّمويل الأمريكي لدولة إسرائيل، باعتبارها الممثل للسِّياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط » [ص ١١].

ويمضي جارودي قائلًا:

« لم تصدر حتى الآن محاولةٌ واحدةٌ لتفنيد ما أكتبه ..، واستنادًا إلى هذا المبدأ فقد حُرِمت حقَّ الرَّد بجميع الصُّحف التي هاجمت كتابي بالأكاذيب وبغير خجل ..، ولقد حُرِمت أيضًا من الحديث المباشر في برامج التلفزيون الثلاثة، إلَّا أنَّهم قد قاموا بعمل مونتاجٍ هزليٍّ لم يتح لي فرصةَ الرَّد على ما نسبوه إليَّ من الكبائر والافتراءات.

لقد كانوا جميعًا يتحدَّثون بنغمةٍ واحدةٍ، مستخدمين أفظعَ المفردات من قاموس الكراهية، كما لجأوا إلى استحداث ألفاظٍ مبهمةٍ لابتداع اتهامات لا يمكن تحديدُها أو التَّعرف على كنهها، مثل: اتهامهم لي بما يسمى: نظرية الإنكار، وهو ما لم يرد في أيٍّ من القواميس الفرنسية، فضلًا عن عدم تحديد ما يقع عليه هذا الإنكار ..، ومن أجل التشهير بي استخدمت الكلمة السحرِيَّة « الإنكار »؛ لتصبح بديلًا عن ممارسة السحر التي كانت تطلق في القرون الوسطى على من يتعاملون مع الشَّيطان، ومن ثَمَّ يحقُّ عليهم الموتُ حرقًا » (١).

ويقول: « لقد عجزوا أن يعثروا في كتابي – الأساطير المؤسسة – على أيِّ أثر لمعاداتي للسَّامية أو ما يسمونه بالإنكار، أو ما يمكن أن يوحي من جانبي بالتَّهوين من شأن جرائم هتلر ضد اليهود أو ضد كل معارضي النِّظام النَّازيِّ، ولم يصبح أمام خصومنا إلَّا أن يوجِّهوا إلينا تهمةَ التَّشكيك في عدالة محكمة نورمبرج، وبذلك يمكنهم أن يوقعوا بنا تحت طائلة قانون جيسو – فابيوس » (٢).

ثم يقول: « أصبح للإرهابِ الفكريِّ في عصرنا الحاضر السطوةُ في الحجر على حُرِّيَّة الرَّأي بقهر القانون، وإنَّ هذا القانون – قانون جيسو – يعتبر وصمةَ عارٍ على جبين

(١) حق الرد (ص ١٢ – ١٤) مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق (ص ٣٠).

الحزب الشيوعيِّ الفرنسيِّ والحزب الاشتراكيِّ، وهما اللَّذان قاما بإعداده وتبنِّيه.

وإنَّ هذا العار لينسحب أيضًا على كافة الأحزاب السياسية التي قامت بمعارضته حينما كانوا خارج الحكم، إلا أنَّهم نكصوا عن إلغائه بعد توليهم الحكم خوفًا من سطوة اللوبيِّ اليهوديِّ » (١).

فإذا كان هذا حال حُرِّيَّةِ الرَّأْي في فرنسا التي يسمونها أمَّ الحريات في قضية واحدةٍ تتعلق بالخضوع للضَّغط الصَّهيونيِّ والسَّعي لاسترضاء إسرائيل، وعدم المبالاة بمبادئ الحق والعدل والحُرِّيَّة، والتعتيم الإعلاميِّ الذي يستهدف حرمانَ صاحبِ الرَّأْي من الدفاع عن نفسه في وسائل الإعلام ..، فكيف يكون حال حُرِّيَّة الرَّأْي في بقية أنحاء أوروبا؟!

* * *

• ولا نريد إلقاءَ التُّهم جزافًا، أو إطلاق العنان للرَّأي الذاتيِّ والقناعة الشخصية ..، ولكنَّنا نرجع إلى ما سطَّره الغربيون أنفسهم، من الذين يحاصرهم الإرهابُ الفكريُّ الصهيونيُّ الممتد في كثيرٍ من أنحاء العالم الغربيِّ، لا فرق في ذلك بين أوربا وأمريكا.

فهذا صحفيٌّ بريطانيٌّ شهيرٌ يُدعى: روبرت فيسك، ويعمل في صحيفة: الإندبندنت البريطانية، كتب مقالًا نشرت ترجمتَه مجلةُ الدراسات الإعلامية التي يصدرها المركزُ العربيُّ الإقليمي للدراسات الإعلامية بالقاهرة في عدد إبريل – يونية سنة (٢٠٠٦م) تحت عنوان: ماذا جرى لحُرِّيَّة التعبير في الغرب يفتتحه بقوله: لقد كتب عليك القتال، ذلك هو الاستنتاج الوحيد الذي توصلت إليه عندما شهدتُ تآكلَ حرِّيتنا كلما هَممنا بمناقشة قضية الشرق الأوسط.

وجاءت الطَّامة الكبرى عندما أخذت ورشةُ عمل مسرح غربيٍّ قرارَها الجبان بإلغاء مسرحية بعنوان: اسمي راشيل كوري، وتروي القصةُ شجاعةَ فتاةٍ غربيةٍ شابةٍ سافرت إلى غزَّة؛ كي تحمي الفلسطينيين الأبرياء وتقف في مواجهة البلدوزر الإسرائيلي الذي سحقها بجبروته، ومن ثم عاد للخلف؛ ليسحق عظامها .. وكانت آخر كلمة نطقت بها قبل أن تموت: لقد كسروا ظهري!.

---

(١) المرجع السابق (ص ٤٥).

ويمضي الكاتب الإنجليزي قائلًا:

تصوَّر الغرب: أنَّ شجاعة راشيل هذه هي من النوع الخطأ ..، فلم يكن الشعبُ الفلسطينيُّ هو الشعب الذي ينبغي لها أن تدافع عنه.

ومضى الصحفيُّ البريطانيُّ روبرت فيسك في مقاله يحكى قصةَ الصحفيِّ الأكاديميِّ « أنتوني لوينشتاين » الذي أكمل تأليف كتابٍ عن الصِّراع الفلسطينيِّ الإسرائيليِّ لصالح دار نشر جامعة « ملبورن » في أستراليا ..، ولكنَّ الجاليةَ اليهوديةَ في أستراليا عملت على التَّصدي لهذا الكتاب، وطلبت منع نشره قبل ظهوره في أغسطس من العام الماضي.

وفي العام نفسه كتب عضو البرلمان عن حزب العمال الفيدراليِّ مايكل داني وهو يهوديٌّ مثل: لوينشتاين رسالةً إلى صحيفة أستراليان جويش نيوز، طالب فيها أن يتم وقف كل ذلك المشروع المثير للاشمئزاز! وقال: إنَّ الكتاب يهدف إلى مهاجمة التَّيار الرئيسي في الجالية اليهودية الأسترالية.

ولم يكتف اليهودُ في أستراليا بهذه المطالبة، بل تحرَّك مجلس المندوبين اليهود ضد لوينشتاين لحرمانه من منصبه في مجلس مركز جامعة ماكاوري لدراسات الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا.

وهكذا لا يكتفون بالمنع والحظر، بل يعاقبون المؤلف ويحاصرونه؛ ليكون عبرةً لغيره .. إذا ما حاول أحدُ الكتَّاب الحديثَ عن الصِّراع الإسرائيليِّ العربيِّ بنزاهةٍ، وتقرير للحقائق الموضوعية.

والعجب أنَّ الغربَ لا يأبه بما يصيب جنوده على أيدي الصهاينة ولا يحقق في هذه الحوادث ..، فقد روى هذا الصحفيُّ البريطانيُّ أنه شاهد حادث قتل جنديَّين من الكتيبة الأيرلندية في جنوبي لبنان حين كان الصهاينةُ يحتلونه منذ عام (١٩٨٢م) ومع هذا ..، فقد أُجبر هذا الصحفيُّ على الصمت ..، وتلقَّى تهديدًا باعتقاله إنْ هو شهد على ذلك [(١)].

* * *

ولعلَّ إخفاءَ المعلومات والتَّكتم على ما يحدث ومحاولة تبرير الأخطاء وإسكات الصوت الآخر والرَّأي الآخر .. واضحٌ جدًّا فيما وقع من أحداث في الأعوام القليلة الماضية،

---

(١) الدراسات الإعلامية (ص ٢٤٣ – ٢٤٦) – القاهرة، العدد رقم (١٢٣) أبريل، يونية (٢٠٠٦م).

مما يدل على عدم الإيمان بحُرِّيَّة الرَّأْي إلا إذا كانت تخدم مصلحةً من مصالحهم.

وكذلك فإنَّ موقف الإعلام المعاصر من الصِّراع الفلسطينيِّ الإسرائيليِّ، ومحاولة إبراز وجهة النَّظر الإسرائيلية وحدها، وإغفال حقوق الشَّعب الفلسطينيِّ في أرضه وتقرير مصيره، والانحياز الكامل إلى جانب إسرائيل، واتِّهام الشعب الفلسطينيِّ بالإرهاب والوحشية ووصف إسرائيل بالديمقراطية والدفاع عن ممارساتها الوحشية وتبريرها بحقِّها في الدفاع عن نفسها، مخالف تمام المخالفة لمبادئ حُرِّيَّة الرَّأْي إلى جانب مخالفته للعدالة والإنسانية.

وما ذلك إلا لأنَّ الغرب يؤمن بحقِّه هو في حُرِّيَّة الرَّأْي ..، ولا يرى ذلك الحق للآخرين، مما يذكرنا برأي أفلاطون في كتابه الجمهورية من أنَّ العدالةَ هي تحقيق مصلحة الأقوى، وحينئذٍ فلا جدوى من الحديث عن الديمقراطية وحُرِّيَّة الرَّأْي وحُرِّيَّة التعبير.

ولا تنكر وجود مساحة لحُرِّيَّة الرَّأْي في دساتير البلاد الغربية، ولكن هذه البلاد تتناسى المبادئ والقوانين إذا ما تعلَّق الأمر بالكيان الصهيونيِّ، خضوعًا لعقيدة ضالَّةٍ تسمَّى: المسيحية الصهيونية.

والمفروض في المجتمعات الرَّاشدة أن يكون ولاؤها للحُرِّيَّة أصلًا لا يتأثَّر بالهوى، ولا يخضع للتهديد والابتزاز.

وهذا لا يتحقَّق إلَّا بالرُّجوع إلى الأسس الإسلاميةِ التي تجعل حُرِّيَّةَ الرَّأْي حقًّا وواجبًا ..، وتجعل هذه الحُرِّيَّةَ ركيزةً لتحقيق الأهداف والمثل التي يؤمن بها المجتمع.

* * *

آثار الالتزام بحرية الرأي على الفرد والمجتمع

تبينَّ في الفصول السابقة الآثار العملية التي تترتب على إتاحة الفرصة لحُرِّيَّة الرَّأْي في مجالاتها المتعددة.

ومن هنا فلن نحتاج إلى تفصيل هذه الآثار ..، لكنَّنا نشير إلى شيءٍ منها ..

فحُرِّيَّة الرَّأْي في مجال الاجتهاد يترتَّب عليها الوصول للحلول العملية للمشكلات التي تعرض في الحياة الفردية والاجتماعية ..

بينما يترتب على إغلاق باب الاجتهاد تراكمُ المشكلات في حياة النَّاس دون أن يكون هناك علاجٌ لها ..، ثمَّ إنَّ الانتفاع بالآراء النَّاضجة يدرِّب الفرد على التفكير والاستنباط ويدفعه إلى مزيد من العلم والتَّأمُّل والاجتهاد ..

فإذا لم يجد المجال مفتوحًا أمامه - وهو أهل للدُّخول فيه - ضاعت ثقته بنفسه وتعطَّلت مواهبُه وضعفت معارفُه.

• وحُرِّيَّة الرَّأْي في مجالِ الشُّورى مصلحةٌ كبرى للمجتمع تقدم النصيحة لولي الأمر وتعينه على اتِّخاذ القرار الصحيح في وقته المناسب ..

وقد رأينا كيف كانت الشُّورى سمةً عامةً للمجتمع الإسلاميِّ عملًا بقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلمَّا غابت الشُّورى عن حياة المجتمع المسلم في عصور الظُّلم والاستبداد كان غيابها سببًا للضعف والانهيار وتغلب الأعداء.

والشُّورى ليست في مجال السياسة والحكم فحسب، بل هي سمةٌ للعلاقات الإنسانية في المجتمع المسلم كما سبقت الإشارة إليها ..، حتى في شأن فطام الأطفال: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ويمكن أن تكون الشُّورى في مجال العمل بين الرئيس ومرءوسيه وفي مجال التعليم ومجال الصناعة ومجال الصِّحة والأمن وسائر المجالات ..

وقد كان النَّبِيُّ ﷺ يشاور بعضَ أزواجه كما حدث في صلح الحديبية حين شاور النَّبِيُّ ﷺ أمَّ سلمة، فأشارت بالرَّأْي الصحيح مما هو مفصلٌ في كتب السُّنَّة والسيرة ..

• والرَّأيُ في مجال الإصلاح والدّعوة هو ضمانةٌ لسلامة المجتمع وصحة اتجاهه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةٌ في المجتمع الإسلاميِّ، والصَّحيح أنَّه فرضُ عينٍ على كل مسلم ومسلمة حسب وسعه وطاقته ..

فإذا ما ضاقت هذه المجتمعاتُ بهذه الفريضة، فإنَّها تفقد أمنَها وسلامتها واستقرارها ..

ومن هنا كانت حُرِّيَّةُ الرَّأْي في مجال الدَّعوة والإصلاح وسيلةً فعالةً لتطهير المجتمع واستقامة سعيه.

• وحُرِّيَّة الرَّأْي في مجال البحث العلميِّ هي السبيل لرقيِّ المجتمع وتقدم العلوم فيه .. وقد شهد تاريخ أوربا في العصور الوسطى أن تحكم الكنيسةُ في البحث العلميِّ هو الذي كان يعوق النهضةَ ويؤخِّر البحثَ العلميَّ ..، بينما تقدمت المجتمعاتُ الإسلاميةُ في هذا المجال؛ لأنها كانت تتمتع بالحُرِّيَّة في مجال الرَّأْي العلميِّ، وتقتحم كل آفاق العلوم دون حظر ولا تقييد ... ما دامت هادفةً لخير الناس ..، وما دامت مبنية على أسس سليمةٍ في العقل والتجربة.

• والحُرِّيَّة في الإعلام شرطٌ ضروريٌّ لنشر المعرفة وإشاعة الحقيقة والبعد عن الظُّنون والأكاذيب ..

والإسلام لا يخشى الحُرِّيَّةَ ولا يخاف من الآراء الأخرى بدليل أنَّ القرآن حكى بعض مقولاتِ الكافرين والمنافقين واليهود وفرعون، وما ردَّ به الأقوام على رسلهم ..؛ لأنَّ الرد عليها واضحٌ في كتاب الله ..

ومن هنا عرف المجتمع الإسلاميُّ ما يسمى بالرَّأْيِ والرَّأْيِ الآخر، ودعا أتباعه إلى مناقشةِ الأقوال الأخرى والرَّد عليها بمنهجٍ علميٍّ قوي هادئ لا أثر فيه للغضب والانفعال ..

لقد أقرَّ الإسلام مبدأَ الاختلاف ..، ولكنه دلَّنا على طريقة إظهار الحقِّ فيما يختلف فيه الناس ..، فإذا اضطربت الآراءُ وخرج النِّقاش عند حدِّ المنطق، فإن المسلم يعلم أنَّ اللَّه سبحانه سيحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

قال تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحج: ٦٩].

آثار طيبة عديدة لحرية الرأي:

منها ما يعود على الإنسان نفسه في استعماله لعقله وإمعانه في تفكيره وحرصه على الإخلاص لمجتمعه والولاء للإنسانيةِ ومحبَّة الحق واحترام العقل وتقدير الفكر.

فإن إنسانًا لا رأي له .. لا فكر له .. ولا نفع فيه؛ لأنَّه لا يستعمل عقله فيما خلق له .. فما الفرق بينه وبين الحيوان الأعجم؟!

لقد منحه اللَّه نعمة البيانِ؛ ليعبِّر به عما يجيش بنفسه وما يهديه إليه تفكيره ..، فلماذا نسلبه حقَّه في التَّعبير والمشاركة في مسيرة المجتمع؟

لقد استمع النَّبيُّ ﷺ وهو الرسول المعصوم إلى آراء أصحابه وأخذ بها .. كما قال للحباب بن المنذر: « لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ! »، وقد عرضنا لذلك في فصل الرَّأْي في مجال الشُّورى مما يعطي الفرد الثقةَ بنفسه، ويدفعه إلى مداومة التَّفكر والاعتبار؛ ليصل إلى الحقيقة والاستبصار ..

إنَّ الإسلام لا يرضى عن عقلية القطيع الذي يُؤمرُ فيطيع، دون أن يستطيع التعبير وإبداء الرَّأْي، وأمامنا قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]. فهذه سمةُ الجماعة المسلمة الراشدة على مر التاريخ .. ولا يرضى الإسلام عن العقلية الفرعونيةِ التي يعبر عنها قول فرعون لقومه - فيما ذكره الكتاب العزيز: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

والتَّاريخ الإنسانيُّ شهيدٌ على أنَّ احترام حُرِّيَّة الرَّأْي وإتاحةَ الفرصة للفرد للتعبير عن مشاعره وأفكاره، هو التَّقدمُ الحقُّ وهو الرُّقي الصحيح ..

وإنَّ إشراقَ نور الإسلام كان بدايةَ هذا الاحترام والتَّقدير، بعيدًا عن آراء فلاسفة اليونان الذين قسَّموا البشر إلى أحرار وعبيد، وأنَّ غير اليونانيين كالحيوانات المسخَّرة لليونانيين وأنَّهم لا عقلَ لهم ولا فكر لهم ..

حتى أفلاطون في مدينته الفاضلة يجعل التَّفكير والرَّأْي محصورًا في طبقة الفلاسفة والحكام وجعل الآخرين جنودًا وصنَّاعًا وعمَّالًا مسخَّرين لا رأيَ لهم ولا اعتبار.

• أما حُرِّيَّة الرَّأْي في المجتمعِ الإسلاميِّ، فهي أفقٌ فسيحٌ يبدأ من حُرِّيَّة العقيدة؛ لأنَّ الرَّأْي في اللغة هو الاعتقاد، فالإنسان في الإسلام لا يؤمنُ إلا عن اقتناعٍ، ولا يعتقد

إلا بدليلٍ، وهو مختارٌ كل الاختيار في الدِّين الذي يرتضيه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

والمسلم يجد في عقيدته الدليلَ الواضح الذي يملأ فؤادَه باليقين، وهو لا يكلف بالإيمان بما يغمض عليه إدراكه، أو ما يصادم عقله، وأمامه آفاق السَّماوات والأرض يتأمل فيها كيف يشاء ويستجلي منها من مشاهدِ القدرة ودلائلها ما يريد، وهي كتابٌ حيٌّ يشهد بصدق ما جاء في القرآن.

فإن اختار الإنسانُ دينًا غير الإسلام، فهو وما اختار لنفسه، لا يكْره على الإيمان ولا يُحْمل على ترك عقيدته..

ومعنى هذا: أنَّ حُرِّيَّة العقيدةِ مكفولةٌ في المجتمع الإسلاميِّ، وليس كونه مجتمعًا إسلاميًّا أن يصبح كل فرد فيه مسلمًا، بل إنه يتَّسع لمعايشة من يختارون دينًا غيره، ما دام الأمر لا كيدَ فيه ولا فتنة، ولا يشعر أحدٌ ممن لا يدينون بالإسلام باضطهادٍ ولا ذلةٍ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

• وقد عاش أهلُ الكتاب في حُرِّيَّةٍ ظاهرةٍ في كل أنحاء المجتمع الإسلاميِّ عبر التاريخ، حتى اليهود الذين عاشوا في ظلال الدولةِ الإسلاميَّةِ وبلغ بعضُهم مرتبةَ الوزارة في بعض الأقطار الإسلاميَّةِ..، ولم يُحْملوا على ترك عقيدتهم، ولم يضيَّق عليهم في شعائرهم ولم يشعروا بالهوان والاضطهاد..، ولا يزالون كذلك حتى اليوم في كل أقطار الإسلام.

* * *

• إنَّ حُرِّيَّة الرَّأْي أوسعُ ما تكون وأعمق ما تكون في ظلال الإسلام..، فكل فرد يستطيع أن يستعلن برأيه وأن يجهر بحجَّته دون أن يصيبه أذًى أو يلحقه خوفٌ، ولو كان خاطئَ الرَّأْي، فليس هناك ما يخشاه الإسلام من أن ينطق كلُّ إنسانٍ بما يشاء من رأيٍ ونظر..

ونتيجةٌ لحُرِّيَّةِ الرَّأْي في المجتمع الإسلاميِّ، اتَّضح أنه ليس مجتمع إجبارٍ، بل هو مجتمعٌ يقوم على رعاية مبادئَ يؤمن بها كلُّ فردٍ عن اقتناعٍ واختيارٍ، بل عن حماسة وإخلاص.

وكلُّ ما يمكن أن يَشْجر فيه الخلافُ في ذلك المجتمع من صور التَّطبيق أو الاجتهاد

في النظر، يتسع الأمر فيه للشُّورى، وتتَّضح فيه الحقيقةُ بعد الفهم والاقتناع، دون جنوحٍ إلى القهر أو الكبت فلا خيرَ فيه للفرد، ولا للمجتمع ..

وهذا دليلٌ ناصعٌ على كفالة حُرِّيَّة الرَّأي في المجتمعِ الإسلاميِّ، ولذلك كان من الحماقة والجهالة أن يقال: إنَّ الاستبداد من خصائص الحكومة في الإسلام؛ لأنها تطبق نصوصًا وأحكامًا لا مجالَ فيها للرَّأي ..

• والحقيقةُ أنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ قد قام على أرسخ القواعد في حُرِّيَّة الرَّأي واتسع للنقاش المخلص والحجَّة السليمة، ولو كان هناك استبدادٌ مقدَّسٌ، أو كبتٌ يعتمد على الدِّين لكان أولى به موقفُ الرسول ﷺ من المؤمنين..، فقد كان الوحيُ ينزل عليه ويرشده إلى الصَّواب، وكان من السَّداد في الرَّأي بحظٍّ عظيمٍ، ومن وفور العقل بدرجة الكمال البشريِّ، ومع كل ذلك كان عليه أن يستمع إلى الآراء، وأن يتقبَّل منها ما يحوي الصوابَ ..

وقد سُقنا أمثلةً مشهورةً من مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه، وهي ذاتُ مغزى عميقٍ، تصلح دستورًا لحُرِّيَّة الرَّأي في مجتمع الإسلام.

ويلحقُ بحُرِّيَّة الرَّأي في الإسلام حقُّ النقد والتقويم ..، وما زال هذا النَّقدُ سمةً من سمات المجتمع الإسلاميِّ في كل عصرٍ تحقَّقت فيه الحُرِّيَّةُ والشُّورى.

ويكفينا في ذلك القواعد التي سنَّها الراشدون.

وكلُّ ذلك مرتبطٌ بالتَّوجيه القرآنيِّ بالتَّواصي بالحقِّ والصَّبر الذي جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

والتوجيهُ النَّبويُّ في قوله ﷺ: « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** » [١].

وهكذا فإنَّ تحقيق حُرِّيَّة الرَّأي سموٌّ بالفرد وإصلاح للمجتمع.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

خَاتِمَة

وبعد فإنَّ الحديث عن حُرِّيَّة الرَّأي في الإسلام يستدعي النظرَ في قواعدِ الإسلام وحقائق الإيمان ..؛لأنَّ حُرِّيَّة الرَّأي في الإسلام ليست تصنعًا ولا افتعالًا ولا مباهاةً ولا مفاخرةً ولا مراءاةً ولا تملقًا للأهواءِ والمصالح ..

بل هي مرتبطةٌ بنظرة الإسلام إلى الإنسان باعتباره مخلوقًا عاقلًا مفكرًا ذا قدرةٍ على البيان والإفصاح ..، فلابدَّ من تمكينه من التَّعبير عما يعتمل في نفسه والدفاع عن حقِّه والدعوة إلى الحُرِّيَّة والإصلاح ..

وقد صان الإسلام تلك الحُرِّيَّة عن العبث والانحراف واتِّباع الهوى ..، فجعلها حقًّا وواجبًا ومسئوليةً ..، ووضع لها الضوابطَ التي تجعلها أداةً للبناء والإصلاح ..، لا أداةً للهدم والتدمير.

• إنَّ حُرِّيَّة الرَّأي ليست عبثًا ولا استطالةً على الآخرين ولا فرحًا بشقشقة اللسان ولا إعجابًا بحسن البيان ..

فهي مرتبطةٌ بالكلمة منطوقة أو مكتوبة ..

والكلمةُ في الإسلام أمانةٌ ومسئوليةٌ ..، فهناك كلمة طيبة .. وكلمة خبيثة ..

وهناك كلمةٌ ترفع درجاتِ قائلها، وتفتح له أبوابَ السَّعادة في الدُّنيا والآخرة .. وكلمةٌ أخرى تجلب عليه اللعنةَ، وتجعله يهوي في النَّار سبعين خريفًا - كما جاء في الحديث الشريف (١).

لقد صان الإسلام حُرِّيَّةَ الرَّأي بالأخلاقِ الفاضلة ..

فلا يجوز لأحدٍ استغلالُ هذه الحُرِّيَّة في الطَّعن في الآخرين واتهامُهم بالباطل أو ابتزازهم للحصول على مكاسبَ ماديَّةٍ كما تفعل الصَّحافةُ التُّجارية في الغرب وما قلَّدها في بلاد الشرق من التلويح بنشر الفضائح، أو بثُّ الأكاذيب للتَّشهير والاتِّهام ..، مالم يؤدِّ الشخص المهدَّد إليهم ما يريدونه من مال ..

• إنَّ هذه ليست حُرِّيَّةً ..، بل هي بذاءةٌ وافتراءٌ ..، فالحُرِّيَّة ليست سلاحًا موجَّهًا

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب رقم (٢٧).

للشُّرفاء الأبرياء، ولا هي أداةٌ للكسب الحرام والاحتيال.

إنَّ للحُرِّيَّة أفقَها الرفيعَ في مجال الرَّأْي الصَّادق والنقد الهادف البنَّاء..

وفي مجال الاجتهاد الفقهيِّ والبحث العلميِّ، والشُّورى والدَّعوة والإصلاح والنقاش العلميِّ الهادئ المترفع عن السباب والتنابز بالألقاب..

ومن هنا فإنَّ على الأمة الإسلاميةَ أن تفخر بما حواه دينُها الحنيفُ من بناءٍ متكاملٍ لحُرِّيَّة الرَّأْي يسمو على كل بناءٍ ويترفَّع عن أيِّ ادِّعاءٍ..

إنَّهم في الغرب يتحدثون عن الحُرِّيَّة، ولكنَّها لأنفسهم لا لغيرهم..، وعن العدالة ولكن لمصالحهم وامتيازاتهم، وعن الإنسانيةِ ولكنَّهم يعنون بها فريقًا من البشر دون فريقٍ..

فما أحوجَ البشرية في هذا العصر إلى العدالةِ والمساواةِ، والحُرِّيَّةِ من المنظور الإسلاميِّ الصَّادق.. الذي يصلح عليه أمرُ البشريَّةِ، ويختفي به التَّصارعُ والتَّنازع، والتَّحزب والافتراق..

ولتكنِ الأمَّةُ الإسلاميةُ قدوةً للبشرية في تحقيق المنهج الإسلاميِّ لحُرِّيَّة الرَّأْي؛ لتكون نموذجًا ملموسًا تتطلعُ إليه البشريةُ الحائرةُ المعذَّبةُ التي أضناها تُجَّارُ السياسةِ ومُسعَروا الحروب وأعداء الأنبياء.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل

* * *

مراجع البحث

١ - الأحزابُ السياسيةُ في الإسلام - لصفي الرحمن المباركفوريّ - القاهرة - دار الصحوة - (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٢ - الأحكام السلطانية للماورديِّ - القاهرة - ط مصطفى البابي الحلبي - (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

٣ - الأدب الروسيُّ قبل الثورة البلشفية وبعدها للدكتور رمسيس عوض - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٧م) - سلسلة الألف كتاب الثاني.

٤ - الأدب المفرد للإمام البخاريِّ - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - المكتبة الأثرية - لاهور - باكستان ط مصورة.

٥ - أزمة الفكر السياسيِّ الإسلاميِّ في العصر الحديث للدكتور عبد الحميد متولي - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثالثة - (١٩٨٥م).

٦ - أساس البلاغة - للزمخشري - ط دار الكتب المصرية.

٧ - الإسلام بين العلم والمدنية للشَّيخ محمد عبده - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - (١٩٩٣هـ).

٨ - الإسلام دعوة الحق. للدكتور السيد رزق الطويل - رابطة العالم الإسلاميِّ بمكة المكرمة - سلسلة دعوة الحق - السنة الخامسة العدد (٤٦).

٩ - إعلام الموقعين لابن القيم - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - طبعة مصورة بدار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

١٠ - أعلام وأفكار - ليوهان هويزنجا - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - سلسلة الألف كتاب الثاني - الطبعة الثانية - القاهرة - (١٩٩٩م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١ - الإنسان في القرآن للأستاذ عباس محمود العقاد - الطبعة الأولى - القاهرة - مكتبة نهضة مصر - دون تاريخ.

١٢ - البداية والنهاية لابن كثير - ط مكتبة المعارف - بيروت - (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

١٣ - البيان النبويُّ للدكتور محمد رجب البيومي - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ دار الوفا للطباعة والنشر بالمنصورة.

١٤ - البيان والتبيين للجاحظ - دار الكتب العلمية - بيروت - ط مصورة.

١٥ - تاريخ الأستاذ الإمام - للشيخ محمد رشيد رضا - القاهرة - مطبعة المنار - (١٣٥٠هـ).

١٦ - تجديد التفكير الديني في الإسلام - لمحمد إقبال - ط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.

١٧ - التجديد في الشِّعر العربيِّ الحديث - للدكتور يوسف عز الدين - الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) - نادي جدة الثقافيّ الأدبيّ.

١٨ - تحت راية القرآن - للأستاذ مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة السابقة - (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

١٩ - تراث الإسلام - للمستشرق الألماني جوزيف شاخت وزملائه - سلسلة عالم المعرفة - الكويت (١٩٧٨م).

٢٠ - التربية الإسلامية في الأندلس - لخوليان ريبيرا - ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي - دار المعارف - القاهرة - (١٩٨١م).

٢١ - التفسير والمفسرون للشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي - القاهرة - دار الكتب الحديثة - الطبعة الأولى - (١٣٨١هـ).

٢٢ - تفسير الآلوسيّ « روح المعاني » دار الطباعة المنيرية - القاهرة - (١٣٥٨هـ).

٢٣ - تفسير الطبريّ - ط دار الفكر - بيروت - (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

٢٤ - تفسير الكشاف - للزمخشريّ - ط المكتبة التجارية بالقاهرة - (١٣٧٣هـ).

٢٥ - التفكير فريضةٌ إسلاميةٌ للأستاذ عبّاس محمود العقّاد - ط مكتبة نهضة مصر - القاهرة - دون تاريخ.

٢٦ - تهذيب تاريخ ابن عساكر - لعبد القادر بدران - ط دمشق - (١٣٢٩ - ١٣٥١هـ).

٢٧ - الثقافة والمجتمع تأليف رايموند وليافز - ترجمة وجيه سمعان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - (١٩٨٦م)، سلسلة الألف كتاب الثاني العدد الخامس.

٢٨ - جمهورية أفلاطون - دراسة وترجمة د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - (١٩٨٥م).

٢٩ - جمهورية أفلاطون - ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد - الطبعة الثالثة - دار المعارف - القاهرة - (١٩٦٩م).

٣٠ - حُرِّيَّة الفكر - لسلامة موسى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - (١٩٩٣م).

٣١ - حضارة العرب - لجوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر - القاهرة - دار إحياء الكتب العربية - دون تاريخ.

٣٢ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - للعقاد - ط نهضة مصر - القاهرة - دون تاريخ.

٣٣ - الحقائقُ الغائبةُ عمن يرفضون تحكيمَ الشريعة - دار الصحوة - القاهرة - (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

٣٤ - حق الرد الجارودي - ترجمة د.هدى أباظة - مكتبة مصر بالفجالة - القاهرة - (١٩٩٦م).

٣٥ - حلية الأولياء لأبي نعيم - ط الخانجي - القاهرة - (١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م).

٣٦ - حياة شيخ الإسلام ابن تيمية - للشيخ أبي الحسن الندوي - الطبعة الرابعة - دار القلم بالكويت - (١٤٠٧هـ).

٣٧ - درء تعارض العقل والنقل - لابن تيمية - تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - (١٩٧١م).

٣٨ - دلائل النبوة للبيهقيّ - تحقيق محمد معطي قلعجي - بيروت - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

٣٩ - الدولة في الإسلام للأستاذ خالد محمد خالد - القاهرة - دار ثابت (١٣٩٣هـ) الطبعة الأولى.

٤٠ - الديمقراطية الأمريكية - ترجمة حسن عبد ربه المصري - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب - (٢٠٠٥م).

٤١ - الديمقراطية السياسية - للدكتور محمد مندور - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - (١٩٩٥م).

٤٢ - الدين والعلم - لبرتراند رسل - ترجمة رمسيس عوض - كتاب الهلال - العدد رقم (٥٥٤) فبراير (١٩٩٧م).

٤٣ - ديوان الإلبيريّ - تحقيق د. محمد رضوان الداية - نشر مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

٤٤ - ديوان أبي تمام - طبعة مصورة عن طبعة نظارة المعارف - المركز العربي للبحث والنشر - بيروت - دون تاريخ.

٤٥ - ديوان الفرزدق - القاهرة - مطبعة الصاوي - الطبعة الأولى - (١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م).

٤٦ - ذم الهوى لابن الجوزيّ - القاهرة - دار الكتب الحديثة (١٣٨١هـ - ١٩٦١م).

٤٧ - رجال الدعوة والفكر في الإسلام - لأبي الحسن الندوي - (انظر حياة شيخ الإسلام ابن تيمية).

٤٨ - الرد الجميل للغزاليّ - تحقيق عبد العزيز عبد الحق - نشر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

٤٩ - رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده - الطبعة الخامسة - دار المعارف - القاهرة.

٥٠ - رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين - تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاويّ - دار الصحوة - القاهرة - (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

٥١ - الرسالةُ القبرصيةُ - لابن تيمية - (ضمن الفتاوى) الجزء (٢٨).

٥٢ - رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب - للدكتور محمد بن عبد الله السلمان - نادي القصيم - بيريدة - (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٥٣ - الزهد - للإمام أحمد بن حنبل - ط مصورة بدار الكتب العلمية - بيروت - دون تاريخ.

٥٤ - سنن ابن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - ط عيسى الحلبي - القاهرة - طبعة مصورة بدار إحياء التراث العربي - بيروت - (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

٥٥ - سنن أبي داود - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء السُّنَّة النَّبويَّة - القاهرة - دون تاريخ.

٥٦ - سنن الترمذيّ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - دون تاريخ.

٥٧ - سنن الدارميّ - دار إحياء السُّنَّة النَّبَوِيَّة - القاهرة - دون تاريخ.

٥٨ - سنن النسائيّ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - دون تاريخ - طبعة مصورة.

٥٩ - السياسةُ الشرعيةُ - لابن تيمية - الجزء (٢٨) من الفتاوى - القاهرة - دون تاريخ.

٦٠ - الشُّورى لا الديمقراطية - للدكتور عدنان رضا النحوي - دار الصحوة - القاهرة - الطبعة الثانية - (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

٦١ - صحيح البخاريّ - المطبعة الخيرية - القاهرة - (١٣٢٠هـ).

٦٢ - صحيح مسلم - ط عيسى الحلبي - القاهرة - دون تاريخ.

٦٣ - طبقات ابن سعد - ط صادر بيروت - دون تاريخ.

٦٤ - العروة الوثقى - ط دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثالثة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٦٥ - غياث الأمم في التياث الظلم - للجويني - تحقيق د. مصطفى حلمي - ط دار الدعوة بالإسكندرية - دون تاريخ.

٦٦ - فتاوى ابن الصلاح - ط القاهرة - دون تاريخ.

٦٧ - فتاوى ابن تيمية - ط القاهرة - دون تاريخ.

٦٨ - فجر العلم الحديث - تأليف « توبي، هف » ترجمة د. محمد عصفور - الطبعة الثانية - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - العدد رقم (٢٦٠) - جمادى الأولى (١٤٢١هـ) أغسطس (٢٠٠٠م).

٦٩ - الفرقان بين الحقِّ والباطل - من مجموع رسائل ابن تيمية - ط المطبعة العامرة الشرقية (١٣٢٣هـ).

٧٠ - فقه عمر بن الخطاب - للدكتور رويعي الرحيلي - نشر مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى - (١٤٠٦هـ).

٧١ - الفكر الإسلاميّ في تطوره - للدكتور محمد البهي - القاهرة - مكتبة وهبة - الطبعة الثانية - (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

٧٢ - الفكر الإسلاميّ والفلسفات المعارضة في القديم والحديث - للدكتور عبد القادر محمود - الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (١٩٨٦م).

٧٣ - القاموس المحيط - للفيروزاباديّ - المطبعة الأميرية - القاهرة.

٧٤ - القرآن والفلسفة - للدكتور محمد يوسف موسى - القاهرة - دار المعارف - (١٩٥٨م).

٧٥ - قصة العلم - تأليف ج.ج كراوثر - ترجمة د. يمني طريف الخولي - الطبعة الأولى - القاهرة - (١٩٨٨م) - المجلس الأعلى للثقافة.

٧٦ - كتاب الحياة العهد القديم والعهد الجديد - القاهرة - (١٩٩٤م).

٧٧ - كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث بين الناس - للعجلوني - طبعة مصورة - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - دون تاريخ.

٧٨ - الكشكول لبهاء الدين العاملي - تحقيق الطاهر أحمد الزاوي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - (١٩٦٠م).

٧٩ - اللزوميات - لأبي العلاء المعري - مكتب صادر بيروت - دون تاريخ.

٨٠ - مائة سؤالٍ عن الإسلام - للشيخ محمد الغزاليّ - القاهرة - دار ثابت الطبعة الثالثة - (١٤٠٧هـ).

٨١ - مالك - تجارب حياة للأستاذ أمين الخولي - سلسلة أعلام العرب رقم (١١) - القاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - دون تاريخ.

٨٢ - مجلة الأزهر - عدد شوال (١٣٧٩هـ) أبريل (١٩٦٠م)، وعدد صفر (١٣٨٠هـ) يولية (١٩٦٠م) - المجلد الثاني والثلاثون الجزء الثاني.

٨٣ - مجلة الدراسات الإعلامية - القاهرة - العدد رقم (١٢٣) أبريل - يونية (٢٠٠٦م).

٨٤ - مجلة الفكر العربيّ - بيروت - عدد سبتمبر - (١٩٦٠م).

٨٥ - مجلة المجلة - العدد (٣٧) - رجب (١٣٨٩هـ) يناير (١٩٦٠م) - القاهرة.

٨٦ - مجلة المنار - المجلد رقم (٢٩).

٨٧ - محمد بن عبد الوهَّاب - للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار - الطبعة الرابعة - مكتبة الفرقان - بيروت (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

٨٨ - المختار من العقد الاجتماعيّ لجان جاك روسو - تقديم د.حسن سعفان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - (٢٠٠٤م).

٨٩ - مسند أحمد - ط مصورة المكتب الإسلامي - دار صادر - بيروت - دون تاريخ.

٩٠ - مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية بقلم يوسف شرارة - القاهرة - مشروع الألف كتاب الثاني - (١٩٩٦م).

٩١ - معالم تاريخ الإنسانية - لويلز - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - (١٩٩٦م).

٩٢ - مقدمة التفسير - للراغب الأصفهانيّ، مطبعة الجمالية بالقاهرة - (١٣٢٩هـ).

٩٣ - مقدمة في أصول التفسير - لابن تيمية - مطبعة الترقي بدمشق - (١٩٣٦م).

٩٤ - مناقب الإمام أحمد - لابن الجوزيّ - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثالثة - (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

٩٥ - منهاج السُّنَّة - لابن تيمية - الطبعة الأميرية - القاهرة.

٩٦ - الموافقات - للشاطبيّ - ط دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - دون تاريخ.

٩٧ - الموطَّأ للإمام مالك - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - ط عيسى البابي الحلبي - القاهرة - دون تاريخ.

٩٨ - نضال الأزهر بين السياسة وحُرِّيَّة الفكر للدكتور محمد رجب البيومي - القاهرة - مطبعة السعادة

(١٤٠٢هـ - ١٩٨١م).

٩٩ - نظرية الإسلام السياسية - لأبي الأعلى المودودي - القاهرة - مكتبة اقرأ - (٢٠٠٣م).

١٠٠ - النقد الأدبي الحديث - للدكتور محمد غنيمي هلال - دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الرابعة - (١٩٦٩م).

١٠١ - هموم داعية - للشيخ محمد الغزالي - ط إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر - (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

١٠٢ - وعود الإسلام لجارودي - الدار العالمية - بيروت (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

* * *

فِهرِسُ المُحتَوَيَاتِ

الموضوع | **الصفحة**

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

أ. د. مصطفى عبد الواحد إبراهيم.

- ولد عام (١٣٥٨هـ).
- تخرج من قسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام (١٣٨٣هـ).
- نال درجة الماجستير بتقدير ممتاز في الأدب والنقد عام (١٣٨٧هـ).
- نال درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى في الأدب والنقد عام (١٣٨٩هـ).
- عمل رئيسًا للتحرير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ما بين عامي (١٣٨٩ - ١٣٩١هـ).
- عمل أستاذًا مساعدًا متعاقدًا للأدب والنقد بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة عام (١٣٩١هـ).
- رقي إلى درجة أستاذ مشارك بالجامعة نفسها عام (١٣٩٦هـ).
- عين عضوًا في هيئة التدريس بالجامعة نفسها عام (١٣٩٨هـ) بعد حصوله على جنسية المملكة العربية السعودية.
- رقي إلى درجة أستاذ بجامعة أم القرى عام (١٤٠٦هـ).
- أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه بالجامعة نفسها.
- عين مديرًا لمركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ما بين سنة (١٤٠٧ - ١٤١١هـ) ويعمل مدير مركز اللغة العربية وآدابها.
- شارك في وضع مناهج قسم اللغة العربية ومناهج قسم الدراسات العليا العربية.
- قام بالتحكيم العلمي لمجلة جامعة أم القرى، ومجلة كلية اللغة العربية، ومجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود، ومجلة جامعة اليرموك بالأردن.
- ألقى عددًا من المحاضرات الأدبية بالنوادي الأدبية الثقافية في مكة المكرمة والطائف. وأبها والقصيم والباحة.
- شارك في مؤتمرات دولية ومحلية.
- عين عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر عام (١٤٢٩هـ).

المؤلفات والمحققات المنشورة:

أ - دراسات أدبية ومنها:

١ - من سمات الأدب الإسلامي.

٢ - من روائع البيان النبوي.

٣ - كيف ضاعت الأندلس (نصوص تحكي سر المأساة).

٤ - تحقيق الحديث النبوي في كتب التراث.

٥ - خطر التبعية في مجال النقد.

ب - تحقيق التراث:

١ - ذم الهوى لابن الجوزي في سبعمائة صفحة (أول طبعة في العالم).

٢ - تحقيق اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير - الجزء الأول.

٣ - تحقيق التبصرة لابن الجوزي في مجلدين (أول نشرة)، يحوي مختارات أدبية حكمية.

٤ - تحقيق الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي، جزآن (أول نشرة).

٥ - تحقيق سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي « المعروف بالسيرة الشامية » الجزآن الأول والثاني (أول نشرة).

٦ - تحقيق السيرة النبوية لابن كثير، أربعة مجلدات في (٢٥٠٠) صفحة (أول نشرة).

٧ - قصص الأنبياء لابن كثير، مجلدان.

٨ - شمائل الرسول لابن كثير.

٩ - الاكتفاء في مغازي رسول اللّه والثلاثة الخلفاء للكلاعي الأندلسي، جزآن (أول نشرة).

جـ - دراسات إسلامية:

١ - شخصية المسلم كما يصورها القرآن.

٢ - الأسرة في الإسلام.

٣ - المجتمع الإسلامي.

٤ - الإيمان في القرآن.

٥ - شخصيات ونماذج إنسانية من القرآن.

٦ - هكذا تحدث السلف.

٧ - الإسلام ومشكلات الشباب.

٨ - الحقائق الغائبة عمن يرفضون تحكيم الشريعة.

٩ - الأنبياء في القرآن.

رقم الإيداع

٢٠١٠ / ١٣٤٤٨

الترقيم الدولي I.S.B.N

978-977-342-915-7

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم ..   السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « حرية الرأي في الإسلام » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب :** ....

هاتف : .... / **e-mail :** ....

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

□ أثناء زيارة المكتبة □ ترشيح من صديق □ مقرر □ إعلان □ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة: .... العنوان: ....

- ما رأيك في الكتاب ؟

□ ممتاز □ جيد □ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

□ عادي □ جيد □ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ □ رخيص □ معقول □ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

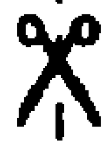
دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)



(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :


نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

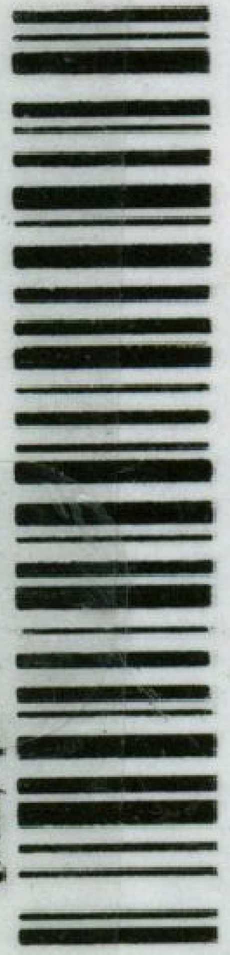


دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

هَذَا الكِتَابُ

يبحث في المجالات المختلفة لحرية الرأي، محاولًا إثبات أن مجال العقيدة لا موضع للرأي فيه؛ فهو اتباع وتصديق بما جاء في الكتاب والسنة، وأن مجال التفسير لا يتسع للرأي إلا بمقدار الاختيار والترجيح بين الأقوال المروية عن الصحابة والتابعين، مبينًا الآفاق المفتوحة للرأي والاجتهاد، ومدى تنوع مجالاتها من اجتهاد فقهي ودعوي، حتى في مجال السياسة والحكم، والجدل والحوار، والصحافة، والإبداع، وما يستجد من أحوال، معرفًا معنى الرأي وأطر الاختلاف، في الوقت ذاته يؤكد أن الباب لم يغلق ولا ينبغي له أن يغلق في زمن تتغير فيه الأوضاع التي يحتاج الناس فيها إلى حكم شرعي لما جدَّ من أحوال.

ثم ساق الحديث عن حرية الرأي في الغرب؛ ليتضح مدى زيف ادعائهم أن الغرب هو كهف الحرية وملاذها؛ ليقدم للإنسانية الحائرة منهجًا إسلاميًّا صادقًا تستغني به عن الفلسفات والثقافات المادية المتضاربة، التي ورثتها عن فلاسفة أوربا الذين ذهبوا في تصوراتهم بعيدًا عن فطرة الإنسان وحاجاته الحقيقية..



الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-342-915-7

